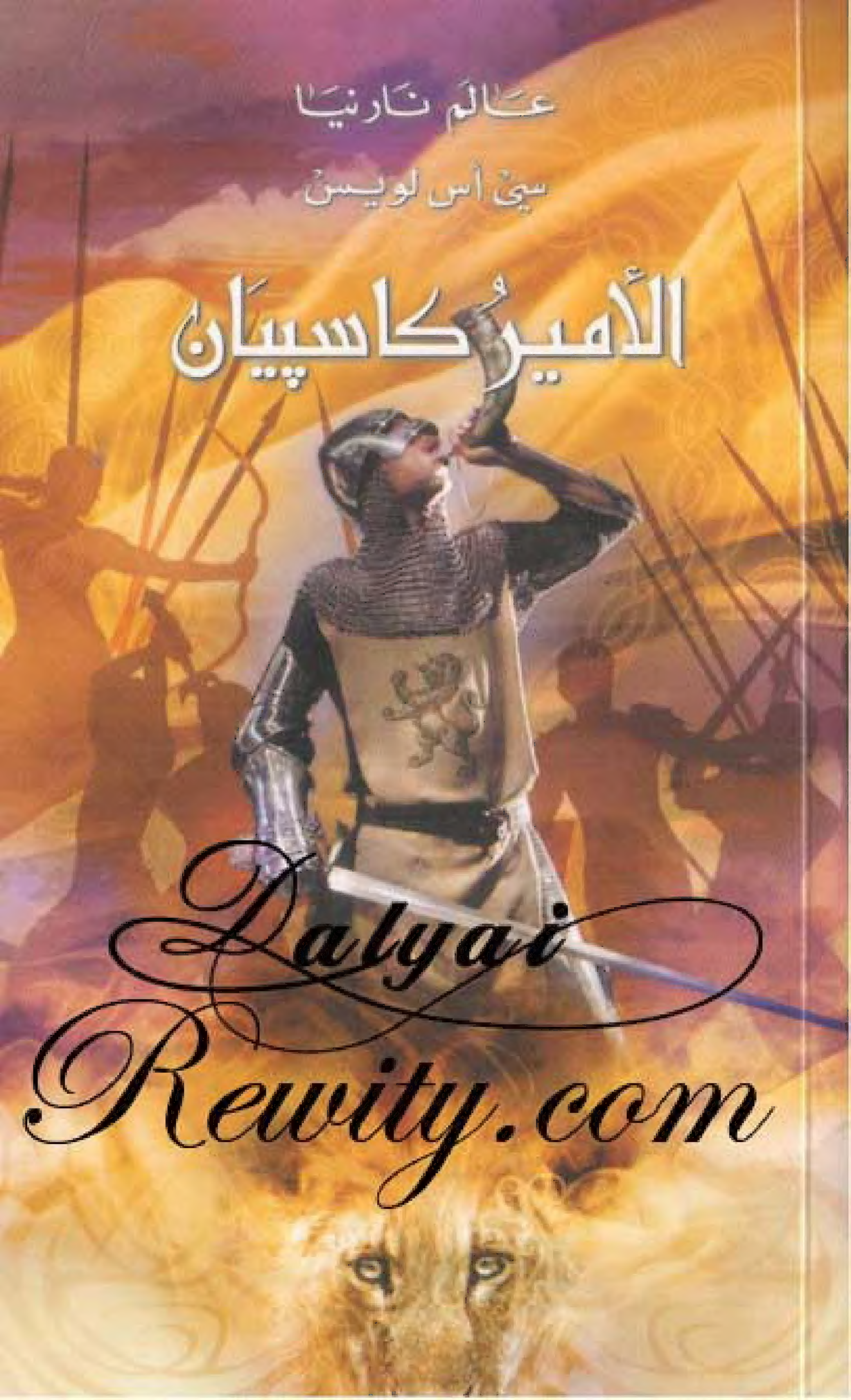

عالم نارنيا
سي أس لويس
الأمير كاسبيان
Dalyai Rewity.com

عالم

نارنيا



أمير يحارب لاستعادة عرشه المسلوب

نارنيا ... حيث الحيوانات تتكلم ... حيث الأشجار تمشي ..... حيث تُوشِك معركةٌ أن تبدأ.

يجمع أميرٌ اغتُصِب عرشه جيشاً في محاولة يائسة للتخلص من الملك المزيّف المغتصِب. ولكن في النهاية، تحسم معركةُ شرفٍ بين رجلين فقط مصير عالمٍ بأكمله.

ISBN 90-5950-037-7

9 789059 500372

الأميرُ كاسپيان

أمير شاب عليه أن يحارب لاستعادة عرشه المسلوب.

نارنيا ... أرض ما وراء عامود الإنارة، حيث تحدثُ أمورٌ عجيبة، حيث يعود الأسد ... حيث توشِك معركةٌ أن تبدأ.

يجلس ملكٌ شرير على عرش نارنيا، مُجبِراً المخلوقات الأسطورية على العيش مختبئين. ويحارب الملك الشرعي، الأمير كاسپيان، بشدةٍ لاستعادةِ عرشِهِ وإنقاذ شعبِهِ. ولكن حين يبدو أنه خسِر كل شيء، يدعو الأسد العظِيم، أصلان، بطرس وسوزانَ وإدمون ولوسي، وهم أربعةُ ابطالٍ من عالمٍ آخر، للمشارَكة في المعركة لتحرير نارنيا.

هذه هي المغامرة الشيّقة الرابعة

في عالم نارنيا.

روايات عالم نارنيا

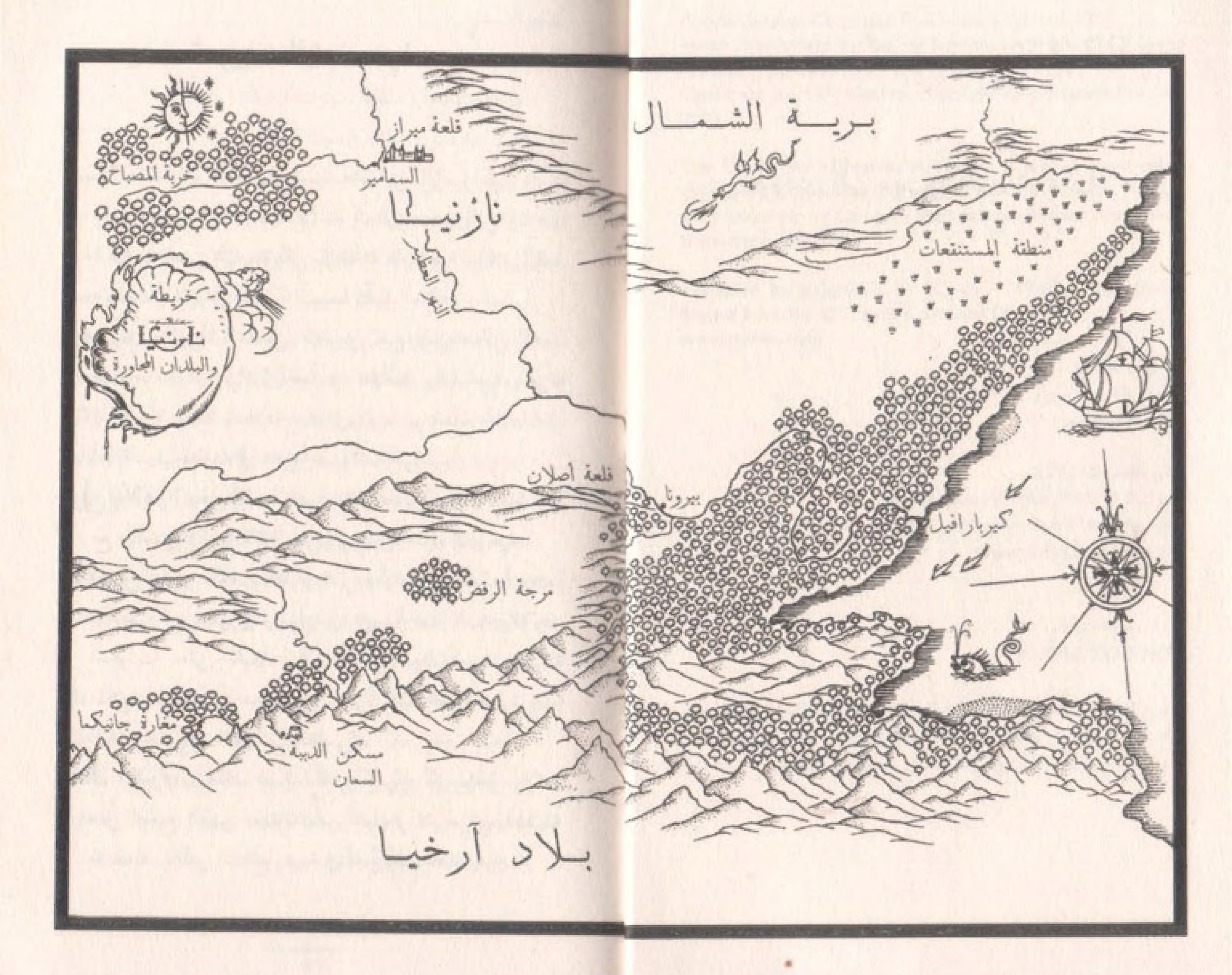
الأمير كاسپيان

سى أس لويس
رسوم: پولين بَينز

ترجمة: سعيد باز

اوفير

مُهدى إلى ميري كلير هافارد


بريـة الشمـال
قلعة ميراز
خربة المصباح
السمامير
نارنيـا
خريطة
نارنيا
والبلدان المجاورة
منطقة المستنقعات
قلعة أصلان
بيرونا
كيرباراقيل
مرجة الرقص
مغارة جانيكما
مسكن الدببة
السمان
بلاد آرخيـا

تعريف الشخصيات

أصلان: ملك الغابات وسيِّدُها، ابن الإمبراطور في ما وراء البحر. إنه الأسد، الأسد العظيم. وهو يأتي ويذهب كيفما ومتى شاء، ويأتي لإطاحة الساحرة وإنقاذ نارْنيا. ويظهر أصلان في الكتب السبعة كلّها.

ديغوري كيرك: نقابل ديغوري من بداية «ابن أخت الساحر»، وهو مذكورٌ أيضاً في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». ولولا شجاعة ديغوري، لربما لم نسمع بنارْنيا قط. أما السبب فتجده في «ابن اخت الساحر».

پولي پلامر: وهي أول شخصٍ يغادِر عالمنا إلى نارْنيا. وتشترك مع ديغوري في بداية كل شيءٍ في «ابن أخت الساحر».

جاديس: آخر ملكات شارْن التي دمَّرتها هي نفسُها. تظهر جاديس مع ديغوري و پولي في «ابن أخت الساحر»، وقد استولت على البلاد في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس». وفضلاً عن كونها شرّيرةً كُلّيّاً، فهي خطرة جدّاً أيضاً، حتى في «الكرسيُّ الفضيُّ».

الخال أندرو: يعتقد السيِّد أندرو كِترلي أنّه ساحر. ولكنه مثلُ جميع الذين يعبثون بأُمور السحر لا يعرف بالحقيقة ما يفعله. وتأتي النتائج رهيبة في «ابنُ أختِ السّاحر».

آل پيفِنسي:

بطرس پيفِنسي: الملك بطرس العظيم، الملك الأعلى

سوزان پيفِنسي: الملكة سوزان الرقيقة

إدمون پيفِنسي: الملك إدمون العادل

لوسي پيفِنسي: الملكة لوسي الباسلة

هؤلاء الأربعة من آل پيفِنسي، وهم أخوان وأختان، قدِموا إلى نارْنيا في زمان الشتاء الدائم إبّان حكم الساحرة البيضاء، ومكثوا هناك سنين نارْنيانيَّة كثيرة، وأقاموا عصر نارْنيا الذهبي. وبطرس هو الأكبر سناً، تليه سوزان، ثُمَّ إدمون ولوسي. وهم جميعاً متواجدون في «الأسد والساحرة وخزانة الملابس»، وفي «الأمير كاسپيان». كذلك يظهر إدمون ولوسي أيضاً في «رحلة جوّابة الفجر»، كما يظهر إدمون ولوسي وسوزان في «الحصان وصبيُّه»، فيما يظهر بطرس وإدمون ولوسي في «المعركة الأخيرة».

شصطى: يحيطُ سرٌّ بهذا الولد الذي تبنّاه صيّاد سمكٍ من كالورمِن. فهو ليس الشخص الذي يبدو أنّه هو، مثلما يكتشف هو نفسه في «الحصان وصبيه».

بري: هذا الجواد الحربي أيضاً فائقٌ للعادي. فقد اختُطِف وهو مُهرٌ من غاباتِ نارْنيا، وبيع حصاناً عبداً في كالورمِن، وهو بلدٌ واقعٌ وراء بلاد آرخيا وفي أقصى جنوبي نارْنيا. وتبدأ مغامرات بري عندما يحاول الفرار في «الحصان وصبيُّه».

أرافيس: هي طرقانة، نبيلةٌ من كالورمن. إلا أنَّ فيها مزايا خيِّرة كثيرة تبرز إلى النور في «الحصان وصبيُّه».

هُوين: فرسٌ حسَّاسة حسنة الطباع، تتصادق مع أرافيس في «الحصان وصبيُّه».

الأمير كاسبيان: إنه ابن أخي الملك ميراز، ويُعرَف بلقب كاسبيان العاشر ابن كاسبيان، وهو ملك نارنيا الحقيقي (ملك النارْنيانيِّين القدامى). كذلك يُعرَف بألقاب «تلماري نارْنيا»، و«سيِّد كيرپرافيل»، «وإمبراطور الجُزُر المنفردة». وهو يظهر في «الأمير كاسبيان»، و«رحلة جوَّابة الفجر»، و«الكرسيُّ الفضي»، و«المعركة الأخيرة».

ميراز: هو تلماريٌّ من بلاد تلمار الواقعة بعيداً ما وراء الجبال الغربية (وأجداد التلماريِّين أصلاً كانوا من عالمنا). وميراز هو مغتصب عرش نارْنيا في «الأمير كاسبيان».

ريبيتشيب: هو الفأر الرئيس. وهو الخادم المتواضع المتطوِّع لخدمة الأمير كاسبيان، ولعلَّه أكثر الفرسان بسالةً في نارْنيا كلِّها. فروسيَّته لا تُدانى، وكذلك شجاعته ومهارته في استعمال السيف. ويظهر ريبيتشيب في «الأمير كاسبيان»، و «رحلة جوَّابة الفجر»، و«المعركة الأخيرة».

يُسطاس كلارنس (صغرون): يُسطاس ابن خالةٍ لأولاد آل پيفِنسي، يُضطر إدمون ولوسي أن يذهبا ويزوراه. إلاَّ أنه يجد نارْنيا أشبهَ بصدمةٍ. وهو يظهر في «رحلة جوَّابة الفجر»، و«الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

جِلّ پُول: هي البطلة في «الكرسي الفضّيّ»، تذهب إلى نارنيا مع يُسطاس في مغامرتِه النارْنيانيّة الثانية. وهي تأتي أيضاً لنجدة نارْنيا في «المعركة الأخيرة».

الأمير ريليان: ابن الملك كاسپيان العاشر. وهو الأميرالضائع في نارْنيا. فابحث عنه وجِدْه في «الكرسي الفضّيّ».

بِرْكهموم: ساكن مُستنقعات (سباخ) طويل القامة، من المُستنقعات الشرقية في نارْنيا. شخص طويل يشكّل سلوكه الرزين جداً قناعاً لقلبِه الصادق الوافرالشجاعة. يظهر في «الكرسي الفضيّ»، و«المعركة الأخيرة».

الملك تِريان: رجلٌ نبيلٌ وشجاع، آخر ملوك نارْنيا. هو وصديقه «جوهر»، أحادي القرن، يخوضان القتال معاً في «المعركة الأخيرة».

شِفطة: قردٌ عجوز وقبيح، ينوي أن يتولّى حكم نارْنيا، ويباشر أموراً لا يستطيع إيقافها في «المعركة الأخيرة».

لَغْزان: حمارٌ طيِّب لم ينوِ قطُّ إيذاء أحد. غير أنَّه ليس ذكيّاً جداً. وهو يقع ضحيَّة لخداع شِفطة في «المعركة الأخيرة».

المحتويات

الجزيرة

عاش ذاتَ زمان أربعةُ أولاد، أسماؤهم بطرس وسوزان وإدمون ولوسي. وقد حكَينا في كتابٍ آخرَ عنوانُه «الأسد والساحرة وخزانة الملابس» كيف قاموا بمُغامرة رائعة. إذ فتحوا باب خزانة ثياب سحريّة، فوجدوا أنفسهم في عالَمٍ مختلفٍ تماماً عن عالَمِنا، وفي ذلك العالَمِ المُختلف صاروا مَلِكَين ومَلِكتَين في بلادٍ تُدعى نارْنيا. وبينما كانوا في نارنيا، بدا أنّهم ملكوا سنينَ عديدة ومديدة. ولكنّهم لمّا رجعوا إلى إنكلترة عبرَ باب الخزانة، بدا أنّ ذلك لم يستغرقْ أيّ وقت على الإطلاق. على كلّ حال، لم يلاحظْ أحدٌ أنّهم قد غابوا قطّ، وهم لم يُخبِروا بمغامرتهم أحداً غيرَ شخصٍ واحدٍ راشدٍ حكيم جدّاً.

حدث ذلك كلُّه منذ سنة واحدة. وها هم أولئك الأربعة جميعاً جالسون على مقعد في محطّة قطار وصناديقُ الثياب والألعاب مُكدّسة حوالَيهم. فقد كانوا في الواقع على طريق العودة إلى المدرسة. وقد سافروا معاً حتّى تلك المحطّة التي كانت مُلتقى طُرُق. فهُنا سيأتي

قطار بعد بضع دقائق ويأخذ البنتَين إلى إحدى المدارس، ثمّ بعد نحو نصف ساعة يصل قطار آخر ويحمل الصبيَّين إلى مدرسة أُخرى. ولَطالما بدا القِسم الأوّل من الرّحلة، إذ كانوا جميعُهم معاً، جزءاً من عطلة الصيف. أمّا الآن، وهم على وشك أن يودّعوا بعضهم بعضاً ويفترقوا، فقد شعر كلٌّ منهم بأنّ العطلة قد انتهت حقّاً، وثارت فيهم من جديد مشاعرُ الفصل المدرسيّ المُقبل، وسيطرت عليهم الكآبة، حتّى لم يقدِرْ أيٌّ منهم أن يفكّر بشيءٍ يقوله. وكانت لوسي ذاهبةً إلى مدرسةٍ داخليّة أوّلَ مرّة.

كانت تلك محطّةً هادئةً وخاليةً في الريف، وبالكادِ وُجد على رصيف المحطّة أحدٌ غيرهم. وفجأةً أطلقت لوسي صرخةً قصيرةً حادّة، كشخصٍ لسعَهُ دَبّور.

فقال إدمون: «ماذا جرى، يا لُو؟» ثمّ توقّف فجأةً وأصدر صوتاً يُشبه «أوا!»

وبدأ بطرس يقول: «ماذا يمكن أن...»، ثمّ غيّر هو أيضاً ما كان سيقوله. وبدلاً من ذلك قال: «سوزان، أفلتيني! ماذا تفعلين؟ إلى أين تجرّينني؟»

فردّت سوزان: «أنا غير مُمسِكة بك. هناك من يسحبُني أنا. آه، آه، آه، كفى!»

ولاحظ كلٌّ منهم أنّ وجوه الآخرين صارت شاحبة للغاية.

ثمّ قال إدمون بصوتٍ متقطّع الأنفاس: «لقد شعرتُ بالشيء نفسه. كأنّ شخصاً ما يجرّني جرّاً، بسَحبةٍ مُخيفةٍ

جدّاً... يُوه! ها هي تبدأ من جديد».

وقالت لوسي: «وأنا أيضاً... أُوه، لا أقدر أن أحتمل هذا!»

فصاح إدمون: «انتباهاً! أمسكوا بعضكم بأيدي بعض، ولنَبقَ معاً. هذا سِحر... إنّي أُحِسُّ به فعلاً. هيّا!»

وقالت سوزان: «نعم، لِنُمسِك بعضُنا أيدي بعض. آه، أتمنّى فعلاً أن يتوقّف هذا... أُوه!»

وفي اللحظة التالية اختفى تماماً كلُّ شيء: الأمتعة والمقعد والرصيف والمحطّة. ووجد الأولاد الأربعة أنفسهم - وهُم يُمسكون بعضهم بأيدي بعضٍ ولاهثون - واقفين في مكانٍ كثير الشجر وكثيفهِ بحيث كانت الأغصان تنخزهم والمجال لا يكاد يتّسع لهم حتّى يتحرّكوا. ففركوا جميعاً أعيُنَهم وأخذوا نفَساً عميقاً.

وهتفت لوسي: «أُوه يا بطرس! هل تعتقد أنّنا ربّما رجعنا إلى نارنيا؟»

فأجاب بطرس: «قد نكون في أيّ مكان. لا أرى فُسحةً بين هذه الأشجار كلّها. فلنحاولْ أن نخرج إلى الأرض المكشوفة، إن كان من أرضٍ مكشوفة!»

وبشيءٍ من الصعوبة، وقليلٍ من لَسع نبات القُرّاص ووخز الشوك، شقّوا طريقهم إلى خارج الدَّغل. ثمّ كانت لهم مفاجأةٌ أخرى. فقد أصبح كلُّ شيء أكثر صفاءً وضياءً، وبعد بضع خطوات وجدوا أنفسهم عند طرف الغابة وتحت أنظارهم شاطئٌ رمليّ. وعلى بُعد أمتار قليلة

بحرٌ هادئٌ جداً تترامى أمواجُه على الرمال مُترقرقةً بحيث لا تكاد تُصدِر أيَّ صوت. ولم تبدُ لهم أيَّةُ يابسة، كما لم تكن في السماء أيَّةُ غيوم. وقد كانت الشمس في الموقع الذي تكون فيه عادةً عند الساعة العاشرة صباحاً، ولونُ البحر أزرقُ متألّق؛ فوقفوا يتنشّقون رائحة البحر.

وقال بطرس: «يا للّسماء! ما أروع هذا المنظر!»

وبعد خمس دقائق كان الجميع قد خلعوا أحذيتهم وراحوا يلعبون في المياه الباردة الصافية.

وقال إدمون: «هذا أفضلُ من ركوب قطار مزدحم في طريق العودة إلى دروس اللاتينيّة والفرنسيّة والجبْر!»

ثمّ مرّ وقت طويلٌ لم يكن فيه مزيدٌ من الكلام، بل مُجرّدُ طَرطشةٍ وتفتيش عن القُريدس والسّلاطعين.

وما لبثت سوزان أن قالت: «مهما يكُن، أعتقد أنّ علينا رسمَ بعض الخُطط. فلا بدّ أن نحتاج إلى ما نأكلُه بعد قليل».

فردّ إدمون: «عندنا الشطائر التي أعطتنا الماما إيّاها للرّحلة. على الأقلّ، لَديّ شطائري».

قالت لوسي: «أمّا أنا فلا. فشطائري كانت في حقيبتي الصغيرة».

وقالت سوزان: «وكذلك شطائري أنا».

وقال بطرس: «شطائري في جيب مِعطَفي، هُناك على الشاطئ. وهذا يُبقي لنا غداءَين من أربعة. فلن تكونَ في هذا متعةٌ عظيمة!»

فأردفت لوسي: «في الوقت الحاضر، أريدُ شيئاً أشربه أكثر من شيءٍ آكلُه».

عندئذٍ شعر الآخرون كلُّهم بالعطش، كما تعطش عادةً بعد تخويضك في مياهٍ مالحة تحت شمسٍ حارقة.

وعلّق إدمون قائلاً: «ما أشبه هذا بمن غرقت سفينتُهم! ففي الكتب، يجدون دائماً على الجزيرة ينابيع من المياه العذبة الصافية. فأفضَلُ أن نذهب ونفتّش عنها».

فسألت سوزان: «أتعني أنّ علينا أن نرجع إلى قلب تلك الغابة الكثيفة؟»

أجاب بطرس: «لا، أبداً. فإن كان من أنهار، فلا بُدّ أن تجري وتصبُّ في البحر، وإذا سرنا على طول الشاطئ فلا بدّ أن نصل إليها».

إذ ذاك خوّضوا جميعاً راجعين، ومشَوا أوّلاً على الرمل الرطب الليّن، ثمّ على الرمل الجافّ المُتفتّت الذي يعلق بأصابع الرجلين، حيث بدأوا يلبسون جواربهم وأحذيتهم. واقترح إدمون ولوسي أن يتركوها ويقوموا باستكشافهم حُفاةَ الأقدام، إلّا أنّ لوسي قالت إنّ القيام بذلك ضربٌ من الجنون. وأوضحت: «ربّما لا نعثر عليها من جديد. وسنحتاج إليها حتماً إن كُنّا ما نزال هنا عند هبوط الليل وبدء البَرْد بالانتشار».

فبعدما لبسوا جواربهم وأحذيتهم من جديد، انطلقوا على الشاطئ والبحرُ إلى يسارهم والغابةُ إلى يمينهم. ولولا عبورُ طائر نَورس بين حينٍ وآخر، لكان المكان هادئاً

تماماً. وقد كانت الغابة كثيفة ومتشابكة جدّاً بحيث كاد يتعذّر عليهم أن يَروا ما فيها، ولم يتحرّك فيها شيء، لا طائر ولا مجرّد حشرة.

لا بأسَ بالأصداف والطحالب البحريّة وشُقّيق البحر*، أو بالسلاطعين الصغيرة في البِرَك الصخريّة، ولكنّك لا تلبث أن تملّها إذا كنت عطشاناً. وبعد الخروج من المياه الباردة، أحسّ الأولاد أنّ أقدامهم باتت ساخنة وثقيلة. كما كان على سوزان ولوسي أن تحملا معطفيهما الواقيَين من المطر. وكان إدمون قد ألقى معطفه على مقعد المحطّة قُبيل مجيء السّحر عليهم، فتبادل هو وبطرس حَمْل معطف بطرس الشتويّ.

وما لبث الشاطئ أن بدأ ينعطف إلى جهة اليمين. وبعد نحو رُبع ساعة شكّل زاوية حادّة، بعد عبورهم جُرفاً صخريّاً امتدّ إلى رأسٍ محدّد. فإذا بظهورهم الآن مقابل ناحية البحر التي طالعتهم لمّا خرجوا من الغابة في البداية. وإذ تطلّعوا قدّامهم، رأوا عبر الماء شاطئاً آخر كثيف الشجر مثل الذي كانوا يستكشفونه.

وقالت لوسي: «تُرى، أهذه جزيرة، أم جزءٌ من الأرض التي نحنُ عليها الآن؟»

فردّ بطرس: «لا أدري»، فيما مَضوا كلّهم يسيرون

* شقيق البحر: حيوان بحري رخوي شبيه بالأزهار، ذو جسم أسطواني وفم مركزي.

بتثاقلٍ وبطءٍ صامتين.

أخذ الشاطئ الذي كانوا يمشون عليه يقترب أكثر فأكثر من الشاطئ المقابل، وكلّما داروا حول لسانٍ جبليٍّ داخلٍ في البحر، توقّعوا أن يجدوا مُلتقى الشاطئين. ووصلوا إلى صخورٍ اضطرّوا إلى تسلّقها، ومن فوقها استطاعوا أن يَروا إلى مدىً أبعد. فقال إدمون: «أوه، يا ويلاه! هذا لا ينفع. لن نتمكّن أبداً من الوصول إلى تلك الغابات الأخرى. فنحنُ على جزيرة!»



لقد كان ذلك صحيحاً. فعند تلك النقطة، كانت القناة بينهم وبين الشاطئ المقابل لا تزيد عرضاً عن عشرين أو ثلاثين متراً، إلّا أنّهم استطاعوا الآن أن يروا أنّ ذلك كان المكانَ الأضيق، ومن بعده انعطف شاطئهم دائريّاً نحو اليمين من جديد، واستطاعوا أن يروا بحراً مكشوفاً بينه وبين البرّ الرئيسيّ. فاتّضح لهم

أنّهم قد داروا حول الجزيرة أكثرَ من نصف محيطها.

ثمّ قالت لوسي: «انظروا! ما ذلك؟» مُشيرةً بيدها إلى شيءٍ كالحيّة، فضّيٍّ طويل، مُنتشرٍ على عرض الشاطئ.

فهتف الآخرون: «نهر! نهر!» ومع أنّهم كانوا مُتعَبين، لم يتوانَوا عن النزول على الصخور مُقَعقِعين ومتسابقين نحو المياه العذبة. وعِلماً منهم بأنّ مياه النهر في الأعلى بعيداً عن الشاطئ تكون أصلحَ للشرب، ذهبوا حالاً إلى حيث يخرج النهرُ من الغابة. وقد كانت الأشجار كثيفة كحالها دائماً، ولكنّ النهر كان قد حفر لنفسه مجرىً عميقاً بين ضفّتين عاليتين مكسوّتين بالطحالب، بحيث يمكنك أن تنحني وتسير صعوداً بمحاذاته في ما يُشبه نفقاً من أوراق الشجر. ثمّ ركعوا على رُكَبهم بجانب أوّل بركةٍ صافيةٍ وغير عميقة، وراحوا يعبّون الماء عبّاً، وغطّسوا رؤوسهم في الماء، ثمّ غطّسوا أذرُعهم حتّى الكُوع.

عندئذٍ قال إدمون: «والآن، ما رأيكم بتناول تلك الشطائر؟»

فقالت سوزان: «أوه، أليس أفضلَ أن نحتفظ بها؟ فقد نحتاج إليها لاحقاً احتياجاً أشدّ».

وقالت لوسي: «حبّذا! فإذ قد روَينا عطشنا الآن، يمكننا أن نظلّ غير شاعرين بالجوع، بعكس ما كنّا نشعر به ونحنُ عِطاش».

فكرّر إدمون قوله: «ولكنْ ما رأيكم بتناول تلك الشطائر؟» ثم أردف: «لا خيرَ في إبقائها حتّى تفسد.

تذكّروا أنّ الطقس هنا أكثر حرّاً ممّا هو في إنكلترة، ونحن ما نزال نحمل هذه الشطائر في جيوبنا حتّى الآن». ومن ثَمّ أخرجوا الرزمتَين، وقسموهما أربع حِصَص. ومع أنّ أيّاً منهم لم يشبع، فقد كان ذلك أفضل من لا شيء. ثمّ تحدّثوا عن خُطَطهم بشأن الوجبة التالية. فأرادت لوسي أن ترجع إلى البحر وتلتقط القُرَيدس، ولكنّ أحدهم قال إنّهم لا يحملون شبكة. وقال إدمون إنّ عليهم أن يجمعوا بيض النورس من بين الصخور. ولكنْ لمّا فكّروا في ذلك، لم يتذكّر أيّ منهم رؤية بيض نورس؛ ولو وجدوا شيئاً منه لَما تمكّنوا من سلقه. وفكّر بطرس أنّهم قد يُسَرّون سريعاً بأكل البيض نيئاً، إلّا إذا وفّقهم الحظّ فجأةً، غير أنّه لم يرَ خيراً في الإفصاح عمّا فكّر فيه. وقالت سوزان إنّ أكلَهم السندويشات سريعاً أمرٌ مؤسف. وكاد واحدٌ منهم أو اثنان يفقدان السيطرة على أعصابهما عند هذا الحدّ. حتّى قال إدمون أخيراً:

«انظُروا إليّ! ليس أمامنا إلّا أمرٌ واحدٌ نعمله: علينا أن نستكشف الغابة. فالنُسّاك والفُرسان الجوّالون وأمثالهم يُدبّرون أمر عَيشهم بطريقةٍ ما، إذا كانوا في غابة، إذ يعثرون على جُذورٍ وتُوت وما شابه».

فسألت سوزان: «أيّ نوع من الجذور*؟»

وقالت لوسي: «طالما اعتقدتُ أنّ ذلك يعني جذور الأشجار».

* لا يخفى عن القارئ أن ثمّة جذور تؤكل، كالجزر واللفت وغيرها.

فقال بطرس: «مهلاً! إدمون على حقّ. ثمّ علينا أن نحاول فعل شيء ما. وسيكون ذلك أفضل من الخروج إلى وهج الشمس من جديد».

وهكذا نهضوا جميعاً وأخذوا يسيرون بمحاذاة مجرى النهر. فكان ذلك العمل شاقاً. إذ اضطرُّوا إلى الانحناء تحت الأغصان أو المرور من فوقها، وتخبّطوا وسط كُتَل كبيرة من العُلّيق والورد الشائك فمزّقوا ثيابهم، وبلّلوا أقدامهم بمياه النهر. ومع ذلك لم يسمعوا أيّ صوتٍ قطّ ما عدا خرير الماء والأصواتَ التي كانت تصدر عنهم. وكان الضجر والملل قد بدأا يستبدّان بهم لمّا تنبّهوا إلى رائحة طيّبة، ثمّ لاحظوا وميضَ نورٍ لامعٍ في البعيد فوقهم على أعلى الضفّة اليمنى.

إذ ذاك هتفت لوسي: «انظروا! أعتقد أنّ تلك شجرة تُفّاح».

وهكذا كانت. فركضوا لاهثين يصعدون الضفّة المنحدرة، وشقّوا طريقهم بين بعض العُلّيق، حتّى وجدوا أنفسهم واقفين حول شجرة عتيقة مُثقَلة بثمار التفاح الأصفر الذهبيّ الكبير الذي يقطر العصير منه كأشهى ما تتمنّى.

وقال إدمون، بفمه المليء تُفّاحاً: «هذه ليست الشجرة الوحيدة هنا. انظروا هُناك ... وهنالك!»

ثمّ قالت سوزان وهي ترمي قلب تُفّاحتها الأولى وتقطف الثانية: «عجباً، هُنا عشراتٌ من أشجار التفّاح.



لا بدّ أنّ هذا كان بستاناً ... منذ زمان بعيد جدّاً قبل أن تحوّل المكان إلى بريّة وطلعت الغابة».

فقال بطرس: «إذاً، كانت هذه جزيرةً مأهولة في ما مضى».

وقالت لوسي، مشيرةً بيدها: «وما ذلك؟»

فردّ بطرس: «لا شكّ بأنّه حائط، حائطٌ حجريّ قديم!»

ثمّ شقّوا طريقهم بين الأغصان المُثقلة بالثمار حتّى وصلوا إلى الحائط. كان حائطاً عتيقاً جدّاً ومُصدّعاً في بعض الأماكن، وقد غشّاه الطُّحلُب وزهر المنثور المُعَرِّش*، ولكنّه كان أعلى من جميع أشجار التُفّاح، ما عدا الأكثر ارتفاعاً بينها. ولمّا اقتربوا من الحائط أكثر، وجدوا قنطرةً كبيرة لا بدّ أنّها كانت فوق بوّابة في ما مضى، ولكنّها الآن تكاد تنسدّ بأكبر أشجار التُفّاح. حتّى إنّهم اضطرّوا إلى قصف بعض الأغصان ليمرّوا. ولمّا فعلوا ذلك، طرفت أعيُنهم جميعاً، لأنّ ضوء النهار صار فجأةً أكثر لمعاناً. فوجدوا أنفسهم في ساحة واسعة مكشوفة، حواليها حيطان. لم يكن في الداخل أشجار، بل عُشبٌ مُستوٍ وزهرُ أُقحوانٍ صغيرٌ ولبلابٌ وحيطان رماديّة. وكان ذلك فناءً هادئاً مُنزوياً مُضاءً، إنّما تغلب عليه الكآبة. ثمّ خطا الأربعةُ كلّهم إلى وسطه، مسرورين بأن يتمكّنوا من تقويم ظهورهم وتحريك أطرافهم بلا عائق.

* المنثور المعرّش: نبات يتسلّق الجدران عالياً، وله زهر جميل أصفر.

الفصل الثاني

مخبأ الكنوز العتيق

بادرت سوزان قائلةً: «لم يكُن هذا بستاناً فحسب. لقد كان قصراً على الأرجح، وهذه ساحته!»

فقال بطرس: «لقد فهمتُ قصدكِ! نعم، تلك بقايا برج. وذاك كان دَرَجاً يؤدّي إلى أعلى الأسوار. وانظروا تلك الدرجات الأخرى – الدرجات العريضة المنخفضة – المؤدّية إلى ذلك المدخل. لا بدّ أنّ ذلك كان الباب المُفضي إلى القاعة الكبيرة».

وقال إدموند: «كان ذلك منذ دُهور، كما تدلّ هيئته!»

فأضاف بطرس: «نعم، منذ دُهور. يا ليتنا نعرف مَن القومُ الذين عاشوا في هذا القصر، ومُنذ كم من الزمان».

وقالت لوسي: «إنّ هذا المكان يبعث فيّ شعوراً غريباً».

فردّ بطرس، مُلتفتاً ومُحدّقاً إليها: «صحيحٌ يا لو؟ فإنّه يبعث فيّ أنا أيضاً مثل هذا الشعور. فهذا أغربُ شيء

حدث في هذا اليوم العجيب. تُرى، أين نحن وماذا يعني هذا كلُّه؟»

وبينما هم يتحدّثون، عبروا ساحة الدار واجتازوا المدخل الآخر إلى ما كان القاعة في ما مضى. وكانت هذه الآن شبيهةً جداً بالساحة، إذ كان سقفُها قد زال من زمن بعيد، وقد باتت مجرّد مساحة فارغة ملأى بالأعشاب وأزهار الأقحوان، غير أنّها أقصر وأضيق وحيطانها أعلى. وكان عند الطرف الأبعد ما يُشبه سطيحةً أعلى من الأرضيّة بنحو متر.

فقالت سوزان: «تُرى، أكانت هذه هي القاعة فعلاً؟ وما ذلك الشيء الشبيه بالسطيحة؟»

فردَّ بطرس (وقد بات منفعلاً على نحوٍ غريب): «عجباً، كيف فاتَكِ هذا؟ ألا ترَين؟ لقد كانت تلك هي المنصّة التي كانتِ المائدة العالية موضوعةً عليها، حيث يجلس الملك والسادة العظماء. من شأن أيّ شخص أن يحسب أنّكِ نسيتِ أنّنا نحنُ أنفسنا كُنّا في ما مضى ملِكَينِ وملكتَين، وقد جلسنا فوق منصّةٍ مثل هذه في قاعتنا الكبرى».

وتابعت سوزان بصوتٍ حالمٍ شِبهِ رَتيب، وقالت لوسي: «عجباً، كيف يُعاوِدنا هذا كلُّه؟ يمكننا أن نتظاهر أنّنا في كَيرِبِرافيل الآن. فلا بدَّ أنَّ هذه القاعة كانت مثل القاعة الكبرى التي كُنّا نُقيم الولائم فيها».

فعلّق إدمون: «ولكنْ بغير الولائم الآن، للأسف!

كاد النهار ينقضي كما ترَون. فانظروا ما أطول الظلال الآن. وهل لاحظتم أنَّ الحرّ ليس شديداً الآن؟»

وقال بطرس: «سنحتاج إلى نارِ تخييم إن كنّا سنبيت الليلة هنا. في جيبي علبة كبريت. فلنذهبْ ونحاول إحضار بعض الحطب اليابس».

أدركَ الجميع صوابَ ذلك، وانشغلوا نصفَ الساعة التالي، فبعدما تبيّن أنَّ البُستان الذي عبروه أوّلاً قبل دخولهم الخِرَب ليس مكاناً صالحاً لحطب الوقود، أخذوا يُفتّشون في الجانب الآخر من القصر، خارجين من القاعة من باب جانبي صغير إلى متاهة من كُوَم الحجارة والحُفَر التي لا بدّ أنّها كانت ممرّاتٍ وغُرَفاً أصغر، ولكنّها باتت الآن مُغطاةً بالقُرّاص والشوك والورد البرّي. ووراءَ هذه وجدوا ثغرةً واسعة في سور القصر، فخرجوا منها إلى غابةٍ من الشجر الأكثف والأكبر، حيث وجدوا أغصاناً يابسة وخشباً مُتهرّئاً وعِصِيّاً وورقاً يابساً وأكوازَ صنوبرٍ برّيّ بكثرة. فأخذوا يجيئون ويروحون حاملين حُزَماً من الحطب حتّى كوّموا كومةً كبيرة على المنصّة. وفي المشوار الخامس عثروا على البئر، خارج القاعة تماماً، تُغطّيها الأعشاب، لكنْ نظيفةً وعذبةً وعميقة بعد إزالة تلك الأعشاب عن فمها. وقد كان ما تبقّى من رصيفٍ حجريّ يُحيط بنصف دائرة البئر. ثمّ ذهبت البنتان لإحضار مزيد من التُفّاح، وأشعل الصبيّان النار على المنصّة، بلِزقِ زاوية بين حائطين، حيث اعتقدا أنّه المكان الأكثر كَنكنةً ودفئاً.

وقد لقيا صعوبةً في إشعال النار، واستعملا عيدان كبريت كثيرة، غير أنّهما نجحا في النهاية. وأخيراً قعد الأربعة كلُّهم وظهورُهم إلى الحائط ووجوهُهم نحو النار. وحاولوا أن يشووا شيئاً من التفّاح على أطراف عِصيّ. إلّا أنّ التفّاح المشويّ ليس لذيذاً بغير سُكّر، وهو يكون ساخناً جداً بحيث لا يمكنك أن تأكله بأصابعك، فإذا برد بات غيرَ مُستساغ. فكان عليهم أن يقنعوا بالتفّاح النيء الذي، كما قال إدمون، «يجعل الواحدَ يُدرك أنّ وجبات العشاء في المدارس الداخليّة لم تكن رديئة على كلّ حال ..». ثمّ أضاف: «لا أمانع في الحصول على شريحة ثخينة جداً من الخبز وعليها بعض الزبدة في هذه اللحظة». ولكنّ روح المغامرة كانت تنبعث في دواخلهم جميعاً، ولم يُرد أحدٌ منهم بالحقيقةِ الرجوعَ إلى المدرسة.



وبعد أكلِهم آخِر تفّاحة بقليل، خرجت سوزان إلى البئر لإحضار شربة ماء أخرى. ولمّا رجعت، كانت تحمل بيدها شيئاً ما. وقالت بصوتٍ شبه مختنق:

«أنظروا! لقد وجدتُ هذا قربَ البئر». ثمّ وضعته في يد بطرس وقعدت. وحسب الآخرون أنّها تبدو كمن يهمّ بالبكاء. وانحنى إدمون ولوسي بلهفة ليريَا ما في يد بطرس، فإذا به شيء صغير لمّاع تألّق في ضوء النار.

فقال بطرس بصوتٍ بدا غريباً أيضاً: «حسناً، إنّني ... مُتحيّر!» ثم ناول الآخرين ما بيده.

عندئذٍ رأى الجميع ما هو ذلك الشيء: فَرَس شطرنج عاديّ الحجم لكنْ ثقيل بصورة غير معتادة لأنّه مصنوع من الذهب الخالص، وكانت العينان في رأس الفرس ياقوتتين صغيرتينِ جداً، أو بالأحرى إحدى العينين ياقوتة، لأنّ الأخرى كانت مقلوعة.

وقالت لوسي: «يا لَلعجب! إنّه تماماً مثلُ واحدٍ من حجارة الشطرنج الذهبيّة التي كُنّا نلعب بها حين كُنّا مَلِكين ومَلِكتين في كيرپراڤيل».

وقال بطرس لأخته الأخرى: «لا تحزني، يا سو!»

فردّت سوزان: «ما بيدي حيلة! أوه، لقد أثار هذا فيّ ذكرياتِ أيّامٍ جميلةٍ جداً! وقد تذكّرتُ لعبي بالشطرنج مع الفُونات والمَرَدة الطيّبين، وعرسانَ البحر وحوريّاته إذ يُغنّون قرب الشاطىء، وحصاني الجميل... و... و...».

وقال بطرس بصوتٍ مختلفٍ تماماً: «والآن، حان الوقت للبدء باستخدام عقولنا».

فسأل إدمون: «في أيّ شيء؟»

قال بطرس: «أمَا حزر أحدٌ منكم أين نحن؟»

وقالت لوسي: «تابع، تابع! منذ ساعاتٍ وأنا أُحسّ أنّ سرّاً عجيباً يُخيّم على هذا المكان».

وقال إدمون: «هيّا، تكلّم! كُلّنا آذانٌ صاغية».

فقال بطرس: «نحن في خرائب قصر كيرپرافيل بالذات!»

وردّ إدمون: «ولكنّني أسألك، أعني كيف حزرت ذلك؟ فهذا المكان خَرِب منذ دهور. انظُر كلّ تلك الأشجار الكبيرة الطالعة حتّى أعلى الأبواب. انظُر الحجارة ذاتها. يستطيع أيّ إنسان أن يدرك أنّ أحداً لم يسكن هنا منذ مئات السنين».

فقال بطرس: «أعرف هذا، وهنا وجه الصعوبة. إنّما لنَدَع هذا جانباً الآن. أريد النظر في الأمر نُقطة فنقطة. النقطة الأولى: هذه القاعة هي تماماً مثل القاعة في كيرپرافيل بشكلها وحجمها. تخيّلوا فقط وجودَ سقفٍ فوق هذا المكان، وأرضيّة مرصوفة بدل العشب، ولوحات مطرّزة على الحيطان، فنحصل على قاعة ولائمنا».

ولم يقُل أحد كلمةً واحدة. ثمّ تابع بطرس:

«والنقطة الثانية أنّ بئر القصر هي تماماً حيث كانت بئرنا، إلى الجنوب قليلاً من القاعة الكبرى؛ ولها حجمُ بئرنا وشكلُها ذاتُهما».

ومرّةً أُخرى لم يقُل أحدٌ شيئاً.

«والنقطة الثالثة أنّ سوزان وجدت قبل قليل واحداً من حجارة شطرنجنا القديمة، أو ما يُشبه واحداً منها شبهاً كلّيّاً».

وأيضاً لم يُجب أحدٌ بشيء.

«والنقطة الرابعة... ألا تذكرون ما حصل يومَ أرسل مَلِك كالورمِن سُفراءه، إذ غرسنا البستان خارج بوّابة كيرپرافيل الشماليّة؟ وقد جاءت أعظمُ حوريات الغابات، پومونا بنفسها، لتُبارِك لنا الغرْوس. كما كانت حيوانات الخُلد الشريفة اللطيفة هي التي قامت بأعمال الحفر كلّها. أيُعقَل أن تكونوا قد نسيتم ذلك الخُلدَ الشيخ المَرِح، كَفْسُوسَن زعيمَ حيوانات الخُلد، وهو يتّكئ على رفشه قائلاً: «صدّقوني، يا أصحاب الجلالة، ستُسَرّون بهذه الأشجار المُثمِرة ذات يوم!» وما كانَ أصدقَ قولَه فعلاً!

فهتفت لوسي مُصفّقة بيديها: «أنا أتذكّر! أنا أتذكّر!»

إنّما قال إدمون: «ولكن انظُرْ إليّ يا بطرس. لا بدّ أن يكون هذا كلّه كلاماً فارغاً. فأوّلاً، نحن لم نغرس ذلك البستان وصولاً إلى البوّابة. لا يمكن أن نكون أغبياء إلى هذه الدرجة!»

فقال بطرس: «طبعاً لا! ولكنّ الشجر وصل إلى البوّابة بعد ذلك».

وأضاف إدمون: «وثانياً، كيربراڤيل لم يكن على جزيرة».

«لقد تساءلتُ عن ذلك أنا أيضاً. ولكنّه كان على ماذا - نقول - لها؟ شبه جزيرة! وهي مثلُ الجزيرة تقريباً. أفلا يمكن أن تكون قد تحوّلت إلى جزيرة بعد عهدنا؟ لا بد أن أحدَهم حفر قناةً».

فقال إدمون: «ولكنْ مهلاً قليلاً! إنّك تذكر عهدنا أو أيّامنا. غير أنّنا لم نرجع من نارْنيا إلّا قبل سنة فقط. وتريد أن تقول إنّه في غضون سنة واحدة قد تهدّمت قصور، وطلعت غابات كبيرة، وتحوّلت أشجارٌ صغيرة شهدنا غرسَها بأنفسنا إلى بُستانٍ كبيرٍ قديم... ولا ندري ماذا بعد. هذا كلُّه مستحيل!»

وقالت لوسي: «خطر في بالي شيء: إذا كان هذا هو كيربراڤيل، فيجب أن يوجد باب عند هذا الطرف من المنصّة؛ بل ينبغي بالحقيقة أن نكون الآن قاعدين وظهورُنا نحو ذلك الباب الذي – كما تعلمون – يؤدّي إلى غرفة الكنوز في الأسفل».

فردّ بطرس وهو ينهض: «أظنُّ أنّه لا يوجد أيُّ باب!»

لقد كان الباب وراءهم مغطّى بكتلة من اللّبلاب المُعترِش.

وقال إدمون، وهو يلتقط عصاً من بين القضبان التي جمعوها وقوداً للنار: «ستعرف الحقيقة في الحال». ثمّ بدأ

يضرب الحائط المغطّى بنبات اللّبلاب. فأخذت العصا تُصدِر صوت طقطقة، ما لبث أن تحوّل فجأةً إلى صوتٍ مختلف يُردّد صدى قرع خَشَب بخشب.

إذ ذاك قال إدمون: «عجباً، عجباً!»

وقال بطرس: «يجب أن نُزيل هذا اللّبلاب».

فقالت سوزان: «رجاءً، دعونا من هذا الآن! يمكننا أن نجرّب ذلك غداً. إذا كنّا سنقضي الليل هنا، فلا أُريد أن يكون وراء ظهري بابٌ مفتوح وثغرة سوداء كبيرة قد يدخل منها أيُّ شيء، فضلاً عن الهواء والرطوبة. وبعد قليلٍ يهبط الليل».

وقالت لوسي بنظرة عتاب: «سوزان! كيف يمكنك أن تصبري؟» إلّا أنّ كلا الصبيَّين كانا أكثر انفعالاً من أن يأخذا بنصيحة سوزان. فأخذا يزيلان اللّبلاب بأيديهما وبسكّين جيب بطرس حتّى انكسرت السكّين. وبعدئذٍ استخدما سكّين جيب إدمون. وسرعان ما غدا المكان الذي كانوا جالسين فيه مُغطّى باللّبلاب؛ وأخيراً انكشف الباب تماماً.

فقال بطرس: «إنّه مُقفل بالطبع!»

وقال إدمون: «ولكنّ الخشب كلّه مُتهرّئ. فنحن نقدر أن نُحطّمه تحطيماً في الحال، وسيكون عندنا مزيدٌ من حَطَب الوَقود. هيّا بنا!»

ولكنّ ذلك استغرق وقتاً أطول ممّا توقّعا. وقبل إتمام عملهما، كانتِ القاعة الكبرى بكاملها قد صارت مُعتمة

وطلع أوّل نجمٍ أو نجمَين فوق رؤوسهم. ولم تكُن سوزان هي الوحيدةَ التي أحسَّت قُشَعريرةً خفيفة تسري في أوصالها حين وقف الصبيّان على كومة شظايا الخشب يُنظّفان أيديَهما من الوَسَخ ويُحدّقان إلى الثغرة المظلمة الباردة التي أحدثاها.

وقال بطرس: «والآنَ نحتاج إلى مشعل».

فقالت سوزان: «أوه، ما نفعُ هذا؟ وكما قال إدمون..».

فقاطعها إدمون: «لستُ أقول ذلك الآن. ما زلتُ غيرَ فاهم، ولكنْ يمكننا أن نُنهيَ المسألة لاحقاً. هل تنوي أن ننزل يا بطرس؟»

أجاب بطرس: «يجب علينا أن ننزل. تشجّعي يا سوزان. لا يصحُّ أن نتصرّف الآن تصرُّف الأولاد الصغار ونحنُ قد عُدنا إلى نارْنيا. فأنت مَلِكة هنا. وعلى كُلِّ حال، لن يقدر أيٌّ منّا أن ينام وهذا اللغز يُحيِّر عقولنا».

وحاولوا أن يستخدموا عِصِيّاً طويلة كمشاعل، لكنّهم لم ينجحوا في ذلك. فإذا حملتَها والطَرَف المشتعل إلى فوق تنطفىء، وإذا حملتَها بالمقلوب تسفع النار يَدَك ويُعمي الدُّخان عينيك. وأخيراً اضطُرُّوا إلى استعمال مصباح إدمون اليدويّ؛ ومن محاسن الصُّدَف أنّه كان هديّةً بمناسبة عيد ميلاده قبل أُسبوع وبطاريّتُه ما تزال جديدة تقريباً. فدخل هو أوّلاً، حاملاً المصباح بيده، ثمّ تبعته لوسي، وبعدَها سوزان، وآخِر الكُلّ بطرس.

قال إدمون: «لقد وصلتُ إلى أوّل الدَرَج».

فقال بطرس: «عُدَّ الدَرَجات».

ومضى إدمون يقول: «واحدة — اثنتان — ثلاث،» وهوينزل بحَذَر، حتّى وصل إلى ستّ عشرة، فصاح من تحت: «وهذا أسفل الدَرَج».

فقالت لوسي: «إذاً لا بدّ أن يكون هذا قصر كيرپراڤيل فعلاً. فقد كانتِ الدرجات ستَّ عشرة».

ولم يقُل أحد شيئاً حتّى صار الأولاد الأربعة واقفينَ مُتلاصِقين عند أسفل الدرج. وعندئذٍ أجالَ إدمون ضوء مصباحه ببطء، فهتف جميع الأولاد في الحال:

«أوه– و–و– وه !!»

فقد أدرك الجميع الآن أنّ تلك كانت بالحقيقة غُرفةَ الكنوز العتيقة في كَير پراڤيل حيث جلسوا على العروش في ما مضى مَلِكين ومَلكتَين على نارْنيا. وكان في وسط الغرفة شبهُ ممرّ (كالذي يوجد في بيت الزراعة الزجاجيّ)، وإلى كِلا الجانبين أطقُم دروعٍ ثمينة متفرّقة، كأنّها فرسانٌ يحرسون الكنوز. وبين أطقُم الدروع، على كِلا جانبَي الممر، رفوفٌ ملأى بالأشياء الثمينة: قلائد أعناق، وأساور معاصم، وخواتم أصابع، وأوانٍ وصحون ذهبيّة، وبروشات وأكاليل وسلاسل من ذهب، وأكوام من الأحجار الكريمة مكوّمة كيفما كان وكأنّها كراتٌ صغيرة أو حبّات بطاطا — من ألماسٍ وياقوت وزُمرُّد وتوباز وجَمَشْت. وكان تحت الرفوف صناديقُ كبيرة من خشب السنديان المُقوّى بقضبان الحديد، مُقفلة بإحكام. وقد كان البرد شديداً والسكون مُخيِّماً بحيث استطاعوا سماع تنفّسهم، والكنوز مُغطّاة بالغبار حتّى إنّهم لو لم يكونوا يعرفون أين كانت ويتذكّروا مُعظم الأشياء ما كادوا يعرفون أنّها كنوز. وقد خيّم على المكان شيءٌ من الكآبة وقليلٌ من الرُّعب، إذ بدا مهجوراً منذ زمن طويل. ولذلكَ لم يقُل أحدٌ منهم كلمةً واحدة طيلةَ دقيقة على الأقلّ.

بعد ذلك بدأوا طبعاً يجولون في المكان ويلتقطون الأشياء ويتفحّصونها. فكان الأمر أشبه بالتقاء أصدقاء قدامى. ولو كنتَ هناك، لسمعتَهم يقولون أقوالاً مثل «أوه، انظروا! هذه أكاليل تتويجنا... هل تذكرون أوّل مرّة فيها لبسنا هذه؟... عجباً! هذا هو البروش الصغير الذي حسبنا جميعاً أنّه ضاع... أليس هذا طقم الدروع الذي لبستَه في مُباراة المُسايفة الكبرى في الجُزُر المنفردة؟... هل تتذكّر القزم الذي صنع هذا لي؟... هل تتذكّرين لمّا شربتِ الماء بهذا البُوق؟... هل تتذكّرون كذا وكذا، هل تتذكّرون هذا وذاك؟»

ولكنّ إدمون قال فجأة: «انتبهوا! يجب ألّا نستهلك البطاريّة؛ فلا نعلم كم مرّةً سنحتاج إليها. أليس أفضلَ أن نأخذ ما نريده ونخرج من هنا حالاً؟»

فقال بطرس: «يجب أن نأخذ الهدايا». إذ إنّه منذ زمن بعيد في عيد ميلادٍ بنارْنيا تلقّى هو وسوزان ولوسي بعض الهدايا التي كانت في نظرهم أثمن من مملكتهم كلّها. أمّا إدمون فلم يتلقَّ أيّة هدايا، لأنّه لم يكن معهم آنذاك. (لقد كانت الغلطة غلطته هو، ويمكنك أن تقرأ عن ذلك في كتاب «الأسدُ والساحرة وخِزانة الملابس».)

وافق الجميع على اقتراح بطرس، وعبروا الممرّ إلى الجانب الأقصى من غرفة الكنوز، حيث كانت هداياهم ما تزال معلّقة. وقد كانت هديّة لوسي هي الصغرى، لأنّها كانت مجرّد قِنّينة صغيرة؛ ولكنّها كانت مصنوعة من

الألماس بدل الزجاج، وكان أكثر من نصفها ما يزال مملوءاً بالبلسم السحريّ الذي يشفي كلّ جرح ويُبرئ من كلّ مرض تقريباً. ولم تقل لوسي أيّ كلمة، بل ظهرت عليها علامات الجِدّ والوقار، حين أنزلت هديّتها من مكانها ثمّ علّقت الحزام على كتفها وشعرت من جديد بوجود القِنّينة على خصرها حيث كانت تتدلّى في الأيّام القديمة. أمّا هديّة سوزان فكانت قوساً وسِهاماً وبوقاً. وقد كانت الأقواس ما تزال هناك، ومعها الجَعبة العاجيّة الملأى بالسهام المُرَيّشة جيّداً، ولكن... قالت لوسي: «أوه، يا سوزان، أينَ البُوق؟»

فقالت سوزان بعدما فكّرت لحظةً: «آه، آه، ويلاه! تذكّرتُ الآن. لقد أخذته معي آخِر يوم، لمّا ذهبنا نتصيّد الغزال الأبيض. لا بُدّ أنّني أضعتُه ونحن نتخبّط عائدين إلى المكان الآخر، أعني إلى إنكلترة!»

وصفر إدمون أسفاً، إذ كانت الخسارة رهيبة بالفعل. فقد كان ذلك البوق سحرياً: حيثما كُنتَ فكلّما نفخت فيه تأتيك النجدة حتماً. ثمّ قال إدمون:

«كان من شأن هذا البوق أن ينفعنا نفعاً عظيماً في مكانٍ كهذا». فردّت سوزان: «لا بأس! ما زالت لديّ القوس!» ثمّ تناولتها.

وسأل بطرس: «أما يكون الوَتَرُ قد بَلِي، يا سُو؟»

غير أنّ الوتر، إمّا بفضل سحرٍ ما في غرفة الكنوز وإمّا بغيره، كان ما يزال صالحاً للعمل تماماً. وكان رَميُ السهام

والسباحة هما الأمرين اللذين تتقنهما سوزان جيّداً. ففي لحظة واحدة حَنَتِ القوس ثمّ نقرت الوتر نقرةً خفيفة، فرنّ رنيناً مُتذبذِباً تردّد صداه في أرجاء الغرفة. وإذا بتلك النغمة البسيطة تُعيد ذكرى الأيّام القديمة إلى أذهان الأولاد، أكثر من أيّ شيء آخر حدث حتّى ذلك الحين. فقد خطرت في بالهم معاً جميعُ المعارك ومُطاردات الصيد والولائم مُتزاحِمةً تزاحُماً.

ثمّ حلّتِ القوسَ من جديد وعلّقت الجَعبة إلى جنبها.

وبعد ذلك أنزل بطرس هديّته: التُّرس الذي عليه صورةُ الأسد العظيم، والسيف الملوكيّ. فنفّضهما ودقّهما على الأرض ونفّخ عليهما لإزالة الغبار عنهما. ثمّ حمل الترس بيده وعلّق السيف على خصره. وخشي أوّلاً أن يكون صَدِئاً فيعلق في غِمده، إلّا أنّه لم يكن هكذا. فبسحبةٍ سريعةٍ واحدة سَلّه وشهَرَه فأخذ يبرق في ضوء المصباح اليدويّ.

وقال بطرس: «هذا سيفي رِندون، به قتلتُ الذئب». وقد كان في صوتِه نبرة جديدة، حتّى شعر الآخرون جميعاً بأنّه عاد من جديد بطرس الملك الأعلى حقّاً! وبعد هُنَيهة تذكّروا جميعاً أنّ عليهم أن يوفّروا البطاريّة.

فصعدوا الدَرَج عائدين، وأشعلوا ناراً جيّدة، واستلقوا مُتلاصِقين طلباً للدفء. وقد كانت الأرضيّة صُلبة وغير مريحة، غير أنّ النوم سطا عليهم في نهاية الأمر.



الفصل الثالث

القَزَم

أسوأُ ما في النوم خارج البيوت أنَّك تستيقظ باكراً جدّاً جدّاً. وعندما تستيقظ، تُضطرُّ إلى النهوض لأنَّ الأرضيّة تكون صُلبة للغاية بحيث يتعذَّر عليك أن تستريح. وممّا يزيد الأُمور سوءاً ألّا يكون عندك للفَطور سوى التُّفّاح، وألّا تكون قد تعشّيت البارحة غير التُّفّاح. ولمّا قالت لوسي، بكلّ صدق، إنَّ ذلك الصباح كان رائعاً، لم يظهر أنَّ هنالك شيئاً أحسن يمكن أن يُقال. لكنَّ إدمون عبَّر عمّا كانوا يشعرون به جميعاً إذ قال: «علينا أن نرحل من هذه الجزيرة فوراً».

وبعدما شربوا من ماء البئر ورَشرَشوا على وجوههم، نزلوا جميعاً بُمحاذاة النهر أيضاً إلى الشاطئ وأنعموا النظر في القناة التي تفصلهم عن البرّ الرئيسيّ. فقال إدمون: «سنُضطرُّ إلى السباحة!»

أجاب بطرس: «لَن يكون ذلك صعباً على سُو (إذ كانت قد فازت بجوائز عن السباحة في المدرسة). ولكنّي لستُ متأكّداً من جهةِ مَن تبقّى منّا». وبقوله «مَن تبقّى

منّا» كان يعني بالحقيقة إدمون الذي لم يكن يقدر بعدُ أن يقطع بِركة السباحة في المدرسة مرّتين بالطُول، ولوسي التي لم تكد تعرف أن تسبح بتاتاً.

إنمّا قالت سوزان: «على كلّ حال، يمكن أن تُوجَد تيّارات. ويقول أبونا: 'ليست السباحة في مكانٍ لا تعرفه أمراً حكيماً.'»

وقالت لوسي: «ولكنْ، يا بطرس، انظُر إليّ. أنا أعرف أنّني لا أقدر أن أسبح البتّة في ديارنا، أي في إنكلترة. ولكنْ ألَم نكُن كلُّنا قادرين أن نسبح منذ زمان بعيد — إن كان منذ زمانٍ بعيد فعلاً — عندما كُنّا ملِكَين وملكتَين في نارْنيا؟ وقد كُنّا آنذاك نجيد ركوب الخيل، والقيامَ بأمورٍ شتّى. ألا تعتقد أنّ...»

فقاطعها بطرس: «صحيح! ولكنّنا كُنّا آنذاك راشدين بمعنى ما. فقد ملكنا سنينَ عديدة ومديدة وتعلّمنا أشياءَ كثيرة. أمَا عُدنا إلى أعمارنا المناسبة هنا الآن؟»

فقال إدمون: «أُوه!» بصوتٍ جعل الجميع يكفّون عن الكلام ويُصغون إليه. ثمّ أضاف:

«لقد فهمتُ كلّ شيء الآن!»

وسأله بطرس: «ماذا فهمتَ؟»

فقال: «عجباً، فهمتُ الموضوع كلّه! تعرفون ما كُنّا نتساءل بشأنه البارحة متحيّرين من أنّنا غادرنا نارنيا منذ سنة واحدة فقط ولكنّ كلّ شيء يُوحي أنّ أحداً لم يعِش في كيرپراڤيل منذُ مئاتٍ من السنين. حسناً، ألا تفهمون؟

ألا تعرفون أنّه مهما بدا طول الفترة التي أقمناها في نارنيا، فعندما رجعنا إلى ديارنا عبر خزانة الثياب لم يبدُ أنّ ذلك كلّه استغرق أيّ وقت على الإطلاق؟»

وقالت سوزان: «تابع كلامك. أعتقد أنّني بدأتُ أفهم».

فتابع إدمون: «وهذا يعني أنّك حين تكون في نارنيا لا تكون لديك فكرة عن مرور الوقت النارنياني. فلماذا لا تكون مئاتٌ من السنين قد مضت في نارنيا فيما تكون سنةٌ واحد فقط قد مضت في إنكلترة؟»

وقال بطرس: «ورأسِ الأسد، يا إدي، أعتقد أنّك أصبتَ كَبِدَ الحقيقة. فبهذا المعنى، نكون قد أقمنا في كيرپراڤيل منذ مئاتِ السنين فعلاً. وها نحن الآن نرجع إلى نارْنيا كما لو كُنّا غُزاةً أو أنغلوسكسونيّين أو بريطانيين قُدامى، أو قوماً من التاريخ القديم يعودون إلى إنكلترة الحديثة!»

وبدأت لوسي تقول: «كم سيكون أهل نارْنيا مُنفعِلين برؤيتنا...». إنمّا في اللحظة عينها قال كلٌّ من الباقين: «أشْش!» أو: «انتباهاً!» لأنّ شيئاً ما كان يجري آنذاك.

كانت على البرّ الرئيسيّ بقعةٌ كثيرة الشجر، إلى جهة اليمين قليلاً، وتأكّد الجميع أنّ مصبَّ النهر هو حتماً وراء تلك البقعة. فإذا بهم يلمحون وراء تلك البُقعة قارباً. وبعدما جاوز البقعة، انعطف وبدأ يسير في القناة باتّجاههم.

وكان على متن القارب شخصان، أحدهما يُجذّف، والآخر جالسٌ في المؤخّر وهو يُمسِكُ بصُرّة ترتعش وتتحرّك كأنّ فيها حياةً. وقد بدا أنّ ذَينك الشخصين عسكريّان، على رأسَيهما خُوذتان فولاذيّتان، وعلى صَدرَيهما دِرعا زَرَد خفيفتان. وكان في وجهيهما المُتجهّمَين لحيتان. فما كان من الأولاد إلّا أن تراجعوا عن الشاطئ إلى داخل الغابة وأخذوا يراقبون بغير أن يُحرّكوا ساكناً.



ولمّا وصل القارب مقابلَ الأولادِ تقريباً، قال العسكريُّ القاعد في المؤخّر: «هذا ينفع!»

فقال الآخر، مستريحاً على مجذافيه: «ما رأيك بأن نربط قدميه بحجر، يا عريف؟»

فدمدم الأوّل قائلاً: «سحقاً! لا حاجة بنا إلى ذلك، وليس لدينا حَجَر هنا. سيغرق حتماً بغير حجر، ما دمنا قد ربطنا الحِبال بإحكام!»

وإذ قال ذلك، نهض وحمل الصُرّة. وعندئذٍ رأى

بطرس أنّها شيء حيٌّ فعلاً، إذ كانت بالحقيقة قزماً مُربّط اليدَين والرجلَين ولكنّه يجاهد بأقصى ما يستطيع. وفي اللحظة التالية سمع العسكريُّ رنين قوسٍ بلِزقِ أذنه، وفي الحال مدّ ذراعيه عالياً فأوقع القزم في قعر القارب، وسقط هو في الماء. ثمّ تخبّط مبتعداً نحو الضفّة البعيدة، وقد علم بطرس أنّ سهم سوزان قد أصاب خوذته. والتفت بطرس فرأى سوزان شاحبة الوجه كثيراً ولكنّها تُركّب سهماً ثانياً على الوتر. غير أنّها لم تستعمل ذلك السهم قطّ. فما إن رأى العسكريُّ الآخر رفيقه يسقط، حتّى صرخ صرخة عالية وقفز من القارب إلى الجانب الأبعد، وأخذ يتقدّم متعثّراً وسط المياه (التي كان عمقُها بطوله تماماً كما بدا) ثمّ توارى داخل الغابات على البرّ الرئيسيّ.

إذ ذاك صاح بطرس: «هيّا بسرعة، قبل أن تنجرف الصُرّة بعيداً!» ثمّ غطس هو وسوزان كلاهما، بكامل ثيابهما، وقبل وصول المياه إلى كتفيهما كانت أيديهما على حافة القارب. وفي ظرف ثوانٍ قليلة، سحبا الصُرّة إلى الضفّة وأخرجا القزم منها، وانهمك إدمون في قطع قيوده بسكّين جيبه. (كان سيف بطرس أمضى حدّاً، ولكنّ السيف لا يصلح لمثل هذا العمل لأنّك لا تقدر أن تمسك به من أيّ مكانٍ أدنى من قبضته.) وعندما حُرّر القزم أخيراً، جلس وفرك ذراعيه ورجلَيه، وهتف:

«حسناً، مهما قالوا، فإنّ مَلمَسَكم لا يُوحي أنّكم أشباح».

كان ذلك القزم، مَثَلُه مَثَلُ سائر الأقزام، قصيراً وقوياً وغائرَ الصدر. ولو كان واقفاً، لبلغ طولُه أقلَّ من مترٍ واحد، وقد غطّى مُعظمَ وجهه شاربان كثيفان ولحيةٌ هائلة من الشعر الأحمر القاسي بحيث لا تستطيع أن ترى سوى أنفه الشبيه بالمنقار وعينيه السوداوين البرّاقتين. وتابع يقول:

«على كلّ حال، سواءٌ كنتم أشباحاً أم لا، فقد أنقذتم حياتي، وأنا مُمتنٌّ لكم كلَّ الامتنان!»

فسألته لوسي: «ولكنْ لماذا نكون من الأشباح؟»

وأجاب: «طالما قيل لي كلَّ عمري إنّ هذه الغابات على طول الشاطىء مليئة بالأشباح كما هي مليئة بالأشجار. تلك هي الحكاية! ولذلك، فإذا أرادوا أن يتخلّصوا من أيِّ شخص، ينزلون به عادةً إلى هنا (مثلما فعلوا بي) ويقولون إنهم سيتركونه للأشباح. ولكنّني طالما تساءلتُ هل يُغرقونه فعلاً أو يدقّون عُنقه. فما كنتُ بالحقيقة أُصدّق بوجود الأشباح. ولكنْ هذين الجبانَين اللذَين

أطلقتم عليهما الآن سهماً كانا يُصدّقان ذلك تماماً. فقد كانا مُرتاعَين من أخذي إلى موتي أكثر ممّا كنتُ أنا أخاف الذهابَ إليه!»

فقالت سوزان: «أوه! لِهذا السبب هربا كِلاهما».

وقال القزم: «إيه؟ ماذا قُلتِ؟»

فأجابَ إدمون: «لقد هربا كلاهما، إلى البرّ الرئيسيّ».

وقالت سوزان: «لم أرمِ سهمي كي أقتل، كما تعرف!» فإنّها لم تكن ترغب أن يحسب أحدٌ أنّها قد تُخطىء الهدف من مثل تلك المسافة القصيرة.

فقال القزم: «أحْم! ليس هذا جيّداً جدّاً. فقد يجلب لنا المتاعب لاحقاً، إلاّ إذا ضبطا لسانَيهما حفاظاً على مصلحتهما».

وسأله بطرس: «لأيِّ سببٍ كانا يُحاولان إغراقك؟»

فقال بحماسة: «آه! أنا مجرم خطير، نعم أنا كذلك. ولكنّ تلك حكاية طويلة. إنّما في هذه الأثناء كنتُ أتساءل هل تنويان أن تدعُواني إلى الفَطور؟ ليس لديكما فكرة عن فرط القابليّة التي يُثيرُها كونُ المرء يُساق إلى الإعدام!»

أجابت لوسي بأسى: «ليس عندنا إلاّ تُفّاح!»

فقال القزم: «أفضل من لا شيء، ولكنْ ليس بمثل جُودة السمك الطازج. يبدو أنّ عليّ أنا أن أدعوكما إلى الفَطور! لقد رأيتُ عُدّة صيد في ذلك القارب. وعلى كلّ حال، يجب أن نأخذه إلى جانب الجزيرة الآخر. فلا نُريد أن ينزل أحدٌ من البرّ الرئيسيّ ويراه هنا».

وقال بطرس: «كان يجب عليَّ أنا أن أُفكِّر في هذا».

ثمَّ نزل الأولاد الأربعة والقزم إلى حافة الماء، ودفعوا القارب بشيءٍ من الصعوبة، ثمَّ جاهدوا للصعود إليه. وفي الحال تولَّى القزم زمام القيادة. إلَّا أنَّ المجذافين كانا بالطبع أكبر من أن يستخدمهما، فاستلم بطرس التجذيف، ووجَّههم القزم شمالاً على طول القناة، ثمَّ في الحال نحو الشرق حول رأس الجزيرة. ومن هناك استطاع الأولاد رؤية مجرى النهر صعوداً، ووراءه كلَّ خلجان الشاطىء ورؤوسه. وقد حسبوا أنَّهم يستطيعون تمييز تضاريس الشاطئ؛ غير أنَّ الغابات التي كانت قد طلعت منذ عهدهم جعلت كلَّ شيءٍ يبدو مختلفاً.

ولمَّا داروا ووصلوا إلى عُرض البحر شرقيَّ الجزيرة، عمد القزم إلى الصيد. فأصابوا صيدةً ممتازة من سمك قوس القُزَح البديع الألوان الذي تذكَّروا كلُّهم أنَّهم كانوا يأكلون منه في كيربرافيل في الأيَّام القديمة. ولمَّا أمسكوا ما يكفيهم، أسرعوا بالقارب إلى جَدول صغير حيث ربطوه بشجرة. وإذ كان القزم شخصاً بارعاً جدّاً (ومع أنَّ المرء بالحقيقة يلتقي أقزاماً أردياء، لم أسمع قطُّ بقزمٍ كان غبيّاً)، شَقَّ بُطون السَّمك ونظَّفه، وقال:

«والآن، ما نحتاج إليه تالياً هو شيءٌ من حَطَب النار».

فقال إدمون: «عندنا بعض الحطب فوقُ في القصر».

وصفر القزم صفرةً خفيفة قائلاً: «صحيح؟ يا للعجب العُجاب! إذاً هناك بالحقيقة قصر في نهاية المطاف!»



فقالت لوسي: «هو مجرَّد خرائب».

وحدَّق القزم إلى الأولاد الأربعة تحديقَ مدهوش، وعلى وجهه علامات استغراب وتلهُّف، وبدأ يقول: «تُرى، مَن كان يظنُّ...؟» لكنَّه ما لبث أن قال فجأةً: «لا يهمُّ؛ الفطور أوَّلاً. ولكنْ أطلب شيئاً واحداً قبل المُضيِّ في شأننا: هل يمكنكم أنْ تضعوا أيدَيكم على قلوبكم وتقولوا لي بالصِّدق إنَّني حيٌّ حقّاً؟ أمتأكِّدون أنتم أنَّني لم أغرق وأنَّنا لسنا جميعنا أشباحاً؟»

ولمَّا طمأنوه كلُّهم، باتتِ المسألة التالية كيف يحملون السمك، إذ لم يكن لديهم سِلكٌ ليجمعوا السمك عليه في مِشكاك*، ولا سلَّةٌ ليحملوه فيها. فاضطرُّوا إلى استخدام قُبَّعة إدمون، لأنَّه لم يكن لدى أحدٍ غيره قُبَّعة.

* المشكاك: سيخ لوضع السمك فيه.

وكان ممكناً أن يجعل من ذلك قضيّة جدالٍ كثير لو لم يكن الجوع الآن قد عضّه بنابه وأنهكه.

ولم يبدُ القزم أوّلَ الأمر مستريحاً جدّاً في القصر. فظلّ يتطلّع حوالَيه ويتشمّم قائلاً: «أخم! يبدو الجوُّ مخيفاً بعض الشيء على كلّ حال. فأنا أشتمُّ رائحة أشباحٍ أيضاً». إلّا أن روعه هدأ عند إشعال النار ومبادرته إلى تعليمهم كيف يشوون سمك قوس القُزَح على الجمر. ثمّ إنّ أكل السمك الساخن بغير شوكة، وباستعمال سكّين جيب واحدة من قِبَل خمسة أشخاصٍ، كان عملاً مُربكاً جدّاً، حتّى كانت بضع أصابع قد احترقت قليلاً قبل انتهاء الوجبة. ولكنْ لمّا كانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحاً وهم قدِ استيقظوا منذ الخامسة، فلم يهتمّ أحدٌ منهم بحروقه كما قد تتوقّع. وبعدما ختم الجميع الفَطور بشربة ماءٍ من البئر وتُفّاحةٍ أو أكثر، أخرج القزم غليوناً بطول ذراعه تقريباً، وملأه وأشعله وراح ينفث سحابة كبيرة من الدُّخان المُعطَّر، ثمّ قال: «والآن».

فقال بطرس: «أخبرنا أنت قصّتك أوّلاً، ثم نُخبرك نحن قصّتنا».

عندئذٍ قال القزم: «حسناً، بما أنكم أنقذتم حياتي، فمن الإنصاف أن يكون لكم ما تُريدون. ولكنّني لا أكاد أعرف من أين أبدأ. فأوّلاً، أنا ساعٍ عند الملك كاسبيان».

فسألت أربعةُ أصواتٍ معاً: «ومن يكون هذا؟»

أجاب القزم: «كاسبيان العاشر، مَلِك نارنيا، طال مُلكه! أعني أنّه يجب أن يكون هو ملك نارنيا، ونحن نرجو أن يصير كذلك. أمّا في الحاضر، فهو فقط مَلِكٌ علينا نحن النارنيانيّين القُدامى...».

فسألته لوسي: «ماذا تقصد بقولك النارنيانيّين القُدامى، لو سمحت!»

قال: «لا بأس! أولئك نحن. ويمكنني أن أقول إنّنا جماعةٌ من الثُّوّار الآن، كما يمكن أن أقول».

فقال بطرس: «فهمتُ! وكاسبيان هو أوّل نارنيانيٍّ قديم».

وردّ القزم وهو يحكّ رأسه: «لك أن تقول ذلك. ولكنّه هو نفسه بالحقيقة نارنيانيٌّ جديد، تِلماريٌّ من أقصى غرب نارنيا، إن فهمتم قصدي».

فقال إدمون: «أنا لم أفهم».

وقالت لوسي: «فهم هذا أصعب من فهم الحرب الأهليّة الطويلة».

فقال القزم: «يا ويلاه! إنّني أحكي القصّة بطريقة سيّئة جدّاً. انتبهوا إليّ! أعتقد أنّه يجب أن أرجع إلى أوّل القصّة وأُخبركم كيف نشأ كاسبيان في بلاط عمّه، وكيف انتقل إلى صفوفنا دائماً. ولكنّها ستكون قصّة طويلة».

وقالت لوسي: «وهذا أفضل بكثير، فنحن نحبّ القصص».

وهكذا جلس القزم مستريحاً وروى لهم حكايته. ولن أقصّها عليكَ بكلماته، مُدخِلاً جميع أسئلة الأولاد ومُقاطعاتِهم، لأنّ ذلك يستغرق وقتاً طويلاً ويكون مُربكاً، كما أنّه أيضاً قد يُغفِل بعض النقاط التي سمعها الأولاد لاحقاً فقط. ولكنّ فحوى القصّة، كما عرفوها في النهاية، كانت كما يلي.

الفصل الرابع

ما رواه القزم عن الأمير كاسپيان

عاش الأمير كاسپيان في قصر كبير وسط بلاد نارْنيا، مع عمّه ميراز ملك نارنيا، وزوجة عمّه ذات الشعر الأحمر والتي كانت تُدعى الملكة بَرقُوقة-برّاقة. وكان والد كاسپيان ووالدته قد تُوفّيا. أمّا الشخص الذي كان كاسپيان يُحبُّه فكان مربيّته. ومع أنّه (لكونه أميراً) كان يملك لُعَباً عجيبة يمكن أن تفعل كلّ شيء ما عدا النُطق، فقد كان يحبّ بشكل خاص آخِر ساعةٍ من اليوم، حين تُعاد جميع اللُعَب إلى خزائنها، وتحكي له المُربّية قِصصاً مُشوّقة.

لم يكُن كاسپيان مهتمّاً كثيراً بأمر عمّه وزوجة عمّه. ولكنْ مرّتين في الأسبوع تقريباً، كان عمّه يستدعيه، ثُمّ يتمشّيان معاً ذهاباً وإياباً مدّة نصف ساعة على السطيحة المنبسطة في الجانب الجنوبيّ من القصر. وبينما هما يقومان بذلك ذات يوم، قال له الملك:

«حسناً، يا صبيّ، علينا قريباً أن نُعلّمكَ ركوب الخيل واستعمال السيف. أنت تعرف أنّنا، أنا والملكة، لم نُنجِب أيّ أولاد. وهكذا يبدو كما لو كان ممكناً أن تكون أنت ملكاً بعد رحيلي. فهل يعجبك هذا، إيه؟»

فقال كاسبيان: «لستُ أدري، يا عمّاه».

أجاب ميراز: «لستَ تدري، إيه؟ عجباً! أُحِبُّ أن أعرف أيَّ شيء أكثر من هذا قد يتمنّاه المرء!»

فقال كاسبيان: «ومع ذلك، فأنا أتمنّى فعلاً..».

وسأله الملك: «ماذا تتمنّى؟»

فأجاب: «أتمنّى - أتمنّى - أتمنّى لو عشتُ في الأيّام القديمة». (وقد كان مجرّد ولد صغير آنذاك.)

كان الملك ميراز حتّى ذلك الحين يتحدّث بالطريقة المُضجِرة التي يعتمدها بعضُ الكبار والتي تُبيِّنُ بوضوح أنّهم غير مهتمّين فعلاً بما تقولُه، ولكنّه الآن نظر فجأةً إلى كاسبيان نظرةً حادّة، وقال:

«إيه؟ ماذا قُلتَ؟ وأيّةَ أيّام قديمة تقصد؟»

فأجابه كاسبيان: «أوه، ألا تعرف، يا عمّاه؟ عندما كان كلُّ شيءٍ مختلفاً تماماً. عندما كانت الحيوانات قادرة أن تتكلّم، وكان يعيش في الأنهار والأشجار قومٌ لُطَفاء ظُرَفاء، كانوا يُدعَون حوريّات الغابة وحوريّات البحر.* وكان هنالك أقزامٌ أيضاً، كما كان هنالك

* الحوريات: كائنات أسطورية جميلة تحيا في الماء والغابات.

فُوناتٌ* صغار في جميع الغابات، لهم أقدامٌ تُشبه قوائم الماعز. وكان..».

فقال الملك عابساً: «هذا كلّه كلام فارغ، للأطفال. إنّه مُلائمٌ للأطفال فقط، هل سمعْتَ؟ وأنت أكبر سنّاً من أن تتلهّى بهذه التفاهات. ففي سِنّك، ينبغي أن تشغل فكرَكَ المعارك والمغامرات، لا القصص الخُرافيّة».

وقال كاسبيان: «أوه، ولكنْ كانت في تلك الأيّام فعلاً معارك ومغامرات، مغامرات رائعة. فقد عاشت ذات مرّة ساحرة بيضاء جعلت نفسها ملكة على البلد كلّه. وقد أحلّت فيه شتاءً دائماً. ثمّ جاء صبيّان وبنتان من مكانٍ ما، وقتلوا الساحرة، وجُعِلوا ملكَين وملكتين على نارنيا، وكانت أسماؤهم بطرس وسوزان وإدمون ولوسي. وهكذا ملكوا ملكاً مديداً وسعيداً عمّ فيه الرخاء والهناء. وكان ذلك كلّه بفضل أصلان..».

فسأله ميراز: «مَن هو؟» ولو كان كاسبيان أكبر قليلاً، لأنذرته نبرة صوت عمّه بأنّ من الأحكم أن يكفّ عن

* الفونات: شخصيات تظهر في الأساطير الرومانية، نصفها السفلي كرجلي التيس، ونصفها العلوي كنصف الإنسان العلوي، مع قرني تيس. مفردها «فون».

الكلام. ولكنّهُ مضى يُثرثِر قائلاً:

«أوه، ألا تعرف؟ أصلان هو الأسد العظيم الذي يأتي عمّا وراء البحر».

فسأل الملك بصوتٍ كالرّعد: «مَن أخبرك بهذا الكلام الفارغ كلّه؟» وذُعِر كاسبيان ولم يقُل شيئاً.

ولكنّ الملك ميراز أفلت يد كاسبيان التي كان ممسكاً بها حتّى الآن، وقال: «يا صاحب السموّ الملوكيّ، إنّني أُصِرُّ على سماع جوابٍ. انظُر إلى وجهي مباشرةً: مَن حكى لكَ هذه الأكاذيب كلّها؟»

فقال كاسبيان بصوتٍ مُرتعِش: «الـ... المُربّية!» وانفجر باكياً.

فأمسك عمّه بكتفيه وهزّه هزّاً وقال: «كُفّ عن هذا الضجيج. كُفّ عنه! ولا تدعْني أبداً أُمسِكُ بكَ وأنت تتكلّم – أو تُفكّر أيضاً – بجميع تلك القِصَص السخيفة. لم يكُنْ قطُّ مَلِكان وملكتان كهؤلاء. فكيف يمكن أن يوجد مَلِكان في وقت واحد؟ وليس من شخص مثل أصلان، ولا أشياء مثل تلك الأسود. ولم يكن قطُّ زمانٌ كانت الحيوانات فيه تستطيع أن تتكلّم. هل سمعْت؟»

وقال كاسبيان وهو يبكي بكاءً متقطّعاً: «نعم، يا عمّاه».

فعقّب الملك: «إذاً، لا يكُن لنا مزيدٌ من هذه الأمور!»

ثمّ نادى واحداً من الخَدَم الذين كانوا واقفين على طرف السطيحة الأقصى، وقال له بصوتٍ بارد: «رافِق سموّه

الملوكيّ إلى جناحه، وأرسِل إليّ مُربّية سموّه في الحال».

وفي اليوم التالي عرف كاسبيان أيّ أمرٍ رهيب فعل، إذ طُرِدت المُربّية بغير أن يُسمَح لها ولو بتوديعه، وقيل له إنّه سيكون عنده مُعلّمٌ خُصوصيٌّ، أو مؤدّب.

افتقد كاسبيان مُربّيته كثيراً، وذرف دموعاً سخيّة. ولأنّه كان تَعِساً للغاية، أخذ يُفكّر في قصص نارنيا القديمة أكثر بكثير من ذي قبل. ورأى في أحلامه أقزاماً وحوريّات غابات كلّ ليلة، كما بذل كلّ جهدٍ لجعل الكلاب والهررة في القصر تتكلّم إليه. ولكنّ الكلاب حرّكت أذنابها فقط والهررة خرخرت فقط.

كان كاسبيان متأكّداً أنّه سيكره المؤدّب الجديد. ولكنْ لمّا وصل المؤدّب الجديد بعد أسبوع تقريباً، تبيّن أنّه واحد من أولئك الأشخاص الذين يصعب ألّا تحبّهم. فقد كان أصغرَ رجُل، وأسمنَ رجُل، رآه كاسبيان على الإطلاق. وكانت له لحيةٌ مُرَوّسة طويلة فضيّة اللون، نازلة حتّى خصره. وقد بدَت على وجهِ الأسمر المُجعّد علاماتُ الحكمة واللطف، رُغم كونه بشعاً. وكان صوتُه رزيناً وعيناه مَرِحتَين جدّاً، بحيث يصعب عليك – قبل التعرُّف به جيّداً – أن تعرف متى يكون مازحاً ومتى

يكون جاداً. وكان اسمه الدكتور كُرنيليوس.

وبين جميع الدروس التي تعلّمها كاسبيان على يد الدكتور كُرنيليوس، كانت مادّة التاريخ أحبَّ الدروس عنده. وحتّى ذلك الحين، لم يكن قد عرف شيئاً عن تاريخ نارنيا، ما عدا قِصَص المُربّية؛ وقد أدهشه جدّاً أن يعرف أنّ الأُسرة الملوكيّة لم تكُن من السكان الأصليين للبلد. إذ قال الدكتور كُرنيليوس:

«كان جَدُّ سُموّك الأعلى، كاسبيان الأوّل، هو أوّل مَن أخضع نارنيا وجعلها مملكةً له. وكان هو مَن أتى بجميع أُمّتكم إلى داخل البلد. فأنتم لستم نارنيانيِّين أصليِّين أبداً. أنتم تلماريّون، أي أنّكم جئتم كلّكم من بلاد تِلمار الواقعة بعيداً وراء الجبال الغربيّة. ولهذا يُسمّى كاسبيان الأوّل كاسبيان الفاتح».

وذات يومٍ سأل كاسبيان: «رجاءً، يا دكتور، مَن كان يسكن في نارنيا قبلما جئنا جميعاً من تِلمار؟»

فأجاب الدكتور كُرنيليوس: «لم يكن أحدٌ من البَشر — أو كان عددٌ قليلٌ جدّاً — ساكناً في نارنيا قبل استيلاء التلماريّين عليها».

«إذاً مَن هزموا أجدادي الأوّلون الأقدمون؟»

فقال الدكتور كُرنيليوس: «على سُموّك أن تقول: 'مَن هزم،' وليس: 'مَن هزموا.' ربّما حان وقت الانتقال من التاريخ إلى قواعد اللغة!»

وقال كاسبيان: «أوه، رجاءً، ليس الآن! قصدي أن

أسأل: ألم تحصل معركة؟ فلماذا يُدعى كاسبيان الفاتح إن لم يكن قد حارب قوماً وهزمهم؟»

فأجاب الدكتور: «لقد قلتُ إنّه كان في نارنيا عددٌ قليل من البَشر»، ناظراً إلى الولد الصغير باستغرابٍ كثير من خلال نظّارته.

وتحيّر كاسبيان لحظةً، ثمّ قفز قلبه في صدره فجأةً، فقال لاهثاً: «هل تعني أنّه كان هناك أشياء أُخرى؟ هل تعني أنّه حصل كما يُحكى في القصص؟ أكان هناك...؟»

فقال الدكتور كُرنيليوس مُقرّباً رأسه كثيراً من رأس كاسبيان: «سكوتاً! ولا كلمة بعد! ألا تعرف أن مُربّيتك طُرِدت لأنّها خبّرتك عن نارنيا القديمة؟ إنّ الملك لا يحبُّ هذا. فإذا ضبطني أحكي لك أسراراً، تُجلَد أنت بالسَّوط ويُقطَع رأسي».

وسأل كاسبيان: «ولكنْ لماذا؟»

فقال الدكتور كرنيليوس بصوتٍ عالٍ: «حان وقت الانتقال إلى درس القواعد الآن. فهل يتفضّل سموّك الملوكيُّ بفتح كتاب 'نافِضُ الغبار عن مسائل اللُّغة' إلى الصفحة الرابعة 'من بُستانهِ اللغويّ أو تَعريشة عِلم الصَّرف مفتوحةً بِيُسر لنزهة العقول الطريّة'؟»

وبعد ذلك غاص المعلّم الخصوصيّ وتلميذه الأمير في الأفعال والأسماء حتّى حان وقت الغداء. ولكنّني لا أعتقد أنّ كاسبيان تعلّم الكثير، إذ كان بالغ الانفعال والحماسة. فقد شعر بيقينٍ شديد أنّ الدكتور كرنيليوس

لم يكُن ليقول له ما قاله لو لم يكن ينوي أن يُخبره بالمزيد عاجلاً أو آجلاً.

ولم يخب أمله في ذلك. إذ إنّ مؤدّبه قال له بعد بضعة أيّام: «سأعطيك الليلة درساً في علم الفلك. ففي ظلام الليل الحالك، سيَمرُّ كوكبان شريفان، طَرْفة ولَمبيل، أحدُهما بقرب الآخر على بُعْدٍ أقلّ من درجة واحدة. لم يحدث مثل هذا الاقتران منذ مئتي سنة، ولَن تعيش سموُّك لتراه مرّةً أخرى. فيكون أفضلَ لو أخلدتَ إلى النوم أبكرَ من المعتادِ بقليل. وعندما يقترب وقت الاقتران، أجيء وأوقظك».

لم يبدُ أنّ لذلك أيّةَ علاقة بنارنيا القديمة التي كانت بالحقيقة الموضوعَ الذي أراد كاسبيان أن يسمع عنه. ولكنّ النهوض في منتصف الليل مُشوّقٌ دائماً، وقد سرّه ذلك نوعاً ما. وعندما أوى إلى السرير تلك الليلة، تصوّر أوّلاً أنّه لن يقدر أن ينام، ولكنّ سرعان ما غطغط عليه النوم وغلبه، بحيث بدا له أنّه نام فقط بضع دقائق قبل أن أحسّ شخصاً يهزّه برفق.

فجلس في السرير، وإذا بضوء القمر يملأ الغرفة، وقد وقف إلى جانب سريره الدكتورُ كُرنيليوس متلفّعاً بِرُوبٍ لهُ غِطاءُ رأس، وحاملاً بيده مصباحاً صغيراً. وتذكّر كاسبيان في الحال ما ينويان أن يفعلاه، فنهض ولبس بعض الثياب. ومع أنّها كانت ليلةً صيفيّة، فقد أحسّ بالبرد أكثر ممّا توقّع، وسُرّ كثيراً حين لفّهُ الدكتور بِرُوبٍ مثل رُوبه وناوله زوجين

من الأخفاف ناعمَين مُدفّئين لِقدمَيه. وبعد ذلك بلحظة، كان الاثنان قد تلفّعا جيداً بحيث لا يكاد أحد يعرفهما في الممرّات المعتمة، وقد انتعلا حذاءين خفيفين بحيث لا يُصدِران أيَّ صوتٍ تقريباً، ثُمّ غادرا الغرفة كِلاهما: المعلّم والتلميذ.

ولحق كاسبيان بالدكتور عبر ممرّاتٍ كثيرة وعلى أدراج عديدة، حتى خرجا أخيراً إلى السطح المسقوف بصفائح معدنيّة من باب صغير في أحد الأبراج الصغيرة. فرأيا إلى أحد الجانبين الشرُفات المُفرّجة، وإلى الجانب الآخر سطحاً منحدراً؛ وتحتهما حدائق القصر تغمرها الظلال والأضواء الباهتة، وفوقهما القمر والنجوم. وما لبثا أن بلغا باباً آخر يؤدّي إلى البرج الأوسط الكبير للقصر كلّه، ففتحه الدكتور كُرنيليوس بالمفتاح، وأخذا يصعدان دَرَج البُرج اللولبيّ المُعتِم. فبدأت الحماسة تدبُّ في كاسبيان، إذ لم يكن قد سُمح له قطُّ بأن يصعد ذلك الدَرَج.

كان الدرج طويلاً وشديد الانحدار. ولكنّ لمّا خرجا إلى سطح البرج والتقط كاسبيان أنفاسه، شعر بأنّ الأمر يستحقُّ عناءه فعلاً. فإلى يمينه في البعيد، استطاع أن يرى الجبال الغربيّة، وإن كانت غير واضحة تماماً. وإلى يساره تألّق النهر الكبير، وقد كان كلُّ شيء هادئاً جدّاً حتى استطاع أن يسمع صوت الشلاّل عند سدّ السمامير، على بعدٍ يزيد عن كيلومتر ونصف. ولم يَلقيا صعوبة في تحديد النجمتين اللتين جاءا لرؤيتهما. فقد كانتا معلّقتين

في ناحية منخفضة قليلاً من الفضاء الجنوبيّ، مُتلألئتين تقريباً مثل قمرَين صغيرين وإحداهما بلِزق الأخرى، حتّى إنّ كاسبيان سأل بصوتٍ منخفض ملؤه الرهبة:

«هل تُوشكان أن تتصادما؟»

فأجاب الدكتور (متكلّماً هو أيضاً بما يُشبه الهمس): «لا، أيها الأمير العزيز، فسيّدا الفضاء الأعلى هذان العظيمان يعرفان جيّداً وَقْع رقصتهما بحيث لا يمكن أن يتصادما. واقترانُهما دليلُ سَعد، وهو يعني حصول خيرٍ عظيم لعالَم نارنيا الحزين. فإنّ طَرْفة، ربَّ النصر، يُحيّي المُبيل، ربّةَ السلام. وهما إنّما يصلان إلى أقرب نُقطتينِ في اقترانهما».

وقال كاسبيان: «من المؤسف أن تعترض تلك الشجرة في السبيل. كان يمكننا أن نرى بالحقيقة رؤيةً أفضل من البرج الغربيّ، وإن كان غير عالٍ كثيراً».

ولكنّ الدكتور كُرنيليوس لم يقُل كلمةً واحدة مدّةَ دقيقتين تقريباً، بل وقف ساكناً وعيناه شاخصتان إلى طَرْفة والمُبيل. ثمّ سحب نَفَساً عميقاً والتفت إلى كاسبيان قائلاً:

«ها أنت قد رأيت ما لم يرَه إنسانٌ حيٌّ الآن، ولن يراه بعد. وقد كان ممكناً أن نراه بصورة أفضل بعدُ لو كنّا في البرج الأصغر. إلّا أنّني جئتُ بك هنا لسببٍ آخر».

فرفع كاسبيان نظره إليه، ولكنّ غطاءَ رأسه كان يُغطّي معظم وجهه الأسمر.

وقال الدكتور: «مزيّة هذا البرج أنّ تحتنا ستّ غُرَف



فارغة، وأنّ له دَرَجاً طويلاً، وأنّ الباب عند أسفل الدرج مُقفَل. فلا يمكن أن يتنصّت أحدٌ علينا».

فسأله كاسبيان: «أتنوي أن تُخبرني بما لم تُخبرني به منذ بضعة أيّام؟»

أجاب الدكتور: «نعم! ولكنْ تذكّر: عليك وعليّ ألّا نتحدّث أبداً عن هذه الأمور إلّا هُنا، على سطح البرج الكبير بالذات!»

فقال كاسبيان: «حسناً، لن نتحدّث... وهذا وعد! لكنْ رجاءً، تابِعْ كلامك».

وقال الدكتور: «اِسمَعْ! كلُّ ما سمعتَه عن نارنيا القديمة صحيح. فهي ليست أرض البشر. إنّها بلاد أصلان، بلادُ الأشجارِ الساهرة وحوريّات الماء المنظورة،

والفُونات والساطيرات*، والأقزام والمَرَدة، والجبابرة والقَنطُورات**، والحيواناتِ الناطقة. هؤلاء هُم مَن حاربهم كاسبيان الأوّل. فأنتمُ التلماريّين مَن أخرسوا الحيوانات والأشجار والينابيع، ومَن قتلوا وطردوا الأقزام والفُونات، ومَن يحاولون الآن أن يُزيلوا حتّى ذكراها جميعاً. فالملك لا يسمح بمجرّد الحديث عنها».

فقال كاسبيان: «آه، يا ليتنا لم نفعل ذلك! وأنا مسرور لأنّ ذلك كلّه صحيح، وإن كان قد انتهى الآن».

وقال الدكتور كُرنيليوس: «كثيرون من بني قومك يتمنّون ذلك سرّاً».

فقال كاسبيان: «ولكنْ، يا دكتور، لماذا تقول بني قومي؟ على كلّ حال، أظنّ أنّك أنت أيضاً تلماريّ».

وقال الدكتور: «أ... أنا كذلك؟»

فأجاب كاسبيان: «حسناً، إنّك بشريّ بأيّة حال!»

فكرّر الدكتور بصوتٍ أعمق: «أ... أنا كذلك؟» رافعاً في الوقت نفسه الغطاء عن رأسه حتّى يرى كاسبيان وجهه بوضوح في ضوء القمر.

وفي الحال أدرك كاسبيان الحقيقة، وشعر بأنّه كان

* الساطيرات: شخصيات تظهر في الأساطير اليونانية، وهي مشابهة للفونات لكنها أعنف وأشد. مفردها «ساطير».

** القنطورات: مفردها «قنطور» وهي شخصيات أسطورية نصفها السفلي جسم حصان، ونصفها العلوي نصف الإنسان العلوي.

ينبغي أن يعرفها منذ وقتٍ طويلٍ. فقد كان الدكتور كُرنيليوس صغيراً وسميناً جدّاً، وذا لحية طويلة وكثيفة جدّاً. وخطرت على باله فكرتان في آنٍ واحد، كانت إحداهما فكرة مُروِّعة: «أنّه ليس كائناً بشريّاً، ليس إنساناً على الإطلاق، بل هو قزَم، وقد أتى بي إلى هنا كي يقتلني». وكانتِ الفكرة الأُخرى مبهجة جدّاً: «ما زال هناك أقزامٌ حقيقيّون، وأنا قد رأيتُ واحداً منهم أخيراً».

وقال الدكتور كُرنيليوس: «إذاً لقد حزرتَ الأمر في النهاية، أو حزرت حقيقته تقريباً. فأنا لستُ قزماً خالصاً. إذ في عروقي دمٌ بشريٌّ أيضاً. وقد نجا أقزام كثيرون في المعارك الكبيرة وظلّوا أحياءً، فحلقوا لحاهم وانتعلوا أحذية عالية الكعبين وتظاهروا بأنّهم آدميّون. وقد اختلطوا بقومك التلماريين. وأنا واحدٌ من هؤلاء، إلّا أنّني نصفُ قزم فقط. ولو أنّ واحداً من بني قومي، الأقزام الحقيقيّين، ما يزال على قيد الحياة في أيّ مكان من العالم، لاحتقرني ونعتني بأنّني خائن. ولكنّنا طوال هذه السنين كلّها ما نسينا قومنا قطّ، ولا جميع مخلوقات نارنيا السعيدة الأخرى وأيّامَ الحريّة المفقودة منذ زمان طويل».

فقال كاسبيان: «إنّني ... إنّني آسف يا دكتور! لم تكن الغلطة غلطتي، كما تعلم».

أجابه الدكتور: «لستُ أقول هذه الأمور لوماً لك، أيّها الأمير العزيز. ويحسن بك أن تسأل عن سبب قولي لها الآن. فإنّما لديّ سببان. الأوّل أنّ قلبي الهَرِم

قد حمل هذه الذكريات السريّة مدّةً طويلة جداً حتّى صار مُوجِعاً منها، ويكاد ينشقّ إن لم أُسِرَّ بها إليك. أمّا الثاني فهذا: أنّك عندما تصير ملكاً قد تُساعِدنا، إذ إنّني أعرف أنّك أنت أيضاً، رُغم كونك تلمارياً، تُحِبُّ الأمور القديمة الماضية».

فقال كاسبيان: «نعم، أُحِبُّها فعلاً! ولكنْ كيف يمكنني أن أُساعدكم؟»

فأجابه الدكتور: «يمكنك أن تكون مُحسِناً إلى بقايا قومِ الأقزام المساكين من أمثالي. يمكنك أن تجمع السحرة المثقّفين وتحاول الاهتداء إلى طريقة لإيقاظ الأشجار من جديد. يمكنك أن تفتّش في جميع الأماكن المنعزلة والبريّة من أرض نارنيا لعلّك تجد أيَّ فُونات أو حيوانات ناطقة أو أقزام ما تزال تحيا في مخابىء».

وسأله كاسبيان بلهفة: «هل تعتقد أنّ كثيرين من هؤلاء موجودون؟»

فقال الدكتور بتنهُّدة عميقة: «لستُ أدري... لستُ أدري! أحياناً أخشى ألّا يكون أحدٌ منهم موجوداً. فطولَ عمري وأنا أبحث عن أيّ أثر لهم. وقد خُيِّل إليّ أحياناً أنّني سمعت نقراً على طبلِ قزم في الجبال. وفي الليل أحياناً، كنتُ أتصوّر أنّي لمحتُ في الغابات فُوناتٍ وساطيراتٍ يرقصون في البعيد البعيد، ولكنْ حينَ أصل إلى المكان لا أجد أيّ شيء من ذلك هناك. وما أكثر ما اعتراني اليأس! إلّا أنّه كان يحدث دائماً ما يبعث فيّ

الأمل من جديد. لستُ أدري! ولكنْ على الأقلّ ستُتاح لك محاولةُ أن تكونَ ملكاً مثل بطرس الملك الأعلى في القديم، لا مثلَ عمّك».

فقال كاسبيان: «إذاً صحيحٌ ما قيل عن المَلِكَين والملكتين أيضاً، وعن الساحرة البيضاء؟»

أجاب كُرنيليوس: «حتماً صحيح! وقد كان حُكمُهم عصر نارنيا الذهبيّ، والبلاد لم تنسَهُم قطّ».

«وهل عاشوا في هذا القصر، يا دُكتور؟»

فقال العجوز: «كلّا، يا عزيزي! فهذا القصر حديثُ العهد، إذ بناه جَدُّ جدِّك. ولكنْ لمّا جعل أصلان نفسُه ابني آدم وابنتي حوّاء مَلِكين وملكتين على نارْنيا، عاشوا في قصر كيرپراڤيل. ولم يرَ أحدٌ من الأحياء ذلك المكان المُبارك، بل ربّما زالت حتّى خرائبُه الآن. إلّا أنّنا نعتقد أنّه كان بعيداً من هنا، عند مصبّ النهر الكبير في الأسفل، على شاطىء البحر تماماً».

وقال كاسبيان بشيء من الارتعاد: «يا لَلهول! أتعني في الغابات السوداء؟ حيث يعيش جميع الـ... الـ... جميعُ الأشباح، كما تعلم؟»

فأجاب الدكتور: «إنّ سموّك تتحدّث مثلما عُلِّمت. ولكنْ ذلك كلّه كذبٌ بكذب. فلا أشباحَ هناك. هذه قصّة اخترعها التِلماريّون. وملوكُكم في خوف رهيب من البحر لأنّهم لا يقدرون أبداً أن ينسَوا تماماً أنّ أصلان يأتي من وراء البحر في جميع القِصَص. فهُم لا يريدون أن

يقتربوا من البحر، ولا يريدون لأيّ شخص آخر أن يقترب منه. لذلك تركوا الغابات الكثيفة الكبيرة تطلع لتعزل قومَهم عن الساحل. ولكنْ لأنّهم تخاصموا مع الأشجار، فهُم يخافون الغابات. ولأنّهم خائفون من الغابات، فهُم يتخيّلون أنّها تغصّ بالأشباح. ثمّ إنّ الملوك والعُظماء، إذ يكرهون البحر والغابات، يصدّقون تلك القِصَص بعض التصديق، ويشجّعون على ترويجها بعض التشجيع. وهم يشعرون بأنهم أكثر أماناً إن كان لا يجرؤ أحد في نارنيا على النزول إلى الساحل ومدّ النظر فوق البحر، باتّجاه أرض أصلان والصباح وأقصى العالَم الشرقيّ».

ثمّ ساد صمتٌ تامٌّ بينهما بضعَ دقائق، حتّى قال الدكتور كُرنيليوس: «هيّا بنا! لقد قضينا وقتاً كافياً، وقد حانَ وقت النزول والنوم».

فقال كاسپيان: «أيجبُ علينا عمل هذا؟ أُحِبُّ أن تمْضيَ في حديثنا عن هذه الأمور ساعاتٍ وساعاتٍ وساعات!».

لكنّ الدكتور كُرنيليوس قال: «قد يبدأ أحدهم بالتفتيش عنا إن فعلنا ذلك».

الفصل الخامس

مغامرة كاسپيان في الجبال

بعد ذلك كان لكاسپيان ومؤدّبه مزيدٌ من المحادثات السريّة على سطح البرْج الكبير. وفي كلّ محادثة، كان كاسپيان يعرف مزيداً من الأمور عن نارنيا القديمة. حتّى إنّ ساعات فراغه كلّها تقريباً شغلها التفكيرُ في الأيّام القديمة والحلمُ بها والاشتياقُ لعودتها. ولكنْ بالطبع لم يكن لديه كثيرٌ من تلك الساعات، لأنّ تعليمه كان قد ابتدأ الآن بكلّ جديّة. فقد تعلّم القتال بالسيف وركوبَ الخيل، والسباحة والغطس، والرماية بالقوس، وعزْفَ المزمار والعود، وصيدَ الغزلان وتقطيعها، فضلاً عن علم الكَون والبلاغة والنِّبالة* ونظْم الشعر، والتاريخ طبعاً، مع قليلٍ من القانون والحقوق والفيزياء والكيمياء والفلَك. أمّا السحر فلم يتعلّم إلّا نظريّته، لأنّ الدكتور كُرنيليوس قال إنّ القسم العمليّ منه لم يكن دراسة صالحة للأمراء، وأضاف: «وأنا نفسي ساحرٌ كثير النقص للغاية، بحيثُ

* النبالة: استخدام القوس والسهم.

لا أُجيد سوى بعض الاختبارات الصُّغرى». وأمَّا الملاحة («وهي فنٌّ شريف وبطوليّ»، كما قال الدكتور) فلَم يُعلَّم شيئاً منها، لأنَّ الملك ميراز لم يكن يُوافِق على تعليمه عن السُّفن والبحر.

وكذلك تعلَّم كاسپيان أيضاً أُموراً كثيرةً بحُسن استخدام عينيه وأذنيه. فلمَّا كان صغيراً جدّاً تساءل في الغالب عن سبب كُرهه لزوجة عمِّه، الملكة بَرقُوفة - برّاقة. أمّا الآن فعلم أنَّ كُرهه لها عائدٌ إلى مَقْتها له. وبدأ يدرك أيضاً أنَّ نارنيا بلادٌ غيرُ سعيدة؛ فالضرائب عالية والقوانين قاسية وميراز رجُلٌ ظالم.

وبعد بضع سنين جاء وقتٌ فيه بدا أنَّ الملكة مريضة، وحدث في القصر بشأنها الكثير من الارتباك والتشويش، وأخذ الأطبّاء يعودونها وأهل البلاط يتهامسون عنها. وكان ذلك في أوائل الصيف. وذات ليلة، بينما تلك الجَلَبةُ كلُّها جاريةٌ، أيقظ الدكتور كُرنيليوس كاسپيان على غير توقُّع منه، بعد إوائه إلى السرير بساعاتٍ قليلةٍ فقط. فسأله كاسپيان:

«هل تنوي أن نقوم بقليلٍ من دراسة علم الفلك، يا دكتور؟»

فقال له الدكتور: «سكوتاً! ثِق بي وافعل تماماً كما أقول لك. اِلبسْ ثيابك كلَّها، فأمامك مشوار طويل!»

فُوجِىء كاسپيان كثيراً، ولكنَّه كان قد تدرَّب على الوثوق بمؤدِّبه، فبدأ يفعل ما طلبه منه حالاً. ولمّا لبس

ثيابه، قال له الدكتور: «عندي حقيبةٌ لك. علينا أن ندخل الغرفة التالية ونملأها مؤونةً من على مائدة سموِّك العُلياء».

فقال كاسپيان: «سيكون خادماي هناك!»

وقال الدكتور: «إنَّهما نائمان نوماً عميقاً، ولَن يستيقظا. أنا ساحرٌ ضعيف جدّاً، ولكنَّني أستطيع على الأقلّ أن أوقِع نوماً مسحوراً».

ثمَّ دخلا غرفة الانتظار، فإذا بالخادمَين فعلاً ممدَّدان على كرسيَّيهما وهما يشخران شخيراً ثقيلاً. وبسرعةٍ قطع الدكتور كُرنيليوس ما تبقّى من فَرُّوج بارد، وبعض الشرائح من لحم غزالٍ مُقدَّد، ووضعها مع شيءٍ من الخبز والتُفّاح، وقنّينة صغيرة من النبيذ الجيِّد، داخل الحقيبة، ثمَّ أعطاها لكاسپيان. فثبَّتها كاسپيان جيِّداً بحزامٍ على كتفه، وكأنَّها حقيبة صغيرة كالَّتي تستعملها لأخذ كتبك إلى المدرسة.

وسأله الدكتور: «هل تحمل سيفك؟»

فأجاب: «نعم!»

«إذاً ضع هذه العباءة فوق كلّ شيءٍ لإخفاء السيف والحقيبة. هذا جيِّد! والآنَ لنذهبْ إلى سطح البُرج الكبير ونتحدَّث قليلاً».

كانت تلك الليلة مُلبَّدة بالغيوم، ولم تكن قطُّ مثل الليلة التي فيها عاينا اقتران طَرْفة والُمبيل. وقال الدكتور كُرنيليوس:

«أيّها الأمير العزيز، يجب أن تغادر هذا القصر حالاً وتنطلق بحثاً عن قَدَرِك في العالم الواسع. إنّ حياتك في خطر الآن!»

فسأله كاسپيان: «لماذا؟»

«لأنك ملك نارْنيا الحقيقيّ: كاسپيان العاشر، ابنُ كاسپيانَ التاسعِ الحقيقيُّ ووريثُه الشرعيّ. عاش جلالة الملك!»... وفجأةً – لدهشة كاسپيان الشديدة – جثا الرجل الصغير على إحدى ركبتيه وقبّل يده.

فقال كاسپيان: «ما معنى هذا كلّه؟ أنا لا أفهم..».

أجابه الدكتور: «أعجبُ من كونك لم تسألني قبلاً لماذا، وأنت ابنُ الملك كاسپيان، لستَ الآن الملكَ كاسپيان بذاتك. فكلٌّ واحد – ما عدا جلالتك – يعرف أن ميراز مُغتصِبٌ للعرش. وعندما باشر حُكمه أوّلاً، لم يجرؤ على الادّعاء بأنّه الملك، بل دعا نفسه: الوصيٌّ على العرش. ولكنْ بعد ذلك تُوفّيت جلالةُ أمّك، الملكة الطيّبة والتلماريّة الوحيدة التي أحسنت إليّ دائماً. وبعد ذلك أخذ جميع السادة الكبار ممّن عرفوا أباك يموتون أو يختفون واحداً بعد واحد. وما كان ذلك بالصّدفة أيضاً، إذ إنّ ميراز تخلّص منهم. فإنّ بَليصار ويوفيلاس قُتلا رمياً بالسّهام في رحلة صيد، صدفةً كما زُعِم. وجميع الأبطال من آل پاساريدْس أرسلهم لمحاربة المَرَدة على الحدود الشماليّة، حتّى سقطوا واحداً إثر واحد. أمّا آرليان وإرعون واثنا عشر آخرون فقد أعدمهم بتهمة الخيانة العظمى في قضيّة

مُلفّقة. وأخَوَا سدّ السّمامير حبسَهما بصفتهما مجنونَين. ثمّ أخيراً أقنع اللوردات السبعة الأشراف الذين لم يكونوا يهابون ركوب البحر، على خلاف التِلماريّين جميعاً، بأن يُبحِروا بعيداً ويبحثوا عن أراضٍ جديدة وراءَ المحيط الشرقيّ، وبالطبع لم يرجعوا قطّ كما دبّر لهم. وعندما لم يبقَ أحدٌ ممّن يمكن أن يقولوا كلمة صدقٍ لمصلحتك، عندئذٍ توسّل إليه مُتملّقوه (مثلما درّبهم) أن يتولّى المُلك. وبطبيعة الحال، صار هو الملك».

فسأله كاسپيان: «هل تعني أنّه الآن يريد قتلي أنا أيضاً؟»

أجاب الدكتور كُرنيليوس: «هذا أمرٌ حتميٌّ على الأرجح».

فقال كاسپيان: «ولكنْ لماذا الآن؟ أعني: لماذا لم يفعل ذلك من زمان إذا كان ينوي فعله؟ وأيّ أذىً سبّبتُ له؟»

«لقد غيّر رأيه من جهتك بسبب شيءٍ حدث منذ ساعتين فقط. فإنّ المَلِكة رُزِقت ابناً».

قال كاسپيان: «لا أفهم ما علاقة ذلك بالأمر؟»

فردّ الدكتور كُرنيليوس متعجّباً: «لا تفهمُ! أمَا تعلّمتَ من جميع دروس التاريخ والسياسة التي شرحتُها لك شيئاً أكثر من ذلك؟ اِسمَع! ما دام قد حُرِم ابناً من صُلبه، لم تكن لديه مشكلة في أن تكون ملكاً بعد موته. وربّما لم يكُن يعنيه أمرُك كثيراً. إلّا أنّه فضّل أن تستلم

أنت العرش على أن يتولّاه غريب. أمّا الآن، وقد رُزق ابناً من لحمه ودمه، فلا بدّ أن يرغب في أن يكون ابنُه بالذات هو الملك التالي. وها أنت تعترض في السبيل، ولسوف يُزيحك من الطريق».

وسأل كاسبيان: «أهو حقّاً بهذا السوء؟ أوَيقتلني فعلاً؟»

فأجابه الدكتور كُرنيليوس: «لقد قتل أباك!»

وأحسّ كاسبيان إحساساً غريباً جدّاً، إلّا أنّه لم يقُل شيئاً. فقال الدكتور:

«يمكنني أن أحكي لك القصّة كلّها، ولكنْ ليس الآن. فلا وقت لدينا. يجب أن تهرب في الحال».

وسأله كاسبيان: «هل تأتي معي؟»

فأجاب: «لا أستطيع. فهذا يُضاعف الخطر عليك. واقتفاء آثار شخصين أسهل من تتبّع شخصٍ واحد. فيا أيّها الأمير العزيز، أيّها الملك العزيز كاسبيان، ينبغي لك أن تكون شجاعاً جداً. عليك أن تنطلق وحدك وحالاً. حاول أن تعبر الحدود الجنوبيّة إلى بلاط نايِن، مَلك بلاد أرخيا، فهو سيُعاملك معاملة حسنة».

وقال كاسبيان بصوت مرتعش: «ألن أراك ثانية؟»

فقال الدكتور: «بلى، أرجو ذلك! فأيُّ صديقٍ لي في العالم الواسع سوى جلالتك؟ ثمّ إنّ عندي شيئاً من السحر. ولكنْ في هذه الأثناء عجّلْ في كلّ شيء. وإليك هاتين الهديّتين قبل ذهابك. هذه صُرّة صغيرة

من الذهب ... واأسفاه! إنّ جميع الكنوز في هذا القصر ينبغي أن تكون لك بالحقّ الشرعيّ. وهاك شيئاً آخر أفضل بكثير».

ثمّ وضع في يد كاسبيان شيئاً لم يكد يراه، ولكنّه عرف من ملمسه أنّه بُوق. وقال له:

«ذا هو كنزُ نارنيا الأعظم والأقدس. وكم من أهوالٍ تحمّلْتُها، وسُحورٍ نطقتُ بها، حتّى أعثرَ عليه وأنا ما زلت شابّاً! إنّه بوق الملكة سوزان السحريُّ الذي تركَته هُنا لمّا اختفت من نارنيا عند نهاية العصر الذهبيّ. ويُقال إنّ أيَّ مَن ينفخ في هذا البوق ينال نجدةً عجيبة، لا يقدر أحد أن يعرف كم هي عجيبة. فقد تكون له القدرة على استدعاء الملكة لوسي والملك إدمون والملكة سوزان والملك الأعلى بطرس من الماضي، وهم سيضعون جميع الأمور في نصابها. وربّما استطاع استدعاء أصلان نفسه. فخُذه، أيها الملك كاسبيان، ولكن لا تستعمله إلّا عند الضرورة القُصوى. والآن، هيّا، عجّلْ، عجّلْ! إنّ الباب الصغير في أسفل البُرج تماماً، الباب المؤدّي إلى البُستان، غير مُقفل. وهناك يجب أن نفترق».

وقال كاسبيان: «لا يمكن أن آخُذ حصاني دوّاساً؟»

أجابه الدكتور«قد أسرجتُه لك، وهو بانتظارك عند زاوية البستان تماماً».

وفي أثناء نزولهما الطويل على الدّرَج اللولبيّ، ظلّ كُرنيليوس يهمس بمزيدٍ من التوجيهات والنصائح في أُذن

كاسبيان. وقد كان قلب كاسبيان مُرتاعاً، إلّا أنّه حاول أن يتمالك نفسه ويستوعب الإرشادات كلّها. ثمّ هبَّ الهواء المنعش في البستان، فكانت مصافحةٌ حميمة مع الدكتور، وركضٌ عبر المرجة، وصهيلُ ترحيبٍ من دَوّاس ... وهكذا غادر الملك كاسبيان العاشر قصر آبائه. وإذ نظر إلى ورائه، شاهد المُفرقعات تتصاعد احتفالاً بولادة الأمير الجديد.

وركب طوال الليل نحو الجنوب مختاراً الطُرق الفرعيّة ودروب الخيل وسط الغابات ما دام في المناطق الريفيّة التي يعرفها. ولكنّه بعدَ ذلك لازم الطُرق الرئيسيّة. وقد كان دوّاسٌ منفعِلاً كصاحبه حيال هذه الرحلة غير المعتادة؛ إلّا أنّ كاسبيان- رغم كون عينيه قدِ اغرورقتا عند وداعه الدكتور كُرنيليوس- أحسّ أنّه شُجاع، وسعيدٌ بمعنىً ما، إذ خطر في باله أنّه هو الملك كاسبيان وقد خرج راكباً في طلب المغامرات، وسيفُه على وَرِكهِ الأيسر وبوق الملكة سوزانَ السحريُّ على وَرِكهِ الأيمن. ولكن لمّا طلع النهار برذاذِ مطر خفيف، وتلفّت حواليه فرأى من كلّ جهة غاباتٍ مجهولة وأراضيَ بُوراً بريّة وجبالاً زرقاء، فكّر كم هو العالم كبير وغريب وشعر بالخوف وبأنّه صغير.

وما إن بلغ الصباح أوجَه حتّى ترك الطريق ووجد مكاناً مكشوفاً ذا عُشبٍ في وسط دَغَلٍ يمكنه أن يستريح فيه. فنزع لجامَ دوّاس وتركه يرعى، وأكل شيئاً من الدجاج البارد وشرب قليلاً من النبيذ، وغطغط عليه النوم حالاً. وكان عصر النهار يكاد يفوتُ حين استيقظ، فأكل لقمةً وتابع

رحلته وهو ما يزال متوجّهاً نحو الجنوب، سالكاً كثيراً من الشعاب غير المطروقة؛ حتّى بلغ أرضاً جبليّة تعلو وتنخفض لكنْ تبقى صاعدةً دائماً أكثر منها هابطة. ومِن على كُلّ قمّة، كان يرى الجبال أمامه تكبر وتسوَدّ؛ حتّى لمّا اقترب المساء، كان راكباً منحدراتِها الأقلّ علوّاً. ثمّ هبّت الريح، وما لبث المطر أن هطل بغزارة، فانزعج دوّاس، ولا سيّما حين دوّى الرعد في الفضاء. ثمّ دخلا غابة صنوبر مُعتِمةً تبدو بلا نهاية، فإذا بجميع الحكايات التي سمعها في ما مضى عن كون الأشجار مُسيئةً إلى الإنسان تزدحم في ذهنه. وتذكّر أنّه رُغمَ كلّ شيء واحدٌ من التلماريّين، أولئك القوم الذين كانوا يقطعون الأشجار كلّما استطاعوا وخاضوا حروباً ضدّ كلّ ما هو بَرّيّ؛ ولئن كان مختلِفاً عن باقي التلماريّين، فلا يُتوقّع من الأشجار أن تعرف ذلك.

ولم تعرِف الأشجار ذلك فعلاً. فقد صارت الريح عاصفة، وأخذتِ الأشجار تُوَلول وتُخشخِش بما يُشبِه الزعيق والصرير، ثمّ حصل صوت خبطٍ وارتطام، إذْ سقطت شجرة في وسط الطريق وراءه تماماً. فقال لحصانه: «هدوءاً، يا دَوّاس، هدوءاً!» وهو يُربّت عنق الحصان. إلّا أنّه هو كان يرتجف وقد عرف أنّه نجا من الموت بمسافة لا تزيد عن ثلاثة سنتيمترات. ثمّ ومض البرق وبدا أنّ قصفة رعد عظيمة تشقّ السماء شِقّين فوق رأسه تماماً. فأجفل دوّاس ووثب وثبةً خاطفة. ومع أنّ كاسبيان كان فارساً بارعاً، لم يقوَ على كبح جماحه. وقد ظلّ قاعداً على

ظهر الحصان، إلّا أنّه عرف أنّ حياته مُعلّقة بشعرة خِلال العَدْوة الجامحة التي تلت ذلك.

واجهَتْهما بسرعةٍ شجرةٌ وراء شجرة في العتمة، وتمّ



تجنّبُها في الوقت المناسب. ثمّ بسرعة تكاد تكون مفاجِئة جدّاً بحيث لا تؤذي (ومع ذلك آذته بالفعل) ارتطم شيءٌ بجبين كاسپيان فما عاد يدري بما يدور حوله.

ولّما أفاق من غيبوبته، وجد نفسه في مكانٍ تُضيئه نار وقد ترضّضت أطرافُه وانتاب رأسَه صداعٌ ثقيل. وسمع على مقربةٍ منه أصواتاً تتكلّم بصوتٍ خافت.

قال أحد الأصوات: «والآن، قبل أن يستفيق هذا المخلوق يجب أن نقرّر ماذا نفعل به».

وقال آخر: «اقتلوه! لا يمكننا أن ندعه يعيش. فإنّه قد يشي بنا».

وقال صوتٌ ثالث: «كان ينبغي أن نقتله حالاً، أو أن ندعه وشأنه. لا يمكننا أن نقتله الآن. ليسَ بعد أن أدخلناه إلى هنا وضمّدنا رأسه واعتنينا به. فمن شأن ذلك أن يكون قتْلَ ضيفٍ غدراً».

فقال كاسپيان بصوتٍ ضعيف: «يا سادة، مهما فعلتم بي، أرجو أن تُعاملوا حصاني المسكين برِفق».

قال الصوت الأوّل: «لقد فرّ حصانُك قبل أن نجدك بوقتٍ طويل»، وقد لاحظ كاسپيان الآن أنّه كان صوتاً مبحوحاً وخشناً بشكلٍ غريب.

ثمّ قال الصوت الثاني: «والآن لا تدَعوه يلعب بعقولنا بكلماته المعسولة. فأنا ما أزال أقول..».

فصاح الصوت الثالث: «كفى كلامٌ فارغ! طبعاً لن نقتلَه. عيبٌ عليك، يا نِيكابْريك. ما قولك، يا جانيكَمَا؟ ماذا نفعل بهذا المخلوق؟»

فأجاب الصوت الأوّل، صوتُ جانيكمَا على الأرجح: «سأسقيه قليلاً!» ثمّ اقترب من الفراش شكلٌ قاتم، وأحسّ كاسپيان ذراعاً تنزلق برفقٍ تحت كتفيه... إن كانت بالحقيقة ذراعاً. وقد بدا ذلك الشكل مشوّهاً بطريقة ما. وبدا له أنّ الوجه الذي انحنى عليه مُشوّه أيضاً. وتكوّن لديه انطباع بأنّه كثيف الشعر جدّاً وطويل الأنف كثيراً، وكان على كِلا جانبيه رُقَط بيضاء غريبة. ففكّر كاسپيان: «لعلّه قِناعٌ من نوع ما، أو لعلّني محموم وأنا أتخيّل كلّ شيء». ثمّ قُرّبَت من شفتيه

حافةُ فنجان مملوءٍ بسائلٍ ساخنٍ حُلو المذاق، فشرب. وفي تلك اللحظة حرّك أحدُ الآخرَين النار، فتوهّجت وكاد كاسپيان يصرخ من هول صدمته، إذ أظهر النور المفاجىء ذلك الوجهَ الذي كان ينظر إلى وجهه. فهو لم يكن وجه إنسان، بل وجه غُرَير، مع أنّه أكبرُ وأكثرُ مودّةً وذكاءً من وجه أيّ غُرَير آخر سبق أن رآه. ولا شكّ أن الغُرَير * كان يتكلّم. وتبيّن لكاسپيان أيضاً أنّه كان



ممدّداً على فِراشٍ من نبات الخَلَنج **، في كهف. وقد قعد قرب النار رجلان صغيران مُلتحيان، أكثر خشونةً وقِصَراً وشَعراً واكتنازاً من الدكتور كُرنيليوس بحيث عرف حالاً أنّهما قزمان حقيقيّان، قزمان عريقان ليس في

* الغُرَير: حيوان ثديي لاحم من فصيلة السرعوبيات، ذو جسم قوي وفراء وبري خشن. لونه يتدرج بين البني والرمادي مع خطوط بيضاء.

** الخلنج: نبات أوراقه صغيرة دائمة الخضرة، وله عناقيد من الأزهار الوردية على شكل أجراس.

عروقهما نقطةُ دمٍ بشريٍّ واحدة. وهكذا علم كاسپيان أنّه التقى أخيراً النارنيانيّين القدامى. ثمّ أصابت الدوخة رأسه من جديد.

وفي الأيّام القليلة التالية تعرّف بهم بأسمائهم. فقد كان اسم الغُرَير جانيكَماً، وكان أكبرَ الثلاثة سنّاً وألطفهم. أمّا القزم الذي أراد أن يقتل كاسپيان فكان قزماً حادَّ الطبع أسود (ذلك أنّه كان ذا شعر ولحية أسودين وكثيفين وقاسيين كشَعر عُرف الحصان أو ذيله)، وكان اسمه نِيكابْريك. وأمّا القزم الآخر فكان قزماً أحمر، شعرُه أشبه بشعر الثعلب، وكان اسمُه طرمبكن.

وفي أوّل مساء تحسّن فيه كاسپيان جيّداً حتى استطاع أن يجلس ويتكلّم، قال نِيكابْريك: «والآن، ما زال علينا أن نقرّر ماذا نفعل بهذا البشريّ. فأنتما تظنّان أنّكما قد أحسنتُما إليه إحساناً عظيماً بمنعي من قتله. ولكنّني أعتقد أنّ خُلاصة الموضوع أنّه ينبغي لنا أن نُبقيه سجيناً عندنا مدى الحياة. أنا على يقين بأنّني لن أدعه يمضي حيّاً... حتّى يذهب إلى بني جنسه ويَشي بنا جميعاً».

فقال طرمْبكِن: «هراءٌ بهراء! لماذا تتكلّم بمثل هذه القباحات؟ ليست غلطة المخلوق إذا كان رأسه قد اصطدم بشجرة خارجَ كهفنا. ولا أعتقد أنّه يبدو خائناً».

وقال كاسپيان: «هل لي بتذكيركم أنّكم لم تسألوني عن رغبتي أنا في العودة؟ فأنا لا أُريد أن أعود، بل أودّ أن أبقى معكم... إنْ سمحتم لي. ولطالما كنتُ أبحث عن

قومٍ مثلكم كلَّ حياتي».

فقال نيكابْريك بصوته الأجشّ: «هذه قصّة قابلة للتصديق! فأنت تلماريٌّ وبشريّ، ألستَ كذلك؟ وبالطبع تريد أن تعود إلى بني قومك».

وأجاب كاسپيان: «حسناً، حتّى لو أردتُ، فأنا لا أقدر! لقد كنتُ هارباً لأنجوَ بحياتي عندما وقع لي الحادث. فالملك يريد أن يقتلني. ولو قتلتموني، لفعلتم الأمر الذي يسرّه بالذات».

فقال جانيكَما: «مهلاً! لا تقُل هكذا!»

وقال طرمْبكِن: «إيه؟ ما خَطبُك؟ تُرى، ماذا فعلتَ أيّها البَشريُّ حتّى يعتبرك ميراز خائناً ويطلب قتلك في سنّك الصغيرة هذه؟»

فبدأ كاسپيان يقول: «هُوَ عمّي...». وإذا بنيكابْريك يهبُّ واقفاً ويده على خنجره. ثمّ يصيح:

«ها أنت ذا! لستَ تلمارياً فقط، بل نسيبٌ قريب ووارثٌ لعدوّنا الأكبر أيضاً. أما زال جنونُكما يدفعكما إلى إبقاء هذا المخلوق حيّاً؟» وكان من شأنه أن يطعن كاسپيان عندئذٍ وفي ذلك المكان، لو أنّ الغُرَير وطرمبكن لم يعترضا بينهما ويُرغِماه على العودة إلى مقعده ويُمسِكا به هناك.

ثمّ قال له طرَمْبكن: «والآن، يا نيكابْريك، مرّةً وإلى الأبد: أتضبِط أعصابك أم علينا أنا وجانيكَما أن نقعد على رأسك؟»

فوعدهما نيكابريك بأن يُحسِن التصرُّف، وهو مُقطّبُ الوجه، وطلبا هُما من كاسپيان أن يحكيَ قصّته كاملةً. ولمّا فرغ من سرد قصّته، ساد الصمتُ هُنيهةً. حتّى قال طرمبكن:

«هذه أغربُ قصّة سمعتُها على الإطلاق!»

وقال نيكابريك: «إنّها لا تعجبني. فلم أكُنْ أعرف أنّ القصص ما تزال تُروى عنّا بين البَشر. وكلّما قلّت معرفتهم بأحوالنا، كان أفضل. والآن، كانت تنقصنا تلك المربّية العجوز! أما كان خيراً لها لو ضبطت لسانها؟ وقد زاد الطينَ بلّةً ذلك المؤدِّب، وهو قزَم مُرتدّ. كم أكره هؤلاء! إنّي أكرههم كرهاً أشدَّ من كرهي للبشر. انتبها إلى كلامي: لَن تكون العاقِبة خيراً البتّة».

فقال جانيكَما: «لا تسترسلْ في الكلام عن أمورٍ لا تفهمها، يا نيكابْريك. أنتم الأقزامَ كثيرو النسيان والتقلّب، شأنكُم شأنُ البَشر. فأنا حيوان، نعم أنا هكذا، وأنا غُرَيرٌ أيضاً. ونحن لا نتغيّر، بل نظلُّ كما نحن. وأقول إنّ العاقبة ستكون خيراً جزيلاً. فهذا ملك نارنيا الحقيقيّ. ونحنُ الحيواناتِ نتذكّر، ولو نسيَ الأقزام، أنّ نارنيا لم تكن قط على أحسن حال إلّا حين كان واحدٌ من بني آدم ملكاً».

وقال طرمْبكِن: «عَبَثٌ بِعَبَث وهراء بهراء، يا جانيكَما! أنتَ لا تقصد أنّك تريد تسليم البلد للآدميّين!»

فأجاب الغُرَير: «لَمْ أقُلْ شيئاً عن ذلك. فليست هي بلادَ البَشَر (ومَن ينبغي أن يعرف ذلك أفضل منّي؟)

ولكنّها بلاد ينبغي أن يكون مَلِكُها من البشر. ونحنُ بَني غُرير عندنا ذكرياتٌ قديمة العهد جداً تجعلنا نعرف ذلك. عجباً — علينا البَرَكة جميعاً — أمَا كان الملك الأعلى بطرس إنساناً من بَني آدم؟»

وسأله طرمبكن: «هل تُصدِّق تلك القِصَص العتيقة كلّها؟»

فقال جانيكَماً: «أقول لك إنّنا، نحن الحيوانات، لا نتغيّر. فنحن لا ننسى. وأنا أُومِن بالملك الأعلى بطرس وبالآخرين الذين ملكوا في كيربرافيل مثلَ إيماني الثابت بأصلان نفسه».

وقال طرمبكن: «وأنا أيضاً أجرؤ على القول بمثل ذلك الثبات حتماً! ولكنْ مَن يؤمن بأصلانَ في هذه الأيام؟»

فقال كاسبيان: «أنا أُومِن! ولو لم أكُن قد آمنتُ به من قبل، لآمنتُ الآن. فبين الآدميّين هُناك، كان الذين يضحكون على أصلان، يضحكون أيضاً على القِصَص عن الدببة الناطقة والأقزام. وقد تساءلت أحياناً بالفعل عن وجود شخص مثل أصلان، ولكنّني كنتُ أتساءل في ما بعد أحياناً عن وجود قومٍ مثلكم حقّاً. ومع ذلك، فها أنتم هُنا!»

وقال جانيكَماً: «هذا صحيح! أنت على حقّ، أيُّها الملك كاسبيان. وما دُمتَ مُخلصاً لنارنيا القديمة فأنت مَلِكي أنا، مهما قال هذان وغيرهما. عشتَ طويلاً يا جلالة الملك!»

فدمدم نيكابْريك: «إنّني أشمئزّ منك، يا غُرير! ربّما كان الملك الأعلى بطرس والآخرون آدميّين، ولكنّهم كانوا آدميّين من نوع آخر. أمّا هذا، فواحدٌ من التلماريّين الأشقياء. وقد تصيّد حيواناتٍ على سبيل التسلية». ثمّ أضاف مُلتفِتاً فجأةً إلى كاسبيان: «قُل لي: ألم تفعل ذلك؟»

فقال كاسبيان: «بلى، فعلتُ ذلك حقّاً. ولكنّها لم تكن حيوانات ناطقة».

أجاب نيكابْريك: «هذه مثل تلك تماماً!»

فقال جانيكَماً: «لا، لا، لا! أنت تعرف أنّ هذه ليست مثل تلك. فأنت تعلم جيّداً أنّ حيوانات نارنيا اليوم مختلفةٌ عمّا مضى، وأنّها لا تزيد في شيء عن المخلوقات الخرساء المسكينة غير العاقلة التي تجدها في كالورمن أو تِلمار. وهي أصغر حجماً أيضاً. إنّها تختلف عنا أكثر بكثير ممّا يختلف أنصاف الأقزام عنكما».

ثمّ جرى مزيدٌ من المحادثة، ولكنّ الحديث انتهى كلّه بالاتّفاق على أن يبقى كاسبيان هناك، بل أيضاً بالوعد بأنّه حالما يتمكّن من الخروج سيؤخذ لرؤية «الآخرين» كما دعاهم طرمبكن. إذ يظهر أنّ مخلوقات مختلفة الأنواع من حيوانات أيام نارنيا القديمة ما تزال تعيش في المخابىء في تلك البراري.

أهلُ المخابئ

بدأتِ الآن أسعدُ الأيّام التي عاشها كاسپيان. ففي صباحٍ صيفيٍّ صافٍ، والندى على العُشب، انطلق مع الغُرَيْر والقزمَين، فاجتازوا الغابة صعوداً إلى هضبة عالية بين الجبال، ثمّ انحدروا على سفوحها الجنوبيّة حيث يستطيع المرء أن يلمح في البعيد أجزاءً خضراء من بلاد آرخيا.

وقال طرمپكن: «سنذهب أوّلاً إلى الدببة السّمان الثلاثة».

ثمّ عبروا أرضاً مكشوفة حتّى وصلوا إلى سنديانة عتيقة مجوّفة مغطّاة بالطُحلب. فقرع جانيكما بمخلبه على الجذع ثلاث مرّات، ولم يكن جواب. ثمّ قرع من جديد، فقال صوتُ شبهُ غامض وغير واضح من الداخل: «امضِ من هنا! لم يحِن بعدُ وقتُ النهوض». ولكنْ لمّا قرع ثالثَ مرّة صدرت ضجّةٌ كأنّها هزّةٌ أرضيّةٌ خفيفة من الداخل، وانفتح شِبهُ باب، ثمّ خرج منه ثلاثة دببة بنّيّة سمينة جدّاً طارفةً بعيونها الصغيرة. ولمّا شُرح لها كلّ شيء (وقد استغرق

الشرح وقتاً طويلاً لأنّ النعاس كان مسيطراً عليها)، قالت كما سبق أن قال جانيكما تماماً، إنّ واحداً من بني آدم ينبغي أن يكون مَلِك نارنيا، وقبّلت كلّها كاسپيان قُبلاً رطبةً جدّاً وحارّة الأنفاس، وقدّمت إليه شيئاً من العسل. ولم يحبّ كاسپيان بالحقيقة العسل بلا خُبز وفي ذلك الوقت الباكر من الصباح، غير أنّه اعتبر قبول الدعوة من حُسن الأدب. وبعد ذلك استغرقت إزالة الدبق عن يديه وفمه وقتاً طويلاً.



وعلى أثر ذلك، تابعوا سيرهم حتّى وصلوا إلى ظِلال أشجار زان طويلة، فنادى جانيكما: «دَمدَمان! دَمدَمان! دَمدَمان!» وفي الحال تقريباً، نزل قافزاً من غُصن إلى غصن حتى وصل إلى ما فوقَ رؤوسهم تماماً أروعُ سنجابٍ أحمر رآه كاسپيان على الإطلاق. وقد كان أكبر بكثير من السناجب الخرساء العاديّة التي كان يراها أحياناً في بساتين القصر. بل إنه كان في الواقع بحجم كلبِ صيدٍ صغير تقريباً،

ولحظة تنظر إلى وجهه تعرف أنّه يقدر أن يتكلّم. حتّى إنّ وجه الصعوبة فعلاً كان في إجباره على الكفّ عن الكلام، لأنّه — مثلَ جميع السناجب — كان ثرثاراً. وقد رحّب بكاسبيان وسأله هل يحبُّ أن يأكل جوزة، فشكره كاسبيان مُجيباً بالإيجاب. ولكنْ إذ مضى دَمدَمان قافزاً لإحضار الجوزة، همس جانيكَماً في أُذن كاسبيان: «لا تنظر إليه، بلِ التفتْ إلى الناحية الأُخرى. فمن سوء الأدب بين السناجب أن تُراقِب واحداً منها وهو مُتوجِّه إلى مخزنه، أو أن تظهر كأنّك تريد أن تعرف موقعه». ثمّ رجع دَمدَمان حاملاً الجوزة، فأكلها كاسبيان. وبعد ذلك عرض عليهم دَمدَمان أن ينقل أيّة رسائل يريدها إلى أصدقاء آخرين، مُضيفاً: «لأنّي أقدر أن أذهب تقريباً إلى أيّ مكان دون أن أضع قدماً على الأرض». فأعجبت الفكرة جانيكَماً والقزمَين كثيراً، فحمّلوا دَمدَمان رسائلَ إلى أشخاصٍ من كلّ نوع ذوي أسماءٍ غريبة، طالبين منهم جميعاً أن يُوافوهم إلى وليمةٍ واجتماع مُشاورة في مَرجة الرَّقص عند منتصف الليل بعد ثلاث ليالٍ. وأضاف طرمبكِن: «ومن الخير أن تُخبر الدببَة السِّمان الثلاثة أيضاً. فقد نَسِينا أن نُطلِعَهم على الأمر».

وكانت زيارتُهم التالية إلى الإخوة السبعة في الغابة الرعّادة. ثمّ تقدّمهم جانيكَماً في طريق العودة إلى الهضبة، ثمّ نزولاً نحو الجنوب على المُتحَدر الشماليّ من الجبال، حتّى وصلوا إلى مكان مَهيب جدّاً بين الصخور وأشجار التَّنُّوب. فمشَوا بكلّ هدوء، واستطاع كاسبيان حالاً أن يحسّ الأرض تهتزّ تحت قدميه وكأنّ أحداً يضرب بالمطارق في باطنها. وتقدّم طرمبكِن نحو حجر مُفلطَح بحجم غِطاء برميلِ ماءٍ تقريباً، ثمّ ضربه بباطن قَدَمِه. وبعد وقفةٍ طويلة، أزاح الحجرَ شخصٌ أو شيءٌ تحتَه، فبدا ثقبٌ مُعتِم مُدوَّر يخرج منه مقدارٌ لا بأسَ به من الحرارة والبخار، وبرز وسط الثقب رأس قزم شبيه جدّاً بطرَمبكِن نفسه. وجرى حديث طويل، إذ بدا أنّ القزم كان أكثر ارتياباً من السنجاب أو الدببَة السِّمان. ولكنْ في النهاية دُعِيَتِ المجموعة كلُّها إلى النزول. فوجد كاسبيان نفسه هابطاً على دَرَجٍ مُظلِم إلى جوف الأرض، ولكنْ لمّا وصل إلى الأسفل رأى ضوءَ نار، وقد كان صادراً مِن فُرن. وكان المكان كلّه محلّ حدادة، تجري إلى جانبٍ من جوانبه ساقيةٌ تحتَ الأرض. وقد كان قزَمانِ يشتغلان بالمنفاخ، وآخرُ يمسك بملقطٍ قطعةَ معدن متوهّجة بالحرارة على سندان، ورابعٌ يضربها بالمطرقة، واثنان يتقدّمان لاستقبال الضيوف وهما يمسحان أيديهما الصغيرة الخشنة بقطعة قماشٍ مشحَّمة. وقد استغرق إقناعُ الأقزام بأنّ كاسبيان صديقٌ لا عدوٌّ وقتاً لابأس به. ولكنْ لمّا اقتنعوا، هتفوا

جميعاً: «عاش الملك!» وقدَّموا إلى الضيوف هدايا شريفةً حقاً: دروع زَرَد وخُوَذاً وسيوفاً لكاسپيان وطرمبكن ونيكابريك. وكان في وسع الغُرَير جانيكما أن يحصل على مثل ذلك لو أراد، ولكنَّه قال إنَّه حيوانٌ بَرِّيٌّ وإنْ كانت مخالبه وأنيابه لا تستطيع أن تحميَه فلا ضرورة لها. وقد كانت صنعة الأسلحة تلك أدقَّ بكثير من أيِّ شيء سبق أن رآه كاسپيان، فقبل بسرورٍ السيف الذي صنعه الأقزام بدلاً من سيفه الذي بدا، مقارنةً به، واهياً كلُعبة وخشناً كعصا. ثمَّ وعد الإخوةُ السبعة (وقد كانوا كلُّهم أقزاماً حُمراً) بأن يذهبوا إلى الوليمة على مَرجة الرَّقص.

وعلى بُعدٍ قليلٍ من هناك، في وادٍ صغيرٍ صخريٍّ جافّ، وصلوا إلى كهف الأقزام السُّود الخمسة. ونظر هؤلاء بارتياب إلى كاسپيان، ولكنَّ كبيرهم قال أخيراً: «إن كان ضدَّ ميراز، فنحن نقبله مَلكاً علينا». وقال تالي أكبرهم: «هل تصعد لأجلك إلى أعلى الجُرف؟ فهُناك غُولٌ أو غُولان وجنّية نحبُّ أن تُعرِّفهم بك؟»

فأجاب كاسپيان: «حتماً لا!»

وقال جانيكما: «ولا بدَّ لي أن أقول لا بالفعل. فنحن لا نريد أن يكون في صفوفنا أيٌّ من تلك الكائنات». ولم يوافِق نيكابريك على ذلك، ولكنَّ رأي طرمبكن والغُرَير غلب رأيه. وقد سرت رعدة في أوصال كاسپيان إذ أدرك أنَّ المخلوقات المُخيفة المذكورة في القصص القديمة، مثلها مثل المخلوقات الطيِّبة، ما يزال لها في نارْنيا بعضُ الحفدة.

وإذ خرجوا من كهف الأقزام السود، قال جانيكَما: «لَن يكون أصلان صديقاً لنا إذا ضمَمنا إلينا أولئك الأَوباش».

فقال طرمبكن بمَرَح لكنْ بازدراء: «أُوه، أصلان! ما يهمُّ أكثر بكثير أنَّني أنا لن أكون صديقاً لكم».

وسأل كاسپيان نيكابريك: «وهل تؤمن أنت بأصلان؟»

فقال نيكابريك: «سأؤمن بأيِّ شخصٍ أو بأيِّ شيء يسحق هؤلاء التلماريِّين الأجنبيِّين الأشقياء سحقةً قاضية أو يطردهم من نارْنيا. بأيِّ شخص أو بأيِّ شيء، بأصلان أو بالساحرة البيضاء، هل تفهم؟»

وقال جانيكَما: «سكوتاً، سكوتاً! لستَ تدري ما تقوله. فهذه كانت عدوةً أسوأ من ميراز وبني قومه أجمعين».

فقال نيكابريك: «ليس بالنسبة إلى الأقزام، فهي لم تكن عدوةً لهم».

ثمَّ كانت زيارتهم التالية ألطف وأظرف. فإذ هبطوا أكثر، انشقَّت الجبال عن وادٍ عظيم، أو مُنبسَط كثير الشجر، يجري في أسفله نهرٌ سريع. وكانت المساحات المكشوفة قرب حافة النهر أجَماتٍ* من قُفّاز الثعلب** الأُرجوانيّ

* الأجمة: دغلٌ من الشجر الكثيف القصير.

** قفاز الثعلب: نبات يوجد في أوروبا له عنقود طويل من الأزهار الكبيرة الأرجوانية أنبوبية الشكل.

الزَّهر والورد البَرّيّ، وطنينُ النحل يُسمَع في الهواء. عندئذٍ نادى جانيكَماً أيضاً: «عَصفُلواد! عَصفُلواد!» وبعد هُنيهةٍ سمع كاسپيان وقْعَ حوافرَ أخذ يعلو حتّى اهتزّ الوادي. وفي الأخير لاحت للعِيان أشرفُ مخلوقاتٍ رآها كاسپيان، مكسِّرةُ الأجماتِ ودائسةٌ لها: القنطور العظيم عَصفُلواد وأبناؤه الثلاثة. وقد كان جَنباه بلونٍ كستنائيٍّ لمّاع، واللحية التي غطَّت صدره العريض حمراء ذهبيّة. وإذ كان نبيّاً ومنجّماً، عرف سبب مجيئهم إليه، فهتف:

«عاش الملك! أنا وأبنائي مستعدّون للحرب. متى نخوض المعركة؟»

حتّى ذلك الحين، لم يكن كاسپيان ولا الآخرون قد فكّروا في الحرب فعلاً. ربّما كانت لهم فكرةٌ غامضة عن غارة من حينٍ إلى آخر على مزرعة للآدميّين، أو عن مهاجمة لجماعة من الصيّادين إذا توغّلت في قلب هذه البراري الجنوبيّة. ولكنّهم على العموم كانوا قد فكّروا فقط في قضاء حياتهم في الغابات والكهوف، وفي حشد قواهم لإحياء نارنيا القديمة في الخفاء. فما إن تكلّم عَصفُلواد، حتّى لمس الجميع جِدّيّةَ الموقف المتزايدة.

وسأل كاسپيان: «هل تقصد حرباً حقيقيّة لطرد ميراز من نارنيا؟»

فقال القنطور: «وماذا غير ذلك؟ وإلّا فلماذا تجول جلالتك لابساً درع الزَّرَد ومُعلِّقاً السيف بجانبك؟»

وسأل الغُرَير: «أذلك مُمكِن، يا عصفُلواد؟»

فأجاب عصفُلواد: «الوقتُ مؤاتٍ! فأنا أرصُد الفلك، يا غُرَير، لأنّ الرصد عملي كما أنّ التذكُّر عملك. لقد اقترن طَرْفة وأَلْمبيل في منازل السماء العليا، وعلى الأرض قام ابنٌ لآدم من جديد كي يسود المخلوقات ويُسمّيها. لقد دقّتِ الساعة! فاجتماع المشاورة الذي سنعقده على مرجة الرقص يجب أن يكون جلسة حرب». وكان يتكلّم بصوتٍ جعل كاسپيان والآخرين لا يتردّدون لحظة واحدة: فقد بدا لهم الآن ممكناً تماماً أن يكسبوا حرباً، وأنه يجب فعلاً أن يشنّوا حرباً.

ولمّا كان النهار قد جاوز الظُّهر، استراحوا مع القنطورات، وتناولوا من الطعام ما قدّمه لهم هؤلاء: كعكاً من دقيق الشوفان وتُفّاحاً وبُقولاً ونبيذاً وجبناً.

أمّا المكان التالي الذي كان عليهم أن يزوروه، فقد كان قريباً جداً. ولكنّهم اضطُرّوا لأنْ يدوروا دورة طويلة تجنُّباً لمنطقة كان يسكنها بعض الآدميّين. وكان العصر قد بدأ قبل أن يجدوا أنفسهم في حقولٍ مستوية دافئة بين السياجات الشجريّة. وهنالك نادى جانيكَماً عند فوّهةِ حفرة صغيرة في تلّة خضراء، فبرز آخِرُ شيء توقّعه كاسپيان: فأرٌ ناطق. وقد كان بالطبع أكبر من الفئران العاديّة، إذ ناهز طوله ثُلثَ مِتر وهو واقف على قائمتَيه الخلفيّتين، وله أُذنان بطول أُذني الأرنب تقريباً (وإن كان أعرض منهما). وكان اسمه ريبيتشيب، كما كان فأراً مَرِحاً وشُجاعاً. وقد تدلّى من خصره سيفٌ مُستقيم صغير ذو

حذّين، وفتل شاربيه الطويلين كما لو كانا شاربَي رجُل. وحالاً قال، وهو ينحني انحناءةً أنيقة ولطيفة: «هناك اثنا عشر منّا، يا مولاي. وأنا أضع جميع موارد قومي بلا تحفّظ تحت تصرُّف جلالتك».

حاول كاسبيان جاهداً ألّا يضحك (ونجحت محاولته)، إلّا أنّه لم يستطع منع نفسه من التفكير بأنّ ريبيتشيب وجميع قومه يُمكن أن يوضعوا بسهولة تامّة في سلّ غسيل يحمله المرء إلى بيته على ظهره.



ويطول بنا الوقت كثيراً إن شئنا أن نذكر جميع المخلوقات التي قابلها كاسبيان ذلك النهار: جرافطين الخلد، العضّاضين الثلاثة (وكانوا غُرَيرات مثل جانيكَماً)، نَطْناط الأرنب، راميشَوك القُنفُذ. وفي الأخير قعدوا يستريحون بقرب بئرٍ عند طَرَف دائرة مستوية من العُشب، تحفُّ بها أشجار

دردار* باسقة ترامت ظلالُها الطويلةُ عندئذٍ فوق تلك المرجة، إذ كانت الشمس تغيب وزهر المرغريت ينطبق وغربان القَيظ تطير راجعةً لتبيتَ في مأويها. وهناك تعشّوا ما كانوا قد أحضروه معهم من الطعام، ثُمّ أشعل طرمبكن غليونه (أمّا نيكابريك فلم يكن مدخّناً).

وقال الغُرَير: «والآن، حبّذا لو نقدر أن نُوقظ أرواح هذه الأشجار وهذه البئر، فنكونَ قد أنجزنا عملَ يومٍ جيّداً».

فسأل كاسبيان: «ألا نقدر؟»

وأجاب جانيكَماً: «لا! فليس لنا سُلطة عليها. ومنذ أتى الآدميّون إلى هذا البلد، فقطّعوا الشجر ولوّثوا الأنهار، وقع على حوريّات الماء وحوريّات الغاب سُباتٌ عميق. فمَن يدري إن كُنّ سيَقُمن من جديد؟ وهذه خسارة جسيمة لجماعتنا. فالتِلماريّون مُرتَعِبون جدّاً من الغابات، وحالما تتحرّك الأشجار غضباً، يفقد أعداؤنا عقولهم من الذُعر ويفرّون من نارنا بأسرع ما يمكن أن تحملهم أقدامهم».

فقال طرمبكن، وكان لا يُصدّق مثل هذه الأمور: «ما أغربَ تخيُّلاتكم أنتم الحيوانات! إنّما لماذا تتوقّف عند الأشجار و المياه؟ أفلا يكون أحسنَ بعدُ لو بدأت الحجارة تَرجم ميراز العجوز من تلقاء ذاتها؟»

* الدردار: شجرة زينة تشبه الزيتون. زهرها أصفر وورقها شائك، وثمرها كقرون الدفلى.

أمّا الغُرَير فشخر ونخر فقط عندما سمع ذلك. وبعدئذٍ خيّم صمتٌ كثير حتّى كاد النعاس يغلب كاسپيان فينام، وإذا به يحسب أنّه سمع صوت موسيقى خافتاً منبعثاً من قلب الغابات وراء ظهره. ثمّ حسِبَ أنّ ذلك كان مجرّد حلم فدارَ من جديد، ولكنْ ما إن مسّتْ أذنُه الأرض حتّى أحسّ أو سمع (يصعب تحديدُ أيٍّ من هذَين) نَقراً أو قرعاً خفيفاً. فرفع رأسه، وفي الحال خفت صوتُ القرع، ولكنّ الموسيقى عادت من جديد، بصوت أعلى هذه المرّة، وكانت تشبه عزف النايات. ورأى جانيكَماً يجلس ويحدّق إلى قلب الغابة. كان القمر مشرقاً، وقد نام كاسپيان أطولَ ممّا حَسِب. ثمّ أخذت الموسيقى تقترب أكثر فأكثر بألحانٍ جامحة لكنْ حالمة، وسُمِع وقع أقدام رشيقة كثيرة، حتّى برزت من الغابة إلى ضوء القمر أخيراً أشكالٌ راقصة كالّتي ما انفكّ كاسپيان يفكّر فيها طوال حياته. لم يكن أولئك أطول بكثير من الأقزام، ولكنْ أنحف بكثير جدّاً وأجمل. وكان في رؤوسهم ذات الشعر الجَعْد قرونٌ صغيرة، وقد بَرَقت الأجزاء العُليا من أجسامهم مجرّدةً تحت الضوء الباهت، أمّا أرجلهم وأقدامهم فكانت قوائمَ مِعزى.

فهتف كاسپيان: «فُونات!» وهو يهبُّ واقفاً؛ وبعد لحظةٍ صاروا حوالَيه. ولم يكَدْ شرح الوضع كلّه لهم يستغرقُ أيَّ وقت، فرحّبوا بكاسپيان حالاً. وقبل أن يدري ما هو فاعل، وجد نفسه ينضمُّ إليهم في رقصهم. وحذا طرمبكن



حذوَه، بنقلاتٍ أثقل وأنشط؛ بل إنّ جانيكماً أيضاً أخذ يقفز على قدمٍ واحدة ويدور بتثاقُل كأفضلِ ما يستطيع. غير أنّ نيكابْريك وحده ظلّ حيث كان، مراقباً ما يجري وهو صامت. وقد أخذ الفُونات يخبطون الأرض بأقدامهم حول كاسپيان خبطاً متناغماً مع مزاميرهم القصبيّة، تحدّق إلى وجهه وجوهُهم الغريبة التي بدت حزينة وفَرِحة في آنٍ واحد. وكانوا عشَراتٍ من الفُونات، بينهم مَنتيوس وأوبنتينوس ودَمنوس وڤولنّص وڤولتينوس وجربيوس ونِمْبينوس وناوزُص وأُصكَنز، وقد أرسلهم دَمدَمان كلَّهم.

ولمّا استيقظ كاسپيان في صباح الغد، لم يكَد يُصدّق أن ذلك كلّه لم يكُن حلماً. ولكنّ العشب كانت تُغطّيه آثارُ الأظلاف المشقوقة الكثيرة!

الفصل السابع

نارنيا القديمة تحت الخطر

كان المكان الذي التقى الفونات فيه هو مرجة الرَّقص بعينها طبعاً. وهناك بقي كاسپيان وأصدقاؤه حتّى ليلة المُشاورة الكُبرى. وقد كان النومُ تحت النجوم وشربُ مياه الآبار فقط، والاقتيات بشكلٍ أساسيٍّ بالجوز والفاكهة البرِّيَّة، اختباراً غريباً لكاسپيان بعد سريره المفروش بشراشف الحرير في غرفته المزيَّنة باللَّوحات المطرَّزة في القصر، والوجبات المقدَّمة في أطباق الذهب والفضَّة في غرفة السُّفرة الكبيرة، والخدّام المتأهّبين لتنفيذ أوامره. غير أنّه استمتع بعيشته الجديدة كما لم يستمتع في حياته قطّ. فما كان النوم قبلاً أكثرَ إنعاشاً، ولا كان الطعام أطيبَ مذاقاً، وها هو قد بدأ يصير أصلَب عُوداً وقدِ ارتسمت على وجهه ملامحُ يغلب عليها جلالٌ ملوكيٌّ بالغ.

ولمّا أتت الليلة العظيمة، وأخذ سائرُ رعاياه الغريبي الأشكال يتسلّلون إلى المرجة واحداً واحداً، أو اثنين اثنين، أو ثلاثةً ثلاثة، أوستّةً ستّة، أوسبعةً سبعة – وكان القمر مشرقاً كما لو أنّه يكاد أن يكون بدراً – غمر السرورُ

قلبَه إذ رأى أعدادهم وسمع تحيّاتهم. وقد حضر إلى هناك جميعُ الذين سبق أن قابلهم: الدببة السّمان والأقزام الحُمر والأقزام السود، وحيوانات الغُرَير والخُلد، والأرانب والقنافذ، وآخرون لم يسبق أن رآهم: خمسةُ ساطيرات حُمر كالثعالب، وفرقةُ الفئران الناطقة كلّها، مُسلّحةً بالكامل وزاحفةً على وقْع صوت بوقٍ حادّ، وبعضُ طيور البوم، والغُرابُ الأسود شيخُ الغربان. وآخِرَ الكلّ (الأمرُ الذي أذهل كاسپيان جدّاً) جاء مع القنطورات ماردٌ صغير لكنْ أصيل، هو تقاپْريح من هَضَبة المَيْت، حاملاً على ظهره ملءَ سلٍّ من الأقزام شبه الدائخين الذين قبلوا عرضه بحملهم قليلاً، وقد باتوا الآن يتمنَّون لو جاؤوا ماشين على أقدامهم بدلاً من ذلك.

وكان الدببة السّمان متشوّقين لإقامة الوليمة أوّلاً وتأجيل المُشاورة إلى وقتٍ لاحق؛ ربّما إلى الغد. ولكنْ ريبيتشيب وفئرانه قالوا إنّ المشاورات والولائم يُمكن أن تؤجَّل جميعاً، واقترحوا شنَّ هجوم مفاجىء على ميراز في قصره تلك الليلةَ بالذات. وقال دَمدَمان وباقي السناجب إنّهم يقدرون أن يتحدّثوا ويأكلوا معاً في وقتٍ واحد، وعليه فلماذا لا تُقام الوليمة وتُعقَد المُشاورة في الحال؟ أمّا حيوانات الخُلد فاقترحت حفر خنادق حول المرجة قبل القيام بأيّ شيء آخر. وارتأى الفُونات أنّه يكون أفضل لو بدأوا برقصةٍ جليلة. أمّا الغُراب الشّيخ، مع موافقته للدببة على أنّ عقد جلسة مُشاورة كاملة سيستغرق وقتاً يطول

كثيراً قبل العشاء، فقد ترجّى أن يُسمَح له بإلقاء خطبة قصيرة على الجماعة كلّها. ولكنّ كاسبيان والقنطورات والأقزام استبعدوا تلك الاقتراحات كلّها وأصرّوا على عقد جلسة مُشاورة بشأن الحرب في الحال.

ولمّا تمّ إقناع جميع المخلوقات الأخرى بأن يقعدوا ساكتين في حلقة كبيرة، ثمّ تمكّنوا (بصعوبة أكبر) من كفّ دَمدمان عن الركض ذهاباً وإياباً والقول: «سكوتاً! سكوتاً كلّكم، لسماع خطابِ الملك!» وقف كاسبيان، وهو يشعر بشيءٍ من التوتّر، وبدأ يقول: «يا أهل نارنيا!..». إلّا أنّه لم يزد على ذلك كلمةً واحدة، إذ في تلك اللحظة عينها قال نَطناط الأرنب: «اشْش! هناك إنسان على مقربةٍ منّا!»

كان أولئك جميعاً من المخلوقات البريّة المعتادة أن تُصطاد، ولكنّهم سكتوا وصمتوا كأنّهم تماثيل. وأدارتِ الحيواناتُ كلّها أنوفَها نحو الجهة التي أشار إليها نطناط.

ثمّ قال جانيكماً: «إنّها رائحة إنسان، ولكنّها ليست رائحة إنسانٍ تماماً».

وقال نَطناط: «إنّه يقترب أكثر فأكثر».

فقال كاسبيان: «ليذهَبْ غُرَيران — وأنتم أيّها الأقزام الثلاثة وأقواسُكم في وضع التأهّب — اذهبوا إلى لقائه مُسرِعين!»

وقال قزمٌ أسود مُكشّراً: «سنقضي عليه!» وهو يُثبّت سهماً على وَترِ قوسه.



إلّا أنّ كاسبيان قال: «لا ترموه بالسهم إذا كان وحده، بل اقبضوا عليه!»

فسأل القزم: «لماذا؟»

وقال عَصفَلواد: «افعلوا كما أُمِرتُم!»

ثمّ انتظر الجميع صامتين فيما انطلق الأقزام الثلاثة

والغُرَيرانِ مُتسلّلين بسرعة إلى وسط الأشجار على الجانب الشماليّ الغربيّ من المرجة. وبعد لحظاتٍ سُمِعت صيحةُ قزمٍ حادّةٌ: «قف! مَن هُناك؟» تَلَتها قفزةٌ مفاجئة. ثمّ بعد هُنيهة، أمكن سماعُ صوتٍ – يعرفه كاسپيان جيّداً – يقول: «طيّب! طيّب! لستُ مُسلَّحاً. قيِّدا مِعصمَيّ، أيُّها الغُرَيرانِ الفاضلان، إذا شئتما، ولكنْ لا تعضّاني فيهما. أُريد أن أُكلّم الملك».

فهتف كاسپيان فَرِحاً: «الدكتور كُرنيليوس!» واندفع إلى الأمام للترحيب بمؤدِّبه القديم، فيما احتشد الجميع حولهما.

وقال نيكابْريك: «هَه! قزمٌ مُرتدّ، هَجين! هل أطعنُ حنجرته بسيفي؟»

فقال طرمبكِن: «هدوءاً يا نِيكابريك! ليس للمخلوق يدٌ في اختيار أجداده».

وقال كاسپيان: «هذا أعظم صديقٍ لي، وهو مُنقِذ حياتي. فكلُّ مَن لا تُعجبُه رفقتُه يمكنه أن يُغادر جيشي فوراً. أيُّها الدكتور الأعزّ، إنّني مسرور برؤيتك من جديد. كيف عرفتَ مكاننا؟»

فقال الدكتور: «باستعمال قليلٍ من السحر البسيط، يا صاحب الجلالة»، وهو ما زال يلهث وينفث بسبب إسراعه في المشي. وأضاف: «ولكنْ لا وقت للتفصيل الآن. علينا جميعاً أن نهربَ من هذا المكان حالاً. لقد حصلَت خيانةٌ لكم فعلاً، وميراز الآن زاحفٌ عليكم.

وقبل ظُهر غدٍ يضرب حصاراً عليكم».

فقال كاسپيان: «أخيانة؟ ومِن قِبَل مَن؟»

وقال نيكابريك: «من قِبَل قزمٍ آخرَ مُرتدّ، بلا شكّ!»

لكنّ الدكتور كُرنيليوس قال: «مِن قِبَل حصانك دَوّاس! فالحيوان المسكين لم يعرفْ أفضل من ذلك. فعندما وقعْتَ عن ظهره طبعاً، عاد مُتوانياً إلى إسطبله في القصر. وعندئذٍ ذاع سرُّ فرارِك، فابتعدتُ من الطريق، إذ لم آمَنْ أنْ يجريَ استجوابي عن الأمر في غرفة التعذيب عند ميراز. وقد حزرتُ جيّداً من استعمال بِلّورتي السحرية أين أجِدُك. ولكنّني طول النهار، يومَ أمسِ الأوّل، شاهدتُ فِرَقَ المُطاردة التي بعث بها ميراز تجوب الغابات. وأمسِ علمتُ أنّ جيشه قد بدأ الزحف. ولستُ أظنُّ أنّ لدى بعضٍ منكم —أحُم! — أنتم الأقزامَ الخالِصي النسب، كثيراً من البراعة في التنقُّل بين الغابات والعمل فيها كما قد يتوقّع المرء. فقد تركتم آثار أقدام في كل مكان. وهذا إهمالٌ شديد! على كلّ حال، لقد نبّه شيءٌ ما ميراز إلى أنّ نارنيا القديمة لم تمُت كما كان يرجو، وها هو يتقدّم الآن».

وإذا بصوتٍ حادٍّ جدّاً وخافت يقولُ من مكانٍ ما عند قدمَي الدكتور: «مرحى! فليأتوا! وكلُّ ما أطلبُه هو أن يضعني الملك مع بني قومي في المقدِّمة».

فقال الدكتور كُرنيليوس: «تُرى، أعندكَ في جيشك، يا صاحب الجلالة، جَنادِبُ أو بعوض؟» وبعدما انحنى

وحدّق جيّداً من خلال نظّارته، انفجر ضاحكاً، وقال:

«بحَقِّ الأسد! إنّه فأر. أيّها السيّدُ فأر، يسرُّني التعرّفُ بك أكثر. وقد تشرّفتُ بمقابلة حيوانٍ شجاعٍ مثلك».

فردَّ ريبيتشيب بصوته الحادّ: «تُمنَح صداقتي أيّها الإنسان المُثقَّف. وأيُّ قزم — أو مارد — في الجيش لا يتأدّب في مكالمتك سيكون له حسابٌ مع سيفي».

وسأل نيكابريك: «لا يتّسع الوقت لهذه الحماقة؟ ما هي خُطَطُنا؟ القتال أم الفرار؟»

فقال طرمبكن: «القتالُ إذا دعت الحاجة. ولكنّنا غير مستعدّين له تقريباً بعد، ويصعُب الدفاعُ عن هذا المكان».

وقال كاسبيان: «تعجبني فكرةُ الهرب!»

فقال الدببةُ السّمان: «اسمعُوا له. اسمعُوا له! مهما فعلْنا، فلا نُفكّرنّ بالرّكض الآن! وخصوصاً، ليس قبل العشاء، ولا بعده بوقتٍ قصير».

وقال القنطور: «الذين يركضون أوّلاً لا يركضون دائماً أخيراً! ولماذا تدَع العدوَّ يختار موقعنا بدلاً من اختياره بأنفسنا؟ فلنبحث عن موقعٍ قويّ!»

فعلّق جانيكَماً: «كلامُ حكمة، يا صاحبَ الجلالة، كلام حكمة!»

وسألت بضعة أصوات: «لكنْ إلى أين نذهب؟»

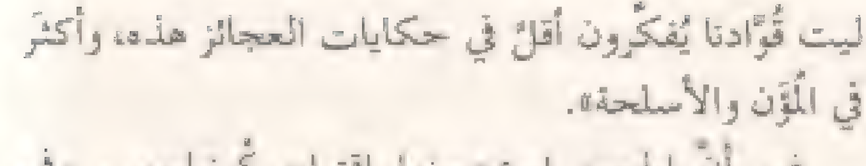
ثمّ قال الدكتور كُرنيليوس: «يا صاحبَ الجلالة، ويا جميع المخلوقات هُنا، أعتقد أنّه يجب علينا أن

نهرب شرقاً إلى الغابات الكبيرة نزولاً على ضفّة النهر. فالتلماريّون يكرهون تلك المنطقة. ولطالما كانوا يخافون من البحر ومن أيّ شيء قد يأتي فوق البحر. لذلك تركوا الغابات الكبيرة تطلع. وإن صدقت أخبارُ الأقدمين، فإنّ قصر كَيرپرافيل العتيق كان عند مصبّ النهر. وهذا كلّه محبوبٌ عندنا وبغيضٌ عند أعدائنا. ينبغي أن نذهب إلى حصن أصلان».

فسألت بضعة أصوات: «حصن أصلان؟ لسنا نعرف ما هو».

فأجاب الدكتور: «إنّه يقع في ضواحي الغابات الكبيرة، وهو معقل ضخم أقامه أهل نارنيا في قديم الزمان على موقع سحريٍّ للغاية، حيث كان قائماً — وربّما ما يزال — حجرٌ سحريٌّ جدّاً. والحصن كلّه رابيةٌ مجوّفة من الداخل في دهاليزَ وكهوف. أمّا الحجر ففي الكهف المركزيّ. وعلى التلة مكانٌ لمؤونتنا كلّها، كما أنّ الذين منّا يحتاجون إلى المخابىء حاجةً ماسّة، وقد تعوّدوا الحياة تحت الأرض أكثر من سواهم، يستطيعون الإقامة في الكهوف. أمّا الباقون منّا، فيمكنهم أن يكمنوا في الغابة. وعند الاضطرار، نستطيع جميعاً (ما عدا هذا المارد الفاضل) أن ننسحب إلى التلة ذاتها، حيث ينبغي أن نكون في مأمن من أيّ خطر، ما عدا الجوع».

وقال جانيكَماً: «من الخير أن يكون بيننا شخصٌ مُثقّف». إلّا أنّ طرَمبكن تمتم هامساً: «حديثُ خُرافة! يا



ليت قُوّادنا يُفكِّرون أقلَّ في حكايات العجائز هذه، وأكثرَ في المُؤَن والأسلحة».

غير أنَّ الجميع استحسنوا اقتراح كُرنيليوس. وفي تلك الليلة ذاتها، بعد نصف ساعة، كانوا قد انطلقوا في مسيرتهم. وقبل شروق الشمس، وصلوا إلى حِصن أصلان.

كان ذلك مكاناً باعثاً للرهبة بلا شكّ: رابية مُدوَّرة خضراء فوق رابية أُخرى، تُظلِّلها الأشجار الكثيفة من زمانٍ قديم، ولها مدخل واحدٌ صغير منخفض يؤدّي إلى داخلها. أمّا الأنفاق في الداخل فتُشكِّل متاهة هائلة إلى أن تتعرَّف بها، وقد كانت مرصوفة ومسقوفة بالحجارة الملساء. على تلك الحجارة، إذ حدَّق كاسپيان في ضوء الفجر، رأى حروفاً غريبة وأشكالاً متعرِّجة ورُسوماً يظهر فيها شكل أسد مراراً وتكراراً. وقد بدا ذلك كلّه مُنتمياً إلى نارنيا أقدمِ عهداً من نارنيا التي حدَّثته مربِّيته عنها.

وبعدما دخلوا كلُّهم الحصن وانتشروا في داخله، بدأ الحظُّ ينقلب عليهم. إذ إنَّ كشّافة الملك ميراز سرعان ما عثروا على مخبإهم الجديد، فوصل هو وجيشه إلى طرف الغابات. ومثلما يحدث غالباً، تبيَّن أن الأعداء أقوى ممّا حسبوا! فانخلع قلب كاسپيان فيما شاهد جماعةً تصل وراء أخرى. ومع أنَّ رجال ميراز ربّما كانوا يخافون من التوغُّل في الغابة، لكنّهم كانوا يخافون ميرازَ أكثر ، وإذ



تولّى هو القيادة شنُّوا القتال حتّى أعماق الغابة، وكادوا يصلون أحياناً إلى الحصن بعينه. وبالطبع أنجز كاسپيان وقادةٌ آخرون مآثِرَ عديدة في قلب الغابات والأراضي البُور. وهكذا جرى قتالٌ في معظم الأيّام نهاراً، وليلاً بعضَ الأحيان أيضاً. ولكنَّ جماعة كاسپيان عموماً نالتِ النصيب الأسوأ.

وأخيراً حلَّت ليلةٌ ساء فيها كلُّ شيءٍ على أردإ ما يكون. أمّا المطر الذي كان ينهمر بغزارة طوال النهار، فقد توقَّف عند هبوط الليل فقط ليُخليَ الساحة للبرد القارس. وكان كاسپيان في صباح ذلك اليوم قد أعدَّ أكبر معركة له حتّى ذلك الحين، وعلَّق الجميع آمالهم عليها. وكان مُقرَّراً أن ينقضَّ هو ومُعظم أقزامه على جناح الملك الأيمن عند

طلوع الفجر، حتّى إذا حميت المعركة كان ينبغي للمارد ثقابْريح، مع القنطورات وبعضٍ من أشرس الحيوانات، أن يهجموا من مكانٍ آخر ويُحاولوا عزل مَيمنة الملك عن باقي جيشه. ولكنّ الخُطّة كلّها فشلت. فما كان أحدٌ قد نبّه كاسبيان إلى أنّ المَرَدة ليسوا أذكياء أبداً (وذلك لأنْ لا أحد في أيّام نارنيا الأخيرة تلك تذكّر ذلك). وقد كان ثقابْريح المسكين مارداً حقيقيّاً من هذه الناحية، رغم كونه شجاعاً مثل أسد. فإنّه هجم في الوقت غير المناسب ومن المكان غير الصحيح، فعانت فرقتُه وفرقة كاسبيان معاً أسوأ مُعاناة، ولم تُلحِقا بالعدوّ ضرراً يُذكر. وقد أُصيب أفضل الدببة، وجُرح قنطور جراحاً خطرة، وسالت دماءٌ من أغلبيّة فرقة كاسبيان. فكانت الجماعة كئيبةً جدّاً انزوى أفرادها تحت الأشجار المُنقّطة ماءً كي يأكلوا عشاءهم الشحيح.

وقد كان أكثرهم كآبةً المارد ثقابْريح. فإنّه عرف أنّ الغلطة غلطتُه، فقعد صامتاً يذرف دموعاً كبيرة تجمّعت على طرف أنفه ثمّ سقطت مُحدِثةً رذاذاً كثيفاً على مَبيتِ الفئران كلّه، وكان هؤلاء قد بدأوا يشعرون بالدفء والنّعاس. فهبّوا كلّهم واقفين يُنفّضون الماء من آذانهم ويعصرون حراماتهم الصغيرة، وسألوا المارد بأصوات حادّةٍ لكنْ قويّة هل يعتقد أنّه ينقصهم تبليلٌ حتّى فعل ذلك بهم. ثمّ نهض آخرون وقالوا للفئران إنّهم طُوّعوا بصفتهم كشّافة، لا فرقةً موسيقيّة، وسألهم لماذا لا يمكنهم أن يظلّوا

ساكتين. فما كان من ثقابْريح إلّا أن انصرف على رؤوس أصابع قدميه ليجد مكاناً يستطيع فيه أن ينتحب وحدَه دون مقاطعة من أحد، فداس ذيل أحد الحيوانات وعضّه واحدٌ منها (قيل لاحقاً إنّه ثعلب). وهكذا تعكّر مزاج الجميع.

ولكنْ في الغرفة السريّة والسحريّة في قلب الحصن، انعقد اجتماع مُشاورة بين الملك كاسبيان وكرنيليوس والغُرَير ونيكابريك وطرمبكن، حيث دعمت السقفَ أعمدة ثخينة قديمة الصّنعة. وكان في الوسطِ الحجَرُ بذاته: طاولةٌ من حَجَر، مشقوقةٌ من وسطها، ومُغطّاة بما كان في ما مضى كتابةً من نوع ما؛ ولكنّ دهوراً من الرياح والأمطار والثلوج كانت قد أبلتها قديماً لمّا كانت قائمةً على رأس التلّة، ولم تكُن راية الحصن قد أُقيمت فوقها بعد. ولم يكُن المجتمعون يستعملون طاولة الحجر، ولا كانوا جالسين حولها، فقد كانت شيئاً سحريّاً جدّاً بحيثُ لا يجوز استخدامُها لأيّ غرَض عاديّ. ولكنّهم قعدوا على أرومات شجر، بعيدين عن طاولة الحجر قليلاً، وبينَهم منضدة خشبيّة خشنة عليها سراجٌ بدائيٌّ من طين يُلقي

ضوءه على وجوههم الشاحبة ويرمي ظِلالاً كبيرة على الحيطان.

وقال جانيكَما: «إذا أردتَ جلالتُك استخدام البوق مرّةً، فأعتقد أنّ وقت ذلك قد حان الآن». وكان كاسپيان بطبيعة الحال قد أخبرهم عن كنزه ذاك منذ بضعة أيّام.

فأجاب كاسپيان: «لا شكّ أنّنا في ورطة كبيرة. ولكنّ يصعب أن نتأكّد من كوننا في أمسّ الحاجة فعلاً. فلنفترض أنّنا سنواجه وضعاً أشدّ خطورة بعد استعمال البوق فعلاً؟»

وقال نيكابريك: «على أساس هذه الحجّة، فإنّ جلالتك لن تستخدم البوق أبداً حتّى يكون الأوانُ قد فات».

فقال الدكتور كُرنيليوس: «أنا أُوافق على هذا».

وسأل كاسپيان: «وأنت، يا طرمبكن، ما رأيك؟»

فقال القزم الأحمر بعدما كان يصغي بلا مبالاةٍ تماماً: «أُوه! من جهتي، جلالتك تعلم أنّني أعتقد أنّ البوق، وقطعة الحجر تلك المكسورة هناك، وملككم الأعلى بطرس، وأسدَكُم أصلان، هي كلّها أحاديث خُرافة. فسيّان عندي نفختَ في البوق أم لم تنفخ. وكلّ ما أُصِرّ عليه هو ألّا تقول للجيش شيئاً عنه. فلا خير في بعث الآمال بنجدةٍ سحريّة، وهي آمالٌ (كما أعتقد) لا بدّ أن تخيب».

عندئذٍ قال كاسپيان: «إذاً، باسم أصلان ستنفخ في بوق الملكة سوزان».

وقال الدكتور كُرنيليوس: «يا مولاي، هناك أمر واحد ربّما وجب أن نقوم به أوّلاً. إنّنا لا نعرف بأيّ شكلٍ ستكون النجدة. فقد يستدعي البوق أصلان نفسه من وراء البحر. ولكن أعتقد أنه على الأرجح سيستدعي بطرس الملك الأعلى ورفقاءه المقتدرين من الماضي البعيد. إنّما في كِلتا الحالتين، لا أعتقد أنّنا نستطيع التأكّدَ من وصول النجدة إلينا في هذه البقعة بالذات..».

فقاطعه طرمبكن قائلاً: «هذه أصدق كلمة قُلتَها».

وتابع الرجل المُثقّف: «أعتقد أنّه — أو أنّهم — سيرجعون إلى واحدٍ من الأماكن القديمة في نارنيا. فهذا المكان الذي نحن جالسون فيه الآن هو المكان الأقدم والأكثر والأقوى سحراً بين جميع الأمكنة، وأعتقد أنه على الأرجح أن تأتي الاستجابة هنا. ولكنّ هنالك مكانَين آخرَين. أحدُهما خِربة المصباح، فوق النهر إلى الغرب من سدّ السمامير، حيث ظهر الأولاد الملوكيّون أوّلاً في نارنيا، كما تروي سجلّات التاريخ. أمّا الآخر فهو في الأسفل، عند مصبّ النهر، حيث قام قصر كيرپراڤيل قديماً. وإذا جاء أصلان نفسه، يكون ذلك هو أفضل مكان لمقابلته أيضاً، لأنّ القِصصَ كلّها تقول إنّه ابن الإمبراطور العظيم في ما وراء البحر، ومن فوقِ البحر سوف يأتي. فأتمنّى أن تُرسِل مبعوثاً إلى كلٍّ من المكانين: إلى خِربة المصباح وإلى مصبّ النهر، لاستقبالهم، أو لاستقباله، أو لاستقبال أيّة نجدة».

فتمتم طرمبكِن: «تماماً كما ظننتُ! ستكون النتيجة الأولى من هذه الحماقة كُلّها، لا أن تأتينا النجدة، بل أن نفقد اثنين من المقاتِلين».

وقال جانيكماً: «السناجب أفضلُ الجميع لاجتياز أراضي العدوّ دون أن يُقبَض عليها».

فقال نيكابريك: «جميع السناجب عندنا (وليس عندنا كثيرٌ منها) مُتهوِّرة تقريباً. والوحيد الذي أثق به في مهمّة كهذه هو دَمدَمان».

وقال الملك كاسپيان: «فليكُن دَمدَمان إذاً أحدهما! ومَن يكون مبعوثنا الآخر؟ أنا أعرف أنّك تحبُّ أن تذهب أنت، يا جانيكماً، ولكن تُعوزك السُرعة. وأنت كذلك، يا دكتور كُرنيليوس!»

فقال نيكابريك: «أنا لن أذهب. فبوجود جميع هؤلاء البشر والحيوانات حوالينا، يجب أن يبقى قزم هنا ليتأكد من حُسن معاملة الأقزام».

وقال طرمبكن غاضباً: «تعساً وبؤساً! أهكذا تُكلّم الملك؟ أرسلني أنا يا مولاي، فأذهب!»

فقال كاسپيان: «ولكنّني ظننتُ أنّك لا تؤمن بالبوق!»

«أنا لا أومن به، يا صاحب الجلالة. ولكن ما علاقة هذا بالأمر؟ فربّما أموتُ وأنا بصَدَد محاولة عقيمة كما قد أموت هنا. أنت مَلِكي. وأنا أعرف الفرق بين تقديم النصيحة وتلقّي الأوامر. فقد سمعتَ نُصحي، والآن حان وقت الأوامر!»

فقال كاسپيان: «لن أنسى هذا، يا طرمبكن! ليُحضِر أحدُكم دَمدمان. ثُمّ متى أنفخ في البوق؟»

أجاب الدكتور كُرنيليوس: «أتمنّى أن تنتظر حتّى شروق الشمس، يا صاحب الجلالة. فلذلك أحياناً تأثيرٌ في عمليّات السحر الأبيض».

وبعد بضعة دقائق حضر دَمدَمان، وشُرِحَت لهُ مهمّتُه. ولمّا كان، مثلَ سناجبَ كُثُر، مُفعماً بالشجاعة والاندفاع والطاقة والحماسة وروح العَبَث (حتّى لا نقولَ الغُرور)، فما إن سمع بالمهمّة حتّى بات متشوّقاً ومتحمّساً للانطلاق. وترتّب أن ينطلق إلى خِربة المصباح فيما يمضي طرمبكِن إلى مصبّ النهر، قائماً بالرحلة الأقصر. وبعد وجبة طعام عاجلة، انطلق كلاهما، مصحوبَين بالتشكّرات الجزيلة والتمنّيات الطيّبة من قِبَل الملك والغُرَير وكُرنيليوس.

كيف غادروا الجزيرة

كان القزم الذي قعد على العشب في قاعة كيربرافيل الخربة، بعدما أنقذه الأولاد الأربعة، وراح يحكي لهم القصّة التي رويتُها في ما سبق، هو طرمبكن بذاته. ومن ثمّ قال لهم: «وهكذا، وضعتُ في جيبي كِسَراً قليلة من الخبز، ونزعتُ كلّ سلاحي ما عدا خنجري، وانطلقت إلى الغابات قبل طلوع الصباح. وبعدما سرتُ سيراً مُضنياً عدّة ساعات، سمعتُ صوتاً لم أسمع مثله قطّ في حياتي. إيه، لن أنسى ذلك أبداً! فقد ملأ الفضاء كلّه عالياً كالرعد لكنْ أطول بكثير، وعذباً ومُنعشاً كالموسيقى فوق الماء لكنْ قويّاً بحيث يهزّ الغابات هزّاً. وقلتُ لنفسي: 'إن لم يكن هذا صوت البوق، أكُن أنا أرنباً!' وبعد لحظة تساءلتُ عن سبب عدم نفخه فيه قبل ذلك...»

أجاب إدمون: «كم كانت الساعة؟»

أجاب طرمبكن: «بين التاسعة والعاشرة صباحاً».

فقال جميع الأولاد: «ساعة كُنّا في محطة القطار تماماً!» ونظروا بعضُهم إلى بعض بأعينٍ بارقة.

وقالت لوسي للقزم: «رجاءً، تابع!»

«حسناً، كما كنت أقول، تساءلت... ولكنّني تابعتُ السير بأقصى سرعتي. وقد واصلتُ سيري طوال الليل، ثمّ لمّا كاد الفجر يطلع هذا الصباح — وكأنّي لستُ أكبر عقلاً من مارد — جازفتُ بسلوك طريق مختصرة في الأراضي المكشوفة لأتجاوز دورة كبيرة حول النهر، فأُلقي القبض عليّ. ليس من قِبَل الجيش، بل من قِبَل أحمق مُسِنّ مغرور كان مسؤولاً عن حصنٍ صغير هو آخِر معقل لميراز قُبالة الساحل. ولا داعيَ للقول إنّهم لم يحصلوا منّي على أيّة معلومات. لكنّني كنتُ قزماً، وهذا يكفي. ولكنّها كانت ساعة سعد! فمن الخير أنّ وكيل القصر كان أحمق مغروراً. إذ إنّ أيّ شخص آخر كان ممكناً أن يطعنني بالسيف هناك حالاً. ولكنْ لم يكن يُرضيه شيء سوى إعدامٍ فخم، فأرسلني «إلى الأشباح» تحتَ بالطريقة الاحتفاليّة الكاملة. ثمّ قامت هذه السيّدة الشابّة، وأومأ برأسه نحو سوزان، برمي سهمها — ولأقلْ لكم إنّها أحسنتِ الرماية — وها أنا هُنا الآن، إنّما بغير سلاحي لأنّهم جرّدوني منه». ثمّ نفض غليونه، وعبّأه من جديد.

وقال بطرس: «يا للعجب! إذا كان البوق — بوقك أنتِ يا سُو — هو الذي جذبنا جميعاً من ذلك المقعد على رصيف المحطة صباح أمس! بالكاد أصدّق هذا، ولكنّه يوافق الواقع والوقائع تماماً».

فقالت لوسي: «لستُ أدري لماذا لا ينبغي أن تصدّقه، إذا كنتَ تُصدّق السحر أصلاً. أليس هنالك قصص كثيرة عن إرغام السحر للناس على الانتقال من مكان – من عالمٍ – إلى داخلِ آخر؟ أعني أنّه حين يستدعي ساحرٌ جنّيّاً، كما في قِصَص "ألفُ ليلة وليلة"، فلا بدّ أن يحضر. وقد كان واجباً أن نأتي نحن إلى هنا، بمثل تلك الطريقة تماماً».

وقال بطرس: «نعم، أعتقد أنّ ما يجعل الأمر يبدو غريباً هكذا هو أنّ الذي يقوم بالاستدعاء في الحكايات هو دائماً شخصٌ من عالمنا. والمرء لا يُفكّر بالحقيقة في المكان الذي منه يأتي الجنّي».

فقال إدمون بضحكة خافتة: «ونحن الآن نعرف ماذا يشعر الجنّيُّ به. أفٍ! من المزعج بعضَ الشيء أن نعرف أنّنا نحن يُمكن أن نُستدعى بصَفرةٍ واحدة. فهذا أسوأ ممّا يقوله أبونا عن العَيش في حالة استعداد عند الطلب».

وقالت لوسي: «ولكنّنا نريد أن نكون هنا، إن كان أصلان يحتاج إلينا، أليس كذلك؟»

وقال القزم: «في الوقت الحاضر، ماذا ينبغي لنا أن نفعل؟ أعتقد أنّ عليّ أن أرجع إلى الملك كاسبيان وأُخبره بعدم وصول أيّ نجدة».

فقالت سوزان: «أليسَ من نجدة؟ ولكنّ الأمر نجح فعلاً. وها نحن هنا!»

قال القزم، وقد بدا أنّ غليونه مسدود: «أم، أم، نعم،

مؤكّد! ولكنْ... حسناً أعني..». (إلا أنه شغَل نفسه كثيراً بتنظيف الغليون).

فصاحت لوسي: «ولكنْ ألم تفهم بعدُ من نحن؟ إنك غبيّ!»

وقال طرمبكِن: «أظنّ أنّكم الأولاد الأربعة المذكورون في القِصَص القديمة. وأنا بالطبع سعيدٌ كثيراً بلقائكم. وهذا مُشوّقٌ بلا شك. ولكنْ، لا أقصد الإهانة..». ثمّ تردّد من جديد.

فقال إدمون: «هيّا تابعْ كلامَك وقُل ما تنوي قوله، مهما كان!»

وقال طرمبكِن: «حسناً، إذاً... لا أقصد الإهانة. ولكنْ، كما تعلمون، كان الملك وجانيكما والدكتور كُرنيليوس – حسناً، إذا فهمتم ما أقول – ينتظرون نجدة. بعبارة أُخرى، أعتقد أنّهم كانوا يتصوّرون أنّكم مُحاربون أشدّاء. في الواقع أنّنا نحبّ الأولاد كثيراً، وما إلى ذلك، ولكنْ في اللحظة الحاضرة تماماً، في وَسَط حرب... أنا واثق أنّكم تفهمون».

فقال إدمون، وقد احمرّ خدّاه: «تقصد أنّك تعتقد أنّنا لسنا نافعين في هذا الظرف!»

فقاطع القزم: «أرجو منكمُ الآن ألّا تستاءوا. أُوكّد لكم، أصدقائي الصغار الأعزّاء..».

فهبّ إدمون واقفاً وقال: «قولك "صغار" أمرٌ لا يكاد يُطاق. أفترض أنّك لا تصدّق أنّنا كسبنا معركة بيرونا؟

حسناً، يمكنك أن تقول ما شئتَ عنّي، لأنّني أعرف..».

وقال بطرس: «لا خير في أن نفقد أعصابنا. فلنُجهّزه بسلاح في الحال من غرفة الكنوز، ولنجهّز أنفسنا أيضاً، وليكُن لنا حديثٌ بعد ذلك!»

وبدأ إدمون يقول: «لستُ أفهم بيت القصيد في هذا..». ولكنّ لوسي همست في أذنه: «أليس أفضلَ لنا أن نعمل بما يقوله بطرس؟ فهو الملك الأعلى، كما تعلم. وأعتقد أنّ فكرته لا بأس بها».

فوافق إدمون على ذلك، وفي ضوء فنارِهِ اليدويّ نزلوا جميعاً، بمن فيهم طرمبكِن، على الدَرَج من جديد إلى قلب الظلمة الباردة والأُبَّهة المغبّرة في مخبأ الكنوز.

برقت عينا القزم لمّا رأى الثروات الموضوعة على الرفوف (مع أنّه اضطُرّ إلى الوقوف على رؤوس أصابع قدميه لرؤيتها) وتمتم لنفسه: «لا يُفيد أبداً أن ندع نيكابريك يرى هذا؛ لا يُفيد أبداً!»

وبشيء من السهولة عثروا له على درع زَرَد وسيف وخوذة وترس وقوس وجعبة ملأى بالسهام، كلّها ذات حجم يناسب الأقزام. وكانت الخوذة من نحاس، مُرصّعة بالياقوت؛ وكان على مقبض السيف ذهب، ولم يكن طرمبكِن قد رأى قطّ، ولا حمل أيضاً، مثل هذه القطَع الثمينة طوال حياته. وكذلك لبس الأولاد أيضاً دروع زرد وخُوَذاً. وتمّ العثور على سيف وتُرس لإدمون، وعلى قوس للوسي. أمّا بطرس وسوزان فكانا بالطبع حاملَين

هداياهما أصلاً. وإذ صعدوا الدَرَج عائدين، ودروعهم تُصلصِل، وهم يظهرون فعلاً بمظهر النارنيانيّين أكثر منهم بمظهر أولاد المدارس، سار الولدان في المؤخّرة وهما يرسمان بعض الخُطَط على ما يبدو. وسمعت لوسي إدمون يقول: «لا، بل دعني أفعل ذلك. سيأخذه ما يفوق الخيبة والحَرَج إذا ربحتُ أنا، ولن تكون خيبتنا كبيرة إذا خسرتُ».

فقال بطرس: «حسنٌ جدّاً، يا إدمون».

ولمّا خرجوا إلى ضوء النهار، التفت إدمون إلى القزم بكلّ أدب وقال: «عندي شيء أسألك إيّاه. إنّ الأولاد الصغار من أمثالنا نادراً ما تُتاح لهم فرصة مُنازلة محارب عظيم مثلك. فهلّا تقوم بمبارزة بسيطة بالسيف معي؟ ستكون مبارَزة قانونية جميلة حقّاً».

فأجاب طرمبكِن: «ولكن، يا صبيُّ، هذان السيفان حادّان!»

وقال إدمون: «أعرفُ ذلك. ولكنّني لن أقترب منك كثيراً البتّة، وستكون أنت بارعاً تماماً في تجريدي من سلاحي بغير أن تؤذيَني أبداً».

فقال طرمبكِن: «هذه لعبة خَطِرة. ولكن بما أنّك تعتبرها مهمّة هكذا، فسأُجرّب طعنةً أو طعنتين».

وما هي إلّا لحظةٌ حتّى سُحِب كِلا السيفين، وقفز الثلاثة الآخرون مبتعدِين عن المنصّة ووقفوا يتفرّجون. وكان المشهد جديراً بالفُرجة فعلاً. فلم يكن مثل المبارزات السخيفة التي تشاهدها على المسارح بالسيوف العريضة.

ولم يكن أيضاً مثل المنازلة التي تؤدَّى على نحوٍ أفضل بالسيوف المستقيمة الطويلة ذات الحدَّين. فقد كانت تلك مُبارَزة حقيقيّة بالسيوف العريضة. والأمر المهمُّ هو أن تُهوي بالسيف على ساقَي خصمك وقدميه لأنّها الجزء الذي لا تُغطّيه الدروع. وعندما يُهوي الخصم عليك بسيفه تقفز بكلتا قدميك عن الأرض بحيث تمرُّ الضربة تحتهما. وقد وفَّر ذلك للقزم أفضليّةً جيّدة، لأنَّ إدمون – وهو أطول منه بكثير – اضطرَّ أن يبقى مُنحَنياً كل الوقت. ولستُ أظنُّ أنّه كانت ستُتاح لإدمون أيّة فرصة لو نازل طرمبكِن قبل أربع وعشرين ساعة. ولكنَّ هواء نارنيا ما انفكَّ يفعل فعله فيه منذُ وصلوا إلى الجزيرة، وعاودته ذكريات جميع معاركه القديمة، وتذكّرتْ ذراعاه وأصابعه مهاراتها القديمة. فإذا به يعود الملكَ إدمون مرّةً أخرى. وإذا بالمُتبارزَين يدوران ويدوران، ويضربان ضربةً بعد ضربة، وسوزان (التي لم تستطع قطُّ أن تتعوَّد الإعجاب بمثل هذا الأمر) تصيح: «أوه! انتبها!» وعندئذٍ، بسرعةٍ لا يستطيع أحدٌ معها رؤيةَ حصول ما حدث تماماً (إلّا إذا كان خبيراً مثل بطرس)، لوَّح إدمون بسيفه بفتلةٍ عجيبة فطار سيف القزم من قبضة يده، وأخذ طرمبكِن يبرم معصم يده الفارغة مثلما تفعل بعد ضربةٍ مؤلمة بمضرابِ كرة المضرب.

وقال إدمون، لاهثاً بعض الشيء ورادّاً سيفه إلى غمده: «أرجو ألّا تكون قد تأذّيت يا صديقي الصغير العزيز!»

فقال طرمبكِن بجفاف: «لقد فهمتُ الأمر. فأنت تعرف حيلةً لم أتعلّمها قطّ».

وتدخّل بطرس قائلاً: «صحيحٌ تماماً! إنَّ أفضل مُسايفٍ في العالم قد يُجرَّد من سيفه بحيلةٍ جديدة عليه. فأعتقد أنَّ من الإنصاف فعلاً إعطاءَ طرمبكِن فرصةً في شيء آخر. هل تخوض مباراة رماية بالسّهام مع أختي؟ فليس من حِيَلٍ في رمي السّهام، كما تعلم».



فقال القزم: «آه، مزّاحُونَ أنتم! بدأتُ أفهم. وكأنّني لم أعرف كيف يمكنها أن تُطلق السّهام بعد الذي حدث هذا الصباح! ومع ذلك، فسأُجرِّب». وكان يتكلّم بصوت خشن، ولكنَّ عينيه تبرقان، لأنّه كان راميَ سهام مشهوراً بين بني قومه.

ثمّ خرج الخمسة كلُّهم إلى ساحة الدار.

وسأل بطرس: «وماذا سيكون الهدف؟»

فقالت سوزان: «أظنُّ أنَّ تلك التُفّاحة المتدلّية من الغصن فوق الحائط هناك تفي بالغرَض».

وقال طرَمبكِن: «نعم، لا بأس في ذلك، يا آنسة! هل تقصدين تلك التفّاحة الصفراء بقرب أعلى القنطرة؟»

فقالت سوزان: «لا، ليس هذه، بل تلك الحمراء في الأعلى، فوق شرفة السُّور».

فتغيّر وجه القزم، وتمتم: «إنّها تبدو كحبّة كَرَز أكثر منها تُفاحةً»، ولكنّه لم يقل شيئاً بصوتٍ عال.

ثمّ نقفا قطعة نَقْد ليعرفا من يُطلِق السهم الأوّل (مّما حمّس القزم كثيراً لأنّه لم يكن قطّ قد شاهد قطعة نقد تُرمى هكذا)، فخسرت سوزان. وكان ينبغي أن يُطلِقا السّهام من أعلى الدرج المؤدّي من القاعة إلى الساحة. وقد عرف الجميع من طريقة تمركُز القزم وإمساكه بالقوس أنّه يعرف ما هو فاعِلُه.

ثمّ رنّتِ القوس وانطلق السهم مُحدِثاً صوته المألوف: اتْوانْغ! فكانت رمية موفّقة، واهتزّت التفّاحة الصغيرة إذ مرّ السهم بلزقها وهَوَت ورقةٌ تتهادى. ثمّ صعدت سوزان إلى أعلى الدَّرَج وشدّت قوسها. ولم تكن

تستمتع بمباراتها بنصف مقدار استمتاع إدمون بمباراته، ليس لأنّها كانت تشكّ قطعاً في قدرتها على إصابة التفّاحة، ولكن لأنّها كانت رقيقة القلب جدّاً حتّى كادت تكره أن تغلب شخصاً سبق أن غُلِب أصلاً. وراقبها القزم بانتباه إذ شدّتِ السهم نحو أُذنها. وبعد لحظة، بخَبطةٍ خفيفة ناعمة استطاعوا كلُّهم سماعها في ذلك المكان الهادىء، سقطت التفّاحة على العُشب وسهمُ سوزان فيها.

فصاح الأولاد الآخرون: «أوه، أحسنتِ فعلاً، يا سو!»

وقالت سوزان للقزم: «لم تكن ضربتي أفضل من ضربتك قطّ. إنّما أظنُّ أنّه قد هبّت نسمة هواء خفيفة وأنت تُطلِق سهمك!»

فقال طرمبكِن: «لا، لم تهُب! لا تقولي لي ذلك. فأنا أعرف متى أُغلَب بإنصاف. ولن أقول أيضاً إنّ ندبة جُرحي الأخير ما تزال تؤلمني قليلاً عندما أردُّ ذراعي إلى الوراء جيّداً...».

وسألت لوسي: «آه، هل جُرِحتَ حقّاً؟ دعني أُلقِ نظرة».

وبدأ طرمبكِن يقول: «ليست هذه فُرجة للبنات الصغيرات». ولكنّه ضبط لسانه فجأةً، وقال: «ها أنا أمضي متحدّثاً كالأحمق من جديد. أعتقد أنّه يُرجَّح أن تكوني طبيبة جرّاحة عظيمة كما كان مُقدَّراً لأخيك أن يكون مُسايِفاً عظيماً، أو لأُختك أن تكون رامية سهام

عظيمة». ثمّ قعد على الدَّرَج وخلع سترته ونزع برفقٍ قميصه الصغير، فظهرت ذراعه الشعراء والمفتولة العضل مثل ذراع بحّار (رغم الفرق النسبيّ طبعاً) وإن لم تكن أكبر بكثير من ذراع ولد. وكانت على كتفه ضمادةٌ غير مرتّبة، فأخذت لوسي تحلّها. وبدا الجُرح حيث كانت الضمادة سيّئاً جداً مع مقدارٍ لا بأس به من التورُّم. فقالت لوسي: «آه، يا طرمبكِن المسكين. ما أسوأ هذا!» ثمّ قطرت على الجرح بحذرٍ قطرةً واحدة من البلسم الشافي الذي في قنّينتها.

وقال طرمبكِن: «أهلاً، إيه؟ ماذا فعلتِ؟» ولكنّه لم يستطع أن يرى كتفه جيّداً، مع أنّه أدار رأسه كثيراً وأمال عينيه وأزاح لحيته إلى كلتا الجهتين. ثمّ تلمّس كتفه على أفضل ما يستطيع، مُوصلاً ذراعيه وأصابعه إلى أوضاع صعبة، مثلما تفعل حين تحاول أن تحكّ موضعاً في جسمك بعيداً عن متناول يدك. ثمّ رجّح ذراعه ورفعها وجرّب عضلها، حتّى هبّ واقفاً في الأخير وهو يهتف: «يا للعجب العُجاب! لقد شُفيت! إنّها صحيحة كما لو كانت جديدة». وبعد ذلك انفجر ضاحكاً ضحكةً كبيرة وقال: «حسناً، لقد أظهرتُ أنني أكبر غبيّ يمكن أن يكونه قزم! أرجو المعذرة وعدم الاستياء منّي! احترامي وخضوعي لجلالاتكم جميعاً... احترامي وخضوعي. وشكراً لكم على إنقاذ حياتي، وشفائي، وفطوري، وتعليمي درساً لنْ أنساه».

فقال الأولاد جميعاً إنّه لا بأس في ذلك كلّه، وطلبوا عدم ذِكره.

ثمّ قال بطرس: «والآن، إن كنتَ قد قرّرت حقاً أن تثق بقدراتنا ..».

وردّ القزم: «قرّرتُ، قرّرت!»

«واضحٌ تماماً ما يجب أن نفعله. ينبغي أن ننضمّ إلى الملك كاسبيان حالاً».

فقال طرمبكِن: «خيرُ البرّ عاجلُه! إنّ كوني غبيّاً هكذا قد ضيّع علينا ساعةً تقريباً».

وقال بطرس: «إنّها رحلة تستغرق نحو يومين مشياً على الأقدام، على الطريق التي جئتَ فيها. أعني بالنسبة إلينا. فنحن لا نقدر أن نسير طوال النهار والليل، مثلكم أنتم الأقزام». ثمّ التفت إلى الآخرين وتابع: «ما يُسمّيه طرمبكِن حصن أصلان هو طاولة الحجر بعينها، كما هو واضح. فأنتم تتذكّرون أنّ المسافة من هناك نزولاً إلى مخاضات بيرونا تستغرق نصف نهار، أو أقلّ بقليل ..».

فعلّق طرمبكِن: «نحن ندعو المكان جسر بيرونا».

وقال بطرس: «لم يكن من جسر في أيّامنا. ثمّ من بيرونا إلى هنا، كان النزول يستغرق نهاراً آخر وقليلاً. وقد كنّا نصل إلى البيت قبل الغروب ثاني يوم، سائرين على مهل. فإذا سرنا مُسرِعين، فربّما نتمكّن من قطع المسافة كلّها في يومٍ ونصف».

وقال طرَمبكن: «ولكنْ لا تنسَوا أنَّ الأرض كلَّها غابات الآن، وهناك أعداء يجب أن نتجنَّبهم».

فقال إدمون: «انتباهاً! هل ينبغي لنا أن نسلك الطريق ذاتها التي سلكها صاحبُنا الصغير العزيز؟»

وقال القزم: «لا تدعُني بهذا اللقب، يا صاحب الجلالة، إن كنتَ تحبُّني!»

فسأل إدمون: «طيِّب! هل لي أن أدعوَك 'صَصَع' إذاً؟»

وقالت سوزان: «آه، يا إدمون، لا تُصِرَّ على إغاظته هكذا!»

فقال طرَمبكِن بضحكة خافتة: «لا بأس بذلك، يا صغيرة... أعني يا صاحبة الجلالة. فالدُّعابة لا تُثير حقداً!» (وبعد ذلك دَعَوه 'صَصَع' غالباً حتَّى كادوا ينسَون أنَّ ذلك اختصار لِلَقب «صاحبُنا الصغير العزيز».)

ثمَّ تابع إدمون قائلاً: «كما كنتُ أقول، ليس من الضروريّ أن نسلك الطريق عينها. فلماذا لا نُجذِّف نحو الجنوب قليلاً حتَّى نصل إلى مجرى نهر البِلَّور ونُجذِّف فيه قُدُماً؟ وهكذا نصل إلى ما وراء تلَّة طاولة الحجر، كما نكون في مأمن ونحن في البحر. فإنِ انطلقنا بالقارب حالاً، يمكننا أن نصل إلى منبع نهر البِلَّور قبل هبوط الليل فننام بضع ساعات، ثمَّ نلتقي كاسبيان باكراً جداً صباحَ غدٍ».

فقال طرَمبكِن: «ما أحسن معرفة الساحل! فلا أحد

منَّا يعرف أيَّ شيء عن نهر البِلَّور».

وسألت سوزان: «وماذا نأكل؟»

فقالت لوسي: «أوه، علينا أن نُدبِّر أمرنا بالتُّفَّاح. فلننطلِقْ حالاً. لم نعمل شيئاً بعد، وقد مضى على وجودنا هنا يومان تقريباً».

وقال إدمون: «على كُلِّ حال، لَن أتخلَّى عن قُبَّعتي ثانية كي تُستعمَل سلَّةَ تُفَّاح كما استُعمِلت سلَّةَ سمك».

استخدموا أحد المعاطف الشتويَّة كصُرَّة وضعوا فيها كثيراً من التُّفَّاح. ثم شربوا كلُّهم من البئر شربة طويلة مُروِية (لأنَّهم لن يجدوا مزيداً من المياه العذبة قبل نزولهم من القارب عند منبع النهر)، ونزلوا إلى القارب. وقد تأسَّف الأولاد لمغادرتهم كيرپرافيل بعدما كان قد بدأ من جديد يصير عندهم بمثابة بيتهم، ولو كان خراباً.

وقال بطرس: «الأفضل أن يتولَّى صَصَع قيادة المركب، فيما أُمسِك أنا بمجذاف وإدمون بمجذاف. إنَّما لحظةً واحدة! من الأفضل أن ننزع دروعنا، فسوف نشعر بحرارة شديدة قبل أن نصل. والأفضل أن تقعد البنتان في المقدَّم لإعطاء التوجيهات لصَصَع، لأنَّه لا يعرف الطريق. ويُستحسَن أن تُبعِدانا مسافة لا بأس بها إلى عُرض البحر حتَّى نكون قد جاوزنا الجزيرة».

وسرعان ما أخذ ساحل الجزيرة الأخضر المكسوُّ بالشجر يتباعد وراءهم، وخلجانُه ورؤوسه الصغيرة تبدو

أكثر تسطُّحاً، فيما القارب يعلو ويهوي فوق الأمواج الخفيفة. وبدأ البحر يبدو أكبر حواليهم، وأكثر زُرقةً في البعيد، إنَّما كان أخضر وفوّاراً حول القارب مباشرةً. وانبعثت رائحة الملوحة من كلّ شيء، ولم يكن من صوتٍ سوى هفيف الماء وطقطقته على جانبَي القارب وطرطشة المجذافَين وصوتِ ارتجاج مِسنَدَيهما. ثمّ أخذت حرارة الشمس تشتدّ.

ابتهجت لوسي وسوزان، وهما في مقدَّم القارب، بأن تنحنيا فوق الحافة وتحاولا تبليل أيديهما بماء البحر الذي لم تستطيعا بلوغه تماماً. وكان يمكنهما أن تريا في قعر البحر، النقيّ في معظمِهِ، رمالاً شاحبة تتخلَّلُها أحياناً بُقع من طحالب البحر الأرجوانيّة.

وقالت لوسي: «ما أشبه هذا بالأيّام القديمة! هل تتذكّرين رحلاتنا إلى تيريبنثيا... وغالما... والجُزُر السبع... والجُزر المنفردة؟»

أجابت لوسي: «نعم، وسفينتَنا العظيمة 'البِلّورة الفاخرة' ورأسَ الوَزّة على مُقدَّمها وجناحَي الوزّة المحفورَين اللذَين يكادان يصلان إلى وسطها؟»

«والأشرِعةَ الحريريّة، ومصابيح المؤخَّر الكبيرة؟»

«والولائمَ على سُطَيحتها الخلفيّة، وعازفي الموسيقى؟»

«وهل تذكرين عندما قعد الموسيقيّون بين الأشرعة والحبال وأخذوا يعزفون حتّى بدا كأنَّ الموسيقى آتية من السماء؟»

وما لبثت سوزان أن تسلّمت مجذاف إدمون، وتقدّم هو إلى الأمام لينضمّ إلى لوسي. وها قد جاوزوا الجزيرة الآن وباتوا أقرب إلى الساحل، المكسوّ كلّه بالغابات والمهجور. وكان ممكناً أن يحسبوه جميلاً جدّاً لولا تذكُّرهم أيّام كان مكشوفاً يهبُّ عليه النسيم المُنعِش ويغصّ بالأصدقاء السُّعَداء.

ثمّ قال بطرس: «يُوه! هذا عملٌ شاقٌّ إلى حدٍّ بعيد».

فقالت لوسي: «هلّا أُجذِّف أنا قليلاً!»

وقال بطرس باقتِضاب: «المجذافان أكبر من أن تستطيعي تشغيلهما».

ولم يقُل ذلك لأنّه مُشاكِس، بل لأنّه لم تبقَ له قوّة للكلام.

الفصل التاسع

ما شاهدته لوسي

تعبت سوزان والصبيّان من التجذيف تعباً شديداً قبل أن داروا حول آخِر رأسٍ في البحر وبدأوا مرحلتهم الأخيرة على نهر البِلّور ذاته. وقد أصاب الوجع رأسَ لوسي من جرّاء التعرّض ساعاتٍ طويلةً لحرّ الشمس ووهج الماء. حتّى طرّمبكِن أيضاً تشوّق لنهاية الرحلة. فالمقعد الذي جلس عليه للقيادة كان مصنوعاً للبشر، لا للأقزام، ولم تكُن قدماه تصلان إلى ألواح الأرضيّة؛ وكلٌّ واحد يعرف كم يُزعج ذلك ولو جلس عشرَ دقائق فقط. ولمّا أصبحوا كلّهم أكثر تعباً، اعتراهمُ الاكتئاب وضعُفَت معنوياتهم. وقد كانوا حتّى ذلك الحين يفكّرون فقط في كيفيّة الوصول إلى كاسپيان. أمّا الآن فتساءلوا عمّا يفعلون حين يجدونه، وكيف يمكن لحفنة من الأقزام ومخلوقات الغابة أن يهزموا جيشاً من الآدميّين الراشدين.

وكان ظلام الليل يقترب حين جذّفوا ببطء في مُنعرَجات نهر البِلّور، وأخذت أنوار الغروب الشاحبة تُعتِم كلّما تقاربت الضفّتان وكادت أغصان الأشجار

تتلاقى فوق رؤوسهم. وقد ساد هنا هدوء كثير إذ تلاشى صوت أمواج البحر وراءهم. حتّى إنّهم تمكّنوا من سماع سقسقة الجداول الصغيرة المنصبّة في مياه نهر البِلّور من بين الأشجار.

أخيراً ترجّلوا على ضفّة النهر، وهم أشدّ تعباً من أن يحاولوا إشعال نار. حتّى إنّ عشاءً من التُفّاح بدا أفضلَ من محاولة الإمساك بشيء أو رمي طريدةٍ بالسهام (وإن كان معظمهم قد أحسّوا أنّهم لا يريدون أبداً أن يروا تُفّاحةً واحدة بعد). وبعد قليلٍ من قرقشة التُفّاح بصمت، تكوّموا جميعاً على الطحالب وأوراق الشجر اليابسة بين أربع شجرات زانٍ كبيرة.

وسطا النوم حالاً على الجميع، ما عدا لوسي. فإذ كانت أقلّهم تعباً بكثير، صعب عليها أن تستريح. وكانت قد نسِيت حتّى الآن أنّ جميع الأقزام يشخرون. وعلماً منها بأنّ واحدةً من أفضل الطرق للنوم هي الكفُّ عن محاولة النوم، فتحت عينيها. ومن فتحةٍ بين الخنشار والأغصان استطاعت أن تلمح بقعةً من ماء النهر فوقها السماء. عندئذٍ ارتعشت ذاكرتُها طرباً إذ رأت من جديد، بعد تلك السنين كلّها، نجوم نارنيا الساطعة. وقد عرفَت تلك النجوم في ما مضى أفضل من معرفتها لنجوم عالمنا، لأنّها لمّا كانت ملكة في نارنيا كانت تأوي إلى السرير في وقتٍ متأخّر كثيراً عن جاري عادتها في إنكلترة أيّامَ صِغَرها. فها هي النجوم فوقها، وقدِ استطاعت أن ترى

من مكان استلقائها على الأقلّ ثلاث كوكباتٍ صيفيّة: السفينة والمطرقة والفهد. وإذا بها تتمتم لنفسها بسعادة: «الفهد العتيق الحبيب!»

وبدل أن يشتدّ عليها النعاس، أخذت تصير أكثر استيقاظاً، في يقظةٍ ليليّة غريبة شبهِ حالمة. وكان النهر يزداد لمعاناً، فعرفت أنّ القمر يُلقي ضوءه عليه، مع أنّها لم تتمكّن من رؤية القمر. وما لبثت أن بدأت تشعر أنّ الغابة كلّها تستيقظ مثلها. فإذا بها – وهي لا تكاد تدري السبب – تنهض مسرعةً وتمشي مسافةً قصيرة، مُبتعِدةً عن مكان مبيتهم.

عندئذٍ قالت لنفسها: «ما أحلى هذا!» إذ كان الهواء بارداً ومنعشاً، وقد فاحت الروائح الطيّبة في كلّ مكان. وعلى مقربةٍ منها، سمعت تغريد عندليب بدأ يُغنّي، ثمّ توقّف، ثمّ عاد يُغنّي. وكان أمامها مزيدٌ من الضوء، فتقدّمت نحو النور حتّى وصلت إلى مكانٍ أقلّ شجراً فيه بُقَعٌ أو بِرَكٌ كاملة من ضوء القمر. غير أنّ ضوء القمر والظلال كانت متداخلة بحيث يصعب عليك تقريباً أن ترى أمكنة الأشياء وحقيقتها. وفي اللحظة عينها اندفع العندليب يُغنّي غناءً موصولاً، بعدما رضي أخيراً بدَوزنة صوته.

أخذت عينا لوسي تتعوّدان الضوء، فرأت بوضوح شجرةً كانتِ الأقربَ إليها. وعاودها حنينٌ عظيم إلى الأيّام القديمة، حين كانتِ الأشجار في نارنيا قادرةً على



النُّطق. وقد كانت تعرف تماماً كيف يمكن أن يكون كلامُ كلٍّ من تلك الأشجار – لوِ استطاعت إيقاظَها فقط – وأيّ شكلٍ بشريٍّ ستتّخذ. فنظرت إلى شجرة قُضبانٍ، وتصوّرت أنّ صوتها سيكون ناعماً ومتدفّقاً، وأنّها ستبدو بمظهر فتاةٍ خَجِلة، يتطاير شعرها حول وجهها، وهي مُولَعة بالرقص. وتطلّعت إلى السنديانة، فعرفت أنّها ستكون شيخاً ذابلاً لكنْ طيّب القلب، ذا لحية جَعْدة، وعلى وجهه وبديه ثآليل يطلع منها شَعر. ثمّ نظرت إلى شجرة الزان التي كانت واقفةً تحتها، فقالت: «آه! وهذه ستكون أفضل الكلّ. فإنّها ستكون فتاةً جميلة، ورقيقةً وجليلة، سيّدةَ الغابة حقّاً!»

ثمّ قالت لوسي (رغمَ أنّها لم تكن تنوي أن تتكلّم أبداً): «يا أشجار، يا أشجار، يا أشجار! استيقظي، استيقظي، استيقظي! ألا تذكرين؟ ألا تتذكّرينني أنا؟ يا حوريّات الغابات والشجر، اخرُجي، تعالَي إليّ!»



وعلى الرغم من عدم وجود هبّة ريح واحدة، تحرّكت جميع الأشجار حوالَيها. وكان حفيف الأوراق أشبه بالكلمات. فتوقّف العندليب عن تغريده كأنّما ليُصغي إليها. وأحسّت لوسي أنّها في أيّة لحظة ستبدأ بفهم ما تحاول الأشجار أن تقوله. إلّا أنّ تلك اللحظة لم تأتِ. فقد تلاشى حفيف الورق، واستأنف العندليب غناءه. حتّى إنّ الغابة بدت تحت ضوء القمر أكثر طبيعيّة من جديد. ومع ذلك داخلَ لوسي شعور بأنّ شيئاً ما قد فاتها للتوّ (كما تشعر أنت أحياناً عندما تحاول أن تتذكّر

اسماً أو تاريخاً فتكاد تعرفه ثمّ يتبخّر قبل أن تعرفه حقّاً)؛ وكأنّها قد كلّمتِ الأشجار قبل الأوان بكِسر ثانية أو بعد فواته بكِسر ثانية، أو استخدمت جميع الكلمات الصحيحة ما عدا واحدة، أو أقحمت كلمة واحدة كانت خطأ.

وفجأةً بدأت تشعر بالتعب. فعادت إلى موقع المبيت، واندسّت بين سوزان وبطرس، واستسلمت للنوم بعد بضع دقائق.

وفي الصباح التالي، استيقظوا جميعاً ببرودة وفتورِ حماسة، وقد عمّ الغابة نورٌ باهت (إذ لم تكن الشمس قد أشرقت بعد)، وكان كلّ شيء رطباً ومتّسخاً.

وقال طرمبكن مبتسماً بحزن: «تفّاح، أفّ! لا بدّ لي أن أقول إنّكم أنتم الملِكين والملِكتين الأقدمين لا تُشبِعون أفراد حاشيتكم ومرافقيكم!»

ثمّ وقفوا ونفضوا أنفسهم وتطلّعوا حوالبهم. وقد كانت الأشجار كثيفة فلم يقدروا أن يروا أبعدَ من بضعة أمتار في أيّ اتّجاه. وقال القزم:

«أحسب أنّ جلالاتكم تعرفون الطريق جيّداً؟»

فقالت سوزان: «أنا لا أعرفها. لم أرَ هذه الغابات قطّ في حياتي قبلاً. وبالحقيقة، طالما فكّرتُ كلّ الطريق أنّه كان ينبغي أن نسير بمحاذاة النهر».

وقال بطرس بحدّةٍ معذورة: «إذاً أعتقد أنّه كان يجب أن تقولي هذا في الوقت المناسب».

فقال إدمون: «أوه، لا تُبالِ بها أبداً. فهي تُنغِّص عيشتنا دائماً. أليست بُوصلتك في جيبك، يا بطرس؟ حسناً، إذاً نحن في الاتّجاه الصحيح بكلّ يقين. فما علينا إلّا أن نظلّ سائرين باتّجاه الشمال الغربيّ، ثمّ نعبر ذلك النهر الصغير... ماذا تسمّونه؟ ... الدفّاق...».

وقال بطرس: «أعرِف! ذاك الذي يلتقي النهر الكبير عند مخاضات بيرونا، أو جسر بيرونا، كما يسمّيه صَصَع».

«صحيح. فلنعبُره ونصعدْ إلى التلة، فنصلَ إلى طاولة الحجر (أقصد: حصن أصلان) عند الساعة الثامنة أو التاسعة صباحاً. وآمل أن يقدّم لنا الملك كاسپيان فطوراً لذيذاً!»

فقالت سوزان: «أرجو أن تكون على حقّ. فأنا لا أستطيع أن أتذكّر كلّ ذلك أبداً».

وقال إدمون لبطرس وللقزم: «ذلك أسوأ ما في الفتيات. إنهنّ لا يحملن خريطة داخل رؤوسهنّ أبداً».

فقالت لوسي: «ذلك لأنّ داخل رؤوسنا عقلاً بالفعل!»

في البداية، بدت الأمور سائرةً سيراً حسناً. حتّى إنّهم اعتقدوا أنّهم وجدوا طريقاً قديمة. ولكنّك إذا كنتَ تعرف شيئاً عن الغابات، فلا بدّ أن تعرف أنّ المرء يعثر دائماً على دروب وهميّة، لا تلبث أن تتلاشى بعد نحو خمس دقائق؛ ثمّ يحسب أنّه وجد طريقاً آخر (ويرجو ألّا يكون

آخر بل جزءاً من الأول) فإذا بهذا أيضاً يتلاشى. وبعد أن يتيه الواحد عن اتّجاهه الصحيح، يدرك أنّ أيّ شيء من ذلك لم يكن طريقاً قطّ. غير أن الأولاد والقزم كانوا معتادين الغابات، ولم يتيهوا أكثر من ثوانٍ قليلة.

وبعد أن ساروا بتثاقُل نحو نصف ساعة (وما زال ثلاثة منهم مُتشنّجين كثيراً من تجذيف أمس)، همس طرّمبكِن فجأةً: «قفوا!» فتوقّفوا كلّهم. وتابع يقول بصوتٍ خفيض: «ثمّة شيءٌ يلحق بنا، أو بالأحرى شيءٌ يُواكِبُنا، هناك إلى اليسار». ووقفوا كلُّهم بلا حراك، يتسمّعون ويُحدّقون حتّى أوجعتهم آذانهم وأعيُنهم. وقالت سوزان لطرّمبكِن: «علينا — أنا وأنت — أن نضع كلّ واحد سهماً في قوسه». فأومأ القزم برأسه، ولمّا صارت كِلتا القوسين جاهزتين، تابعتِ المجموعة سيرها.

وساروا بضع عشراتٍ من الأمتار وسط أرض ذات شجر مكشوفة قليلاً، متنبّهين بدقّة إلى ما حولهم. ثمّ وصلوا الى مكانٍ تكثّفت فيه الشُجيرات فاضطُرّوا إلى المرور بقربها. وبينما هم يعبرون ذلك المكان تماماً، إذْ برز شيءٌ مُفاجىء جأر واندفع كالسهم خارجاً من بين الأغصان الصغيرة المتكسّرة، مثلَ الصاعقة. فإذا بلوسي تقع أرضاً وتتدحرج، سامعةً وهي تهوي رنينَ وَتَرِ قوس. ولمّا تمكّنت من الانتباه إلى ما يدور من جديد، شاهدَت دبّاً رماديّاً كبيراً مُروِّعاً، مُمدّداً على الأرض جُثّةً هامدة وسهمُ طرّمبكِن في جنبه.

وقال بطرس بابتسامةٍ شبه مُصطنَعة: «لقد غلبَكِ صَصَع في مباراة الرمي هذه، يا سو!» وكانت هذه المغامرة قد روَّعته هو أيضاً.

فقالت سوزان بصوتٍ مُرتبِك: «إنّني... إنّني تنبّهتُ إليه، بعد فوات الأوان. وقد خشيتُ كثيراً — كما تعلمون — أن يكون واحداً من الدَّببَة التي في صفّنا، أعني دبّاً ناطقاً». وكانت تكره القتلَ أشدّ كره.

وقال طرمبكِن: «تلك هي المشكلة في الأمر، عندما صارت معظم الحيوانات عدوّةً وصارت خرساء. ولكن ما زال هنالك عددٌ قليلٌ من الصنف الآخر. فلا يمكنكَ أن تعرف صنف الحيوان أبداً، ولا تجرؤ على الانتظار حتّى تتأكّد».

فقالت سوزان: «يا لَهذا الدبّ الكبير المسكين! أنت لا تعتقد أنّه كان من الصنف الآخر فعلاً؟»

أجاب القزم: «ليس هذا! لقد رأيتُ وجهه وسمعتُ جأرته. فهو إنّما أراد البنت الصغيرة لفَطوره. وعلى ذكر الفطور، لم أرد أن أُخيّب آمال جلالاتكم لمّا قلتم إنكم ترجون أن يُقدِّم لكم الملك كاسپيان فطوراً لذيذاً، غير أنّ اللحم شحيحٌ جداً في المعسكر. ولا بأس بأكل شيء من لحم الدبّ. فمن المُعيب أن نترك هذه الجثّة بغير أن نأخذ شيئاً منها، ولن يؤخّرنا ذلك أكثر من نصف ساعة. وهل لي أن أسألكما أيّها الشابّان — بل ينبغي أن أقول: أيها المَلِكان — هل تعرفان كيف تسلخان جلدَ دبّ؟»

وقالت سوزان: «لنذهبْ نحن ونجلس في مكان بعيد تماماً. فأنا أعرف أيّ عمل بغيض وقبيح سيكون ذلك».

فارتعدت لوسي وأومأت برأسها إيجاباً. ولمّا قعدتا، قالت: «لقد خطرت في بالي فكرة مُروّعة، يا سُو».

«وما هي؟»

«ألن يكون رهيباً إذا بدأ البَشَر في عالمنا، هناك في وطَننا، يصيرون وحشيّين من الداخل، مثل الحيوانات البرّيّة هنا، وظلّ مظهرهُم مظهرَ البَشَر، بحيث لا تعرفين بعضَهم من بعض؟»

فقالت سوزان ذاتُ التوجّه العمليّ: «عندنا ما يكفينا من هموم هنا في نارنيا الآن، دون تخيُّل أُمورٍ كهذه!»

وعندما انضمّتا إلى الصبيَّين والقزم من جديد، كان هؤلاء قد قطعوا من أجود اللحم ما ظنّوا أنّهم يستطيعون حمْله. وليس اللحم النيء من الأشياء التي يصلح أن تملأ جيوبك بها، ولذا، لفّوه بالأوراق الخضراء ورتّبوه جيّداً. وقد كانوا جميعهم ذوي خبرة كافية بحيث علموا أنّهم سيشعرون شعوراً مختلفاً تماماً بشأن هذه الحِزَم الطريّة والبغيضة بعد أن يكونوا قد مشَوا مسافةً طويلة تجعلهم يُحسّون الجوع حقّاً.

ثمّ مضَوا يمشُون مُجهَدين أيضاً (وقد توقّفوا فقط لغسل ستّ أيدٍ يُعوزها الغسل، في أوّل ساقيةٍ مرُّوا بها) حتّى أشرقتِ الشمس وبدأتِ الطيور تُغرّد، وأخذ يطنّ بين نبات الخنشار عددٌ من الذُّباب أكبر ممّا تمنّوا. وقد

بدأ يزول عنهم التشنُّج من جرّاء تجذيفِ الأمس. وأخذ السرور يُعاوِد كُلاً منهم، إلّا أنّ الشمس حَمِيَت فنزعوا خُوَذهم وحملوها.

وبعد نحو ساعة، قال إدمون: «ألعلّنا نسير فعلاً في الاتّجاه الصحيح؟»

فقال بطرس: «لا أدري كيف يمكن أن نسير في الاتّجاه الخاطئ ما دُمنا لا ننحرف كثيراً إلى اليسار. وإنِ انعطفنا كثيراً نحو اليمين، فأسوأُ ما قد يحدث هو تضييع بعض الوقت بالوصول سريعاً إلى النهر الكبير وعدم اختصار الطريق».

وعادوا يمشون بجهد، بغير أيِّ صوت ما عدا خبْط أقدامهم وصَلصلة دروعهم الزَرَديّة. وبعد مدّةٍ لا بأس بها، قال إدمون: «أين صار ذلك الدَّفّاقُ الرَّقراق؟»

فقال بطرس: «كنتُ أحسبُ يقيناً أنّه ينبغي أن نكون قد بلغناه الآن. ولكنْ ليس لنا إلّا أن نواصل السير». وعلم كلاهما أنّ القزم كان ينظر إليهما بلهفة، إلّا أنّه لَمْ يقُل شيئاً.

ومع ذلك واصلوا تقدُّمَهم المُجهِد، وأصبحوا يشعرون بفرط حماوة دروعهم الزرَديّة وثقلها. وفجأةً قال بطرس: «ماذا فعلنا يا تُرى؟»

فإنّهم كانوا قد وصلوا، بغير أن يتنبّهوا، تقريباً إلى حافة جُرف أطلّوا منها على ممرٍّ ضيّق في أسفله نهر. وإلى الجانب الأبعد، كانت الصخور أعلى بكثير. ولم يكن أيُّ واحدٍ

من المجموعة، ما عدا إدمون (وربّما طرَمبكِن) يُجيد تسلُّق الصخور. فقال بطرس:

«آسف! الغلطة غَلطتي في سلوك هذا الطريق. لقد تهنا! فلم يسبق لي في حياتي قطُّ أن رأيتُ هذا المكان».

فأطلق القزم صَفرةً خفيفة من بين أسنانه. وقالت سوزان:

«آه، لِنرجعْ فعلاً ونسلكِ الطريق الآخر. لقد عرفتُ طول الطريق أنّنا سنضيع في هذه الغابات».

فقالت لوسي مُعاتِبةً: «سوزان! لا تتذمّري على بطرس هكذا. فالأمر صعبٌ جدّاً، وهو يبذل كلَّ جهدِه».

وقال إدمون: «وأنتِ أيضاً لا تُهاجمي سُوزان هكذا! أعتقد أنّها على حقٍّ تماماً».

فصاح طرَمبكِن: «من الدُبّ إلى الجُبّ! فإذا ضعنا ونحن آتون، فأيّة فرصة لنا في العثور على طريق العودة؟ وإن كنّا سنرجع إلى الجزيرة ونُباشر رحلتنا من جديد — على فَرَض أننا نقدر على ذلك — فربّما نتخلّى أيضاً عن المشروع كُلّه. وبهذا المعدّل، يكون ميراز قد قضى على كاسبيان قبل وصولنا إليه».

وسألت لوسي: «أتعتقد أنّ علينا أن نواصل تقدُّمنا؟»

فقال طرَمبكِن: «لستُ أظنُّ أنّ الملك الأعلى تائه فعلاً! فماذا يمنع أن يكون هذا النهر هو الدفّاق؟»

فردّ بطرس مُسيطراً على أعصابه بشيء من الصعوبة: «لأنّ الدفّاق ليس في ممرٍّ ضيّق».

وأجاب القزم: «تقول جلالتُك إنّه ليس... ولكنْ ألا ينبغي أن تقول: لم يكُن...؟ فأنت عرفتَ هذه البلاد من مئات السنين، بل ربمّا من ألف سنة. أفلا يُمكِن أن تكون قد تغيّرت؟ فربمّا يكون انهيارٌ للتُربة قد جرف نصف جانبِ تلك التلّة، تاركاً الصخور الجرداء، وتلك هي الجُروف التي تعرفها وراءَ الممَرّ. ثمّ يمكن أن يكون الدفّاق قد عمّق مجراه باستمرار سنةً بعد سنة حتّى حصلَت هذه الجُروف الصغيرة عند هذا الجانب. أو ربمّا حدث زلزال أو ما شابهه».

فقال بطرس: «لَمْ أفكّر في ذلك قطّ».

وتابع طرَمبكِن: «ومهما كان، حتى لو لم يكن هذا هو الدفّاق، فهو يجري نحو الشمال تقريباً، وهكذا يجب أن يصبَّ في النهر الكبير على كلّ حال. وأعتقد أنّني مررتُ بشيءٍ قد يكون هو إيّاه، في طريقي تحت. وعليه، فإذا سرنا مع مجرى النهر، إلى يميننا، نصل إلى النهر الكبير. وربمّا لا يكون الأمل عالياً كما رَجَونا، ولكنْ على الأقلّ لن نكون أسوأ حالاً ممّا قد يحصل لو سلكتم الطريق التي أردتُها».

فقال بطرس: «حقّاً إنّك شخصٌ لطيف المعشر، يا طرمبكِن. فهيّا بنا إذاً ننزل على هذا الجانب من الممرّ!»

إذ ذاك هتفت لوسي: «انظروا! انظروا! انظروا!»

فقال الجميع: «أين؟ ماذا؟»

أجابت لوسي: «الأسد، أصلان بنفسه. أمَا رأيتُم؟» وقد تغيّرَ وجهها تماماً وبرقت عيناها.

فبدأ بطرس يقول: «هل تعنين حقّاً...؟»

وسألت سوزان: «أين رأيته، كما تحسبين؟»

فقالت لوسي ضاربةً الأرض بقدمها: «لا تتكلّمي كالراشدين! فأنا لم أحسبْ أنّني رأيته، بل قد رأيته فعلاً».



وسأل بطرس: «أينَ يا لُو؟»

«فوقُ تماماً، بين نباتات الغُبيراء تلك. لا، بل على هذا الجانب من الممرّ. وفوق، لا تحت. تماماً بعكس الطريق التي تريد أن نسلكها. وقد أراد منّا أن نذهب إلى حيث كان هو، إلى فوق!»

فسأل إدمون: «وكيف تعرفين أنّ ذلك هو ما أراده؟» قالت لوسي: «هو... أنا... أنا أعرف من وجهه تماماً».

ونظر الآخرون بعضُهم إلى بعض بصمتٍ وحَيرة فيما بادر طرّمبكِن قائلاً:

«ربمّا تكون جلالتُها قد رأت أسداً بالفعل. ففي هذه الغابات أُسود، كما قيل لي. ولكنْ من غير الضروريّ أن يكون أسداً صديقاً وناطقاً تماماً كما لم يكُنْ ذلك الدبُّ دبّاً صديقاً وناطقاً!»

فقالت لوسي: «آه، لا تكُن بهذه الغباوة! هل تعتقد أنّني لا أعرف أصلان حين أراه؟»

وقال طرّمبكِن: «لا بدّ أن يكون أسداً عجوزاً الآن، إن كان هو الذي عرفته لمّا كُنتِ هنا من قبل! وإن كان هو إيّاه، فماذا يمنعه أن يكون قد صار متوحّشاً ومعتوهاً مثل كثير من الأُسود الأُخرى؟»

فاحمرّ وجه لوسي احمرار القِرمز، وأظنّ أنّها كانت ستهجم على طرّمبكِن لو لم يضعْ بطرس يده على ذراعها، قائلاً:

«إنّ ضَضع لا يدرك حقيقة الأمر! وكيف يمكنه أن يدركها؟ عليك أن تتقبّل، يا طرّمبكِن، أنّنا بالحقيقة نعرف عن أصلان فعلاً، أعني: قليلاً عنه. ويجب عليك ألاّ تتكلّم عنه كذلك بعد. فليس ذلك مُسعِداً، من جهة؛ وهو كلامٌ فارغ، من الجهة الأُخرى. إنمّا السؤال الوحيد هو: هل كان أصلان هناك حقّاً؟»

فقالت لوسي وعيناها مُغرَورِقتان بالدموع: «ولكنّني أعلم أنّه كان».

وقال بطرس: «نعم، يا لُو، ولكنّنا نحن لا نعلم، كما ترين».

فقال إدمون: «ليس علينا إلاّ التصويت!»

وأجاب بطرس: «طيّب! أنت أكبرُنا، يا ضَضع. فلأيّ خيارٍ تُصوّت: صعوداً أم نزولاً؟»

فقال القزم: «نزولاً! لستُ أعرف شيئاً عن أصلان. ولكنّني أعلم تماماً أنّه إن توجّهنا إلى اليسار وسِرنا إلى جانب الممرّ صعوداً فقد نقضي النهار كلّه قبل أن نجد مكاناً يمكننا أن نعبره فيه. أمّا إذا توجّهنا إلى اليمين وسرنا نزولاً، فلا بدّ أن نصل النهر الكبير بعد نحو ساعتين. وإن كانت هنا أيّة أُسود حقيقيّة، فينبغي لنا أن نبتعد عنها، لا أن نذهب نحوها».

«وماذا تقولين، يا سوزان؟»

فقالت سوزان: «لا تغضبي يا لُو. ولكنّني أعتقد أنّ علينا السير نزولاً. أنا مُرهقة جداً. فلنخرجْ من هذه الغابة البئسة إلى الهواء الطلق بأسرع ما يمكننا. ثمّ إنّ أيّ واحدٍ منّا ما عداكِ لم يرَ أيّ شيء».

وتابع بطرس: «وأنت، يا إدمون».

فتكلّم إدمون بسرعة وقد احمرّ وجهه قليلاً: «حسناً، ليس لديّ إلاّ هذا: لمّا اكتشفنا نارنيا أوّلَ مرّة منذ سنة — أو من ألف سنة، أيّاً كان — كانت لوسي هي التي اكتشفتها أوّلاً، ولم يصدّقها أيٌّ منّا. وأنا كنتُ أسوأ الجميع، كما أعلم جيّداً. ومع ذلك فقد كانت صادقةً رغم

كلّ شيء. أفلا يكون من الإنصاف أن نصدّقها هذه المرّة؟ إنّني أصوّت للصعود».

فقالت لوسي: «آه، يا إدمون!» وأمسكت بيده.

ثمّ قالت سوزان: «والآن، جاء دورك يا بطرس. وأنا أرجو فعلاً..».

فقاطعها بطرس: «أوه، سكوتاً، سكوتاً! ودعيني أفكّر. كنتُ أتمنّى ألاّ أضطرّ إلى التصويت».

لكنّ طرمبكِن قال جازماً: «أنت الملك الأعلى!»

وبعد وقفة طويلة قال بطرس: «نزولاً! أعرف أنّ لوسي قد تكون على حقّ في نهاية المطاف، ولكنّ لا أقدر أن أفعل شيئاً آخر، إذ يجب إمّا أن نصعد وإمّا أن ننزل».

وهكذا انطلقوا إلى يمينهم على طول الحافّة نزولاً مع مجرى النهر وسارت لوسي في مؤخّر الفرقة وهي تبكي بمرارة.

الفصل العاشر

عودة الأسد

لم يكُن السير على طول حافة الممرّ بالسهولة التي بدا عليها. فقبل أن تقدّموا أمتاراً كثيرة واجهتهم غاباتٌ فتيّة من الشربين طالعة على حافة الجُرف تماماً. وبعدما حاولوا اختراق هذه الغابة وهم يشقّون طريقهم بين الأغصان وينحنون تحتها نحو عشر دقائق، تبيّن لهم أنّهم في وسط تلك الغابة لن يتقدّموا في ساعة واحدة أكثر من نصف كيلومتر. وهكذا خرجوا راجعين وقرّروا أن يدوروا حول غابة الشربين. واضطرّهم ذلك إلى الابتعاد يميناً أكثر بكثير ممّا أرادوا، بعيداً عن منظر الجُرف الصخري وخرير النهر، حتّى بدأوا يخشَون أن يكونوا قد ضيّعوا الفرصة كلّها. ولم يعرف أيٌّ منهم كم الساعة، إلاّ أنّها كانت تتقدّم نحو أوج حرّ الظُّهر.

ولمّا تمكّنوا أخيراً من الرجوع إلى أعلى الممرّ الضيّق (على بعد كيلومتر ونصف تقريباً من النقطة التي انطلقوا منها)، وجدوا الصخور إلى جانب الممرّ أكثر انخفاضاً وتكسّراً بمقدارٍ لا بأس به. وسرعان ما وجدوا طريقاً نازلاً إلى قعر الممرّ، وتابعوا سيرهم بمحاذاة النهر. إلّا أنّهم أوّلاً استراحوا قليلاً وشربوا شربة ماء طويلة. ولم يعُد أيٌّ منهم يتحدّث بعدُ عن الفطور، ولا حتّى عن الغداء، مع كاسبيان.

ولعلّهم تصرّفوا بحكمة إذ لازموا الدفّاق بدلاً من السير على حافة الممرّ العُليا. فقد جعلهم ذلك متأكّدين من اتّجاههم؛ وبعد غابة الشربين تلك ظلّوا كلّهم يخشون أن يُرغَموا على الابتعاد كثيراً عن خطّ سيرهم المُقرّر فيضيعوا في الغابة. وقد كانت غابة قديمة بلا معابر، ولا يُمكنك أن تسير فيها أبداً بخطٍّ مستقيم. وتعترض في طريقك دائماً رُقع من العلّيق العسِر الاجتياز والأشجار الساقطة والأماكن المُوحِلة والشُّجيرات الشائكة. ولكنّ مَسِيل الدفّاق لم يكن أيضاً مكاناً جيّداً للسَّير. أعني أنّه لم يكن مكاناً مناسباً للأشخاص المستعجِلين. فهو مكان مُبهج لنزهة في عصر النهار تنتهي بفنجان شاي أو قهوة. إذ فيه كلّ ما تحتاج إليه لمناسبة كهذه: شلالات مُخرخِرة، مساقط ماء فضيّة، بِرَك عميقة بلون الكَهْرمان، صخور مكسوّة بالطحالب، أعشابٌ نهريّة على الضفاف تغوص فيها الأقدام، خنشارٌ أو سَرخس من كلّ نوع، يعاسيب

مُتطايرة بألوانها اللؤلؤيّة، صُقورٌ تطير في الأعالي بين حين وآخر. وقد عبر نسرٌ واحد (كما قال طرمبكِن وبطرس كلاهما). غير أنّ ما أراد الأولاد والقزم طبعاً أن يروه بأسرع ما يمكن كان النهر الكبير في الأسفل، وبيرونا، والطريق إلى حصن أصلان.

وبينما هم يواصلون السير، رأوا الدفّاق يزداد انحداراً أكثر فأكثر. وأصبحت رحلتهم بصورة متزايدة مسيرة تسلُّق أكثر ممّا هي سَيرٌ عادي، بل كانت في بعض الأماكن تسلُّقاً لصخور زَلِقة بقربها مَهوى رهيب إلى هوّاتٍ مظلمة، حيث النهر يهدر بجنون في الأسفل.

ولك أن تتأكّد أنّهم ظلّوا يُراقبون الجروف الصخريّة إلى يسارهم متلهّفين لرؤية أيّ أثر لشقٍّ أو مكان يستطيعون تسلُّقها منه. لأنّهم عرفوا كلّهم أنّه إن استطاعوا الخروج من قعر الممرّ إلى ذلك الجانب فلا يكون أمامهم إلا مُنحدَرٌ منبسط ومسيرةٌ قصيرة تماماً للوصول إلى مقرّ قيادة كاسبيان.

إذ ذاك أبدى الصبيّان والقزم رغبتهم في التوقّف لإشعال نار وشَيّ ما يحملونه من لحم الدبّ. ولكنّ سوزان لم تُرِد ذلك، بل كان كلّ ما أرادته، كما قالت: «مواصلة السير بلا توقُّف، حتّى الخروج من هذه الأدغال

الموحِشة البغيضة!» أمّا لوسي فكان التعب والبؤس قد نالا منها كثيراً بحيث لم تتمكّن من إبداء رأيها في أيّ شيء. ولكنْ بما أنّه لم يكن ممكناً العثور على أيّ حطب جافّ، لم يعُد رأي أيٍّ منهم بالغَ الأهميّة. وأخذ الصبيّان يتساءلان عن اللحم النيء: أهو حقاً سيّىء كما قيل لهما دائماً. فأكّد لهما طرَمبكِن أنّه كذلك.

وبطبيعة الحال، لو أنّ الأولاد حاولوا القيام بمثل هذه الرحلة قبل بضعة أيّام في إنكلترة، لكانوا استسلموا وفشلوا. وأعتقد أنّني أوضحت في ما سبق كيف بدأ وجودهم في نارنيا يُغيّرهم. حتّى إنّ لوسي كانت قد صارت الآن — إن صحّ التعبير — ثُلثُها فقط بنتاً صغيرة ذاهبة إلى المدرسة الداخليّة أوّل مرّة فيما ثُلثاها لوسي ملكة نارنيا.

وما لبثت سوزان أن هتفت: «وأخيراً!»

فقال بطرس: «أوه، مَرحى! مرحى!»

فإنّ ممرّ النهر كان قد انعطف حالاً، وإذا بمشهد كامل ينبسط أمام أنظارهم. إذ رأوا ريفاً مكشوفاً مُترامياً أمامهم نحو الأفق، وبينه وبينهم النهر الكبير كشريط فضّيّ. واستطاعوا أن يروا المكان العريض والقليل العُمق بصورة خاصّة، والذي كان في ما مضى مَخاضات بيرونا، ولكنّ باتَ فوقَه الآن جسرٌ طويل كثير القناطر. وظهرت وراء الناحية الأخرى منه مدينةٌ صغيرة.

وقال إدمون: «وحقّ الأسد، لقد خُضنا معركة بيرونا حيث تقوم تلك المدينة الآن».

وقد أبهج ذلك الصبيَّين أكثر من أيّ شيء آخر. فلا يمكنك إلّا أن تشعر بأنّك أقوى حين تنظر إلى مكان أحرزتَ فيه انتصاراً مجيداً قبل مئات السنين، فضلاً عن تولّي المُلك! وسرعان ما انهمك بطرس وإدمون بالحديث عن المعركة بحيث نسيا أقدامهما المُتقرّحة وثقل دروعهما الزَرَديّة. وكان ذلك مُشوّقاً للقزم أيضاً.

إذ ذاك غدا سيرُهم جميعاً أسرع، وصار تقدُّمهم أسهل. ومع أنّ الصخور الصُمّ كانت ما تزال إلى يسارهم، فإنّ الأراضيَ أصبحت أكثر انخفاضاً إلى يمينهم. وسرعان ما انتهى الممرّ إلى وادٍ واسع ليس فيه شلّالات ومساقط مياه، وما لبثوا أن دخلوا في غابة كثيفة من جديد.

ثُمّ سُمع فجأةً أزيزٌ وصوتٌ يُشبِه قرع نقّار الخشب. وبينما الأولاد ما زالوا يتساءلون أين سمعوا (قبل دُهور) صوتاً مثل ذلك ولماذا كرهوه إلى ذلك الحدّ، صرخ طرَمبكِن: «انبطحوا!» دافعاً لوسي في الوقت عينه (إذ صدف أنّها كانت بقربه تماماً) إلى الانبطاح بين الخنشار. وإذ أخذ بطرس يتطلّع لعلّه يرى سنجاباً، رأى ما كان ذلك: فإنّ سهماً طويلاً كريهاً كان قد انغرز في جذع شجرة فوق رأسه تماماً. وحالما جذب سوزان إلى الأسفل وانخفض هو أيضاً، مرّ من فوق كتفه سهمٌ آخر مُحدِثاً صريراً بغيضاً وارتطم بالأرض إلى جانبه. وقال طرَمبكِن لاهثاً: «هيّا بسرعة! تراجعوا! ازحفوا!»

فداروا وأخذوا يشقّون طريقهم زحفاً وهم يتلوّون



صعوداً، تحت نباتات الخنشار وسط سُحُبٍ من الذُّباب الذي يطنُّ طنيناً مزعجاً. وراحت السهام تئزُّ حواليهم. وأصاب أحدها خوذة سوزان مُحدِثاً أزّة حادّة ثمّ انحرف بعيداً. فأخذوا يزحفون زحفاً أسرع، حتّى تصبّب منهم العرق. ثمّ أخذوا يركضون وهم مُنحَنون انحناءً شبهَ تامّ. وأمسك الصبيّان بسيفيهما مخافة أن يتعثّرا بهما.

كان صعود التلّة من جديد فوق الأراضي التي سبق أن قطعوها نزولاً عملاً يجلب الغمّ. ولمّا شعروا بأنّهم لم يعودوا يستطيعون أن يركضوا بعد، ولو لإنقاذ حياتهم، سقطوا كلّهم على أرض طحلبيّة رطبة بقرب مسقط ماء، ووراء صخرة مُدوَّرة كبيرة. وإذ لبدوا هناك لاهثين، أدهشهم أن يروا أيَّ علوٍّ قد بلغوا.

وتسمّعوا بانتباه، فلم يسمعوا صوتَ مطاردة.

فقال طرَمبكِن وهو يأخذ نفساً عميقاً: «إذاً، لا بأس بذلك! إنّهم لا يفتّشون الغابة. إنّهم حُرّاسٌ فقط، كما

أرجو. ولكنّها تعني أنّ لميراز نقطة حراسة أماميّة هنا. إلّا أنّنا نجونا بجلدنا، فقد كان الخطر قريباً جدّاً».

وقال بطرس: «يجب أن أُضرَب على رأسي لأنّي أتيت بكم على هذه الطريق».

فقال القزم: «على العكس، يا صاحب الجلالة. فمن جهة، لم تكن أنت، بل كان جلالة أخيك الملك إدمون، مَن اقترح السفر بمحاذاة نهر البِلّور».

وقال إدمون، بعدما كان قد نسي ذلك تماماً بكلّ نيّة طيبة منذ أن بدأت الأمور تسوء: «يُخيَّل إليّ أنّ صَصَع على حقّ».

ثمّ تابع طرَمبكِن: «ومن جهة أُخرى، فلو سلكنا طريقي لَكُنّا، على الأرجح، وصلنا مُباشرة إلى نُقطة الحراسة تلك، أو على الأقلّ كنّا واجهنا الصعوبة عينها في تجنُّبها. فأعتقد أنّ سلوكنا طريق نهر البِلّور هذا قد آل إلى الخير».

فقالت سوزان: «هذه بَرَكة تختفي وراء قِناع!»

وقال إدمون: «قناع جُزئي!»

وقالت لوسي: «أظنّ أنّ علينا الآن أن نسير بمحاذاة أعلى الممرّ صعوداً من جديد».

فقال بطرس: «أنتِ بطلة، يا لُو! هذا أقرب شيء قُلتِه اليوم من قولك: لقد قلتُ لكم ذلك! فلنتابع تقدّمنا».

وقال طرَمبكِن: «وحالما نكون قد توغّلنا في قلب الغابة، مهما قال أيٌّ منكم، فسأُشعِل ناراً وأشوي طعام العشاء. ولكن علينا أن نبتعد كفايةً من هنا».

ولا داعيَ لأنْ نصفَ كم تعبوا وهم يصعدون الممرّ راجعين. فقد كان عملاً شاقاً بالفعل، ولكنّ الغريب تماماً أنّ كُلاً منهم شعر بمزيد من الابتهاج. فإنّهم كانوا يدورون حول ثاني مُنعطف، وكان لكلمة العشاء مفعولٌ عجيب.

ثمّ وصلوا إلى غابة الشربين التي سبّبت لهم كثيراً من الإزعاج فيما كان ضوء النهار ما يزال سائداً، وأعدّوا لهم مكاناً للمبيت في تجويفٍ فوقها تماماً. وقد أتعبهم جمع حطبٍ للوقود. لكنّ الأمر كان رائعاً لمّا تأجّجت النار وبدأوا يُخرِجون حِزم لحم الدبّ الرطب واللّزج، والذي لم يكنْ ليستهوي أيّ شخص قضى يومه في بيته. وخطرت للقزم أفكار ممتازة بشأن شيّ اللحم. فقد لفّت كلّ تفّاحة (وكان ما يزال لديهم بعض التفّاح) بشريحة من لحم الدبّ، وكأنّها فطائر تُفّاح باللحم بدل العجين، إلّا أنّها أثخن بكثير، ثمّ شُكّت كلّ شريحة بعصا مسنونة الطرف وشُويت وتخلّل عصيرُ التفّاح أجزاء اللحم المشويّ، فصارت الشرائح طريّة وشهيّة. وإذا كان لحم الدبّ الذي اقتات كثيراً بلحوم حيوانات أخرى قاسياً وغير لذيذ، فإنّ لحم الدبّ الذي أكل كثيراً من العسل والفواكه يكون ممتازاً؛ وقد تبيّن أنّ هذا الدبّ هو من النوع الثاني. ومن ثمّ كانت هذه الوجبة وليمة فاخرة حقّاً! وبالطبع لم يغسل أحدٌ يديه بعدها، بل استلقى الجميع وراحوا يراقبون الدخان متصاعداً من غليون طرمبكِن وقد مدّوا أرجلهم وأخذوا يُدردِشون. وراود الأملُ جميعَهم إذ ذاك بالتقاء الملك كاسبيان يومَ

غد، وبالتغلّب على ميراز في غضون بضعة أيّام. ومع أنّ شعورهم بذلك ربّما لم يكن منطقيّاً، فقد كان مُلِذّاً لهم.

وغطغط النوم عليهم واحداً بعد واحد، حتّى سطا عليهم كلّهم بسرعة فائقة.

ثمّ استيقظت لوسي من أعمق نوم يمكنك أن تتصوّره، ولديها شعور بأنّ الصوت الأحبّ إليها في العالم كلّه كان يناديها باسمها. وظنّت أوّلاً أنّه كان صوت أبيها، إلّا أنّها لم تبدُ على حقٍّ تماماً. ثمّ حسبت أنّه كان صوت بطرس، ولكنّ ذلك بدا مُستبعداً أيضاً. ولم تُرِد أن تنهض، لا لأنّها كانت ما تزال مُتعبة (على العكس، إذْ كانت قد استراحت تماماً وفارق الوجع كلّ عظامها) بل لأنّها شعرت بأقصى سعادة وراحة. وقد استطاعت أن تتأمّل فوقها قمر نارنيا، وهو أكبر من قمرنا، والسماء المرصّعة بالنجوم، إذ كان المكان الذي باتوا ليلتهم فيه مكشوفاً نسبيّاً.

ورنّ في أذنيها ثانيةً نداءٌ لها باسمها: «لوسي!»، لا بصوت أبيها ولا بصوت بطرس. فجلست ترتعش ابتهاجاً، لا خوفاً. وكان القمر مُشرِقاً بحيث اتضحت أمامها تضاريس الغابة حواليها كما لو كان الوقت نهاراً، مع أنّها بدت أكثر إقفاراً ووحشيّةً. كانت غابة الشربين وراءها، وإلى يمينها بعيداً رؤوس الصخور المسنّنة في الجانب الأقصى من الممرّ العميق، وأمامها تماماً عُشبٌ مكشوف يمتدّ إلى حيث تبدأ فُرجةٌ بين الشجر على بعد رمية قوسٍ منها. فحدّقت لوسي تحديقاً حادّاً إلى أشجار

تلك الفُرجة. وقالت لنفسها: «عجباً، أعتقد فعلاً أنّها تتحرّك! إنّها تتمشّى».

ثمّ نهضت وقلبها يدقّ بسرعة وسارت نحو الأشجار. فإذا في الفُرجة بين الأشجار صوتٌ أكيد، صوتٌ يُشبِه ما تُصدِره الأشجار حين تهبّ عليها الريح الشديدة، رُغم عدم وجود ريح تلك الليلة. ومع ذلك لم يكُن بالحقيقة صوت أشجار مألوفاً. إذ أحسّت لوسي أنّ فيه لحناً عذباً، ولكنّها لم تتمكّن من التقاط اللحن كما لم تتمكّن من التقاط الكلمات لمّا كادت الأشجار تُكلّمها البارحة. ولكنْ كان هناك على الأقلّ إيقاعٌ مَرِح، فأحسّت أنّ قدميها تُريدان أن ترقصا إذ اقتربت أكثر. فلم تشكّ عندئذٍ أنّ الأشجار كانت تتحرّك فعلاً، مُتداخِلَةً بعضُها في بعض كما في رقصة ريفيّة جماعيّة. (ولقد فكّرت لوسي: «أنا أعتقد أنّ الأشجار حين ترقص يجب أن تكون الرقصة ريفيّة تماماً».) وقد باتتِ الآن بين الأشجار تقريباً.

بدت لها الشجرة الأولى التي نظرت إليها، أوّلَ وهلة، أنّها ليست شجرة على الإطلاق بل رجُلٌ ضخم ذو لحية قاسية وشعر منفوش شبيه بالشجيرات الشائكة. ولم تخف، لأنّها رأت مثل هذه الأشياء من قبل. لكنّها لمّا نظرت إليه ثانية، وجدته مجرّد شجرة، وإن كان ما زال يتحرّك. وما كان يُمكنك طبعاً أن تعرف ألَه قدمان أم جذور، لأنّ الأشجار حين تتحرّك لا تمشي على سطح الأرض بل تخوض فيها كما نخوض نحن في الماء. وقد حدث الأمر عينُه بالنسبة إلى

كلّ شجرة تأمّلتها لوسي. ففي لحظة كانت الأشجار تبدو بأشكال المَرَدة والماردات الصديقة الأنيسة التي يتقمّصها عُرسان الغابات وحوريّاتها عندما يدعوهم سحرٌ أبيض إلى الانبعاث في حياة فيّاضة؛ وفي اللحظة التالية كانت كلّها تبدو بمظهر الأشجار من جديد. ولكنّها حين تبدو كأنّها أشجار، تكون كشَجَرٍ بَشَرٍ على نحوٍ غريب. وحين تبدو كأنّها بَشَر، تكون مثل أشخاصٍ لهم أغصان وأوراق بصورة غريبة. وظلّ يصدر كلّ حين ذلك الصوتُ المَرِح العجيب المُنعِش الذي يجمع بين الحفيف والهفيف والأنغام العذبة.

وقالت لوسي: «إنّ هذه الأشجار تكاد أن تكون مستيقظة، ولكنْ ليس تماماً». وقد علمَت أنّها هي مستيقظة كليّاً، بل أكثر استيقاظاً ممّا يكون أيّ إنسان عادةً.

فذهبت إلى وسط الأشجار بلا خوف، راقصةً وهي تقفز إلى هذه الناحية وتلك لتتجنّب أن يدوسها أولئك الشُرَكاء الضِّخام. غير أنّ اهتمامها بالأشجار كان جزئيّاً. فقد أرادت أن تتجاوزها لتصل إلى شيء آخر: إذ من ورائها ناداها ذلك الصوتُ الحبيب.

وسرعان ما عبرت وسط الأشجار، إذ كانت بالحقيقة حلقة من الشجر حول ساحة مركزيّة مكشوفة، وهي تتساءل تقريباً: أكانت تستخدم ذراعيها لإبعاد الأغصان جانباً أم لتضع يدها بأيدي راقصين آخرين انحنَوا للوصول إليها في حلقة رقصٍ كبيرة. ثمّ خرجت من وسط فوضى الأشجار المتبدّلة ذات الأنوار والظلال الجميلة.



فوقعت عيناها على حلقة عُشب، ناعمة كمرجة، وحواليها ترقص أشجار قائمة. بعدئذٍ — ويا لفرحتها! — وجدته هُناك: ذلك الأسدَ الضخم، يتألّق ساطعَ البياض تحت ضوء القمر، وتحته ظلُّه الأسود الكبير.

ولولا تحريك ذنبه لحُسِبَ أسداً حجرياً. إلّا أنّ لوسي لم تفكّر في ذلك قطّ. ولم تتمهّل قطعاً لتُفكّر: أهو أسدٌ صديق أم لا، بلِ اندفعت مُسرِعةً إليه. وأحسّتْ أنّ قلبها سينفجر لو تأخّرت لحظة واحدة. وتالي شيءٍ أدركته كان أنّها وجدت نفسها تُقبّله، وتطوّق عنقه بذراعيها بقدْر استطاعتها، وتغمر وجهها بلُبدته الحريريّة الغزيرة الجميلة. ثمّ قالت وهي تبكي بكاءً متقطّعاً:

«أصلان، أصلان، أصلان العزيز... أخيراً!»

فانقلب الحيوان العظيم على جنبه حتّى وقعت لوسي بين كفّيه الأماميّتين، في وضع بين الجلوس والاستلقاء. وانحنى إلى الأمام ومسّ أنفها قليلاً بكفّه، فلفّها نَفَسُه الدافئ، وحدّقت إلى فوق متأمّلة الوجه الكبير الحكيم.

وقال: «أهلاً بكِ يا بُنيّتي؟»

فقالت: «أصلان، أنت أكبر حجماً!»

أجابها: «لأنّكِ أنتِ كبرتِ في السنّ، يا صغيرتي».

«أليس لأنّكَ أنت كبرتَ أيضاً؟»

«أنا لم أكبر. ولكنْ كلّما نموتِ سنةً تجدينني أكبر».

وقد بلغت سعادتُها حدّاً جعلها لا تريد أنْ تتكلّم حيناً. ولكنْ أصلان تكلّم، فقال:

«لوسي، علينا ألا نستلقي هنا طويلاً. فلدينا عمل يجب أن يُنجَز، وقد ضاع اليوم كثير من الوقت».

فأجابت لوسي: «نعم، ألم يكُن ذلك عيباً؟ أنا قد رأيتُك حقاً. وهم لم يُصدّقوني. إنّهم جميعاً كثيرو..».

ومن مكانٍ ما في أعماق جسم أصلان صدرت شِبهُ جأرةٍ لا تكاد تُسمَع. فقالت لوسي، وهي العارفة ببعض طِباعه:

«أنا آسفة! لم أقصدِ البدء بالتهجُّم على الآخرين. ولكن الغلطة لم تكن غلطتي، أليس كذلك؟»

ونظر الأسد مباشرةً في عينيها. فقالت:

«آه، يا أصلان! أنت لا تقصد أنّها كانت غلطتي؟ كيف كان يمكنني... لم يكن ممكناً أن أترك الآخرين وأتقدّم إليك وحدي، فكيف كان يمكنني ذلك؟ لا تنظر إليَّ هكذا... أوه، حسناً، أظنُّ أنّه كان يمكنني. نعم، وما كنتُ لأكون وحدي — أنا متأكّدة — لو كنتُ معك! ولكنْ أيُّ خير كان في ذلك؟»

فلم يقل أصلان كلمة واحدة. وتابعت لوسي بشيء من التردُّد:

«أتقصد أنّه كان يمكن أن تؤول الأمور إلى الخير... بطريقة ما؟ ولكنْ كيف؟ رجاءً، يا أصلان؟ ألا ينبغي أن أعرف؟»

«أن تعرفي ما كان يمكن أن يحدث، يا بُنيّتي؟ لا! فلا أحد أبداً يُقال له ذلك».

[illegible] لوسي: «يا لَلعجب!»

[illegible] أصلان: «ولكنْ أيٌّ واحد يمكن أن يعرف ما سو[illegible]حدث. فإن رجعتِ إلى الآخرين الآن، وأيقظتِهم، وقُلـ[illegible]هم إنّكِ قد رأيتِني أيضاً، وإنّ عليكم جميعاً أن تنهضوا [illegible]حالاً وتتبعوني، فماذا سيحدث؟ هنالك فقط طر[illegible]واحدة لمعرفة ذلك».

[illegible] لوسي لاهثةً: «أتعني أنّ ذلك هو ما تريد منّي أن [illegible]؟»

[illegible] يا صغيرتي».

[illegible]ت: «وهل يراك الآخرون أيضاً؟»

[illegible]: «ليس أوّلَ وهلة بالتأكيد. أمّا في ما بعد، فالأ[illegible] يعتمد على ما قد يحدث».

[illegible]: «ولكنّهم لن يُصدّقوني!»

[illegible] أصلان: «هذا لا يهمّ».

[illegible]ت لوسي: «يا لَلعجب! وأنا [illegible] سُررت جدّاً برؤيتك مر[illegible]، وظننتُ أنّك ستأذن لي بالبقاء، وظننتُ أنّك ستـ[illegible] مزمجراً فترُوِّع الأعداء كلّهم فيهربون — كما حصل في [illegible] الماضية. أمّا الآن فكلُّ شيء سيكون رهيباً!»

[illegible] أصلان: «هذا صعبٌ عليكِ يا صغيرتي. ولكنّ الأ[illegible] لا تحدث مرّتين بالطريقة نفسها. ولطالما كانت الأ[illegible] صعيبة علينا في نارنيا قبل الآن».

[illegible] لوسي رأسها في لُبدته كي تختبىء من و[illegible] ولكن لا بُدَّ أنّه كان في لُبدته سحر. فقد استطاعت

أن تُحِسَّ قوّةً أسديّة تنتقل منه إليها. وفجأةً تماماً جلست وقالت: «أنا آسفة! أنا مستعدّة الآن».

فقال أصلان: «أنتِ لَبُوءة الآن! والآن ستُجدَّد نارنيا كلُّها. إنّما تعاليَ. ليس عندنا وقتٌ نُضيّعه!»

ثمّ نهض ومشى بجلال وخُطىً هادئة ثابتة، عائداً إلى حلقة الأشجار الراقصة التي كانت لوسي قد جاءت منها قبل قليل، وذهبت لوسي معه، واضعةً على لُبدته يداً مُرتجفة قليلاً. وافترقت الأشجار أمامهما كي يمرّا، مُتقمّصة أشكالها البشريّةَ لحظةً واحدة. ولمحت لوسي حوريّات غابات وعرسان غاباتٍ من الجنّ طوالاً وحِساناً ينحنون للأسد جميعاً؛ وفي اللحظة التالية تعود كلُّها أشجاراً، لكنّها تظلّ منحنية، بحركاتٍ جميلة ورشيقة جدّاً من أغصانها وجذوعها بحيث يظهر انحناؤها ذاتُه نوعاً من الرقص.

وعندما تجاوزا الأشجار، قال أصلان: «الآن يا بُنيّتي، سأنتظرك هنا. اذهبي وأيقظي الآخرين وقولي لهم أن يتبعوني. فإن رفضوا، فعليكِ عندئذٍ ان تتبعيني أنتِ وحدكِ!»

إنّه أمرٌ رهيب أن تُضطرّ إلى إيقاظ أربعة أشخاص، كلُّهم أكبر منك سنّاً، وكُلُّهم مُتعَبون جدّاً، حتّى تقول لهم شيئاً يُحتمَل ألّا يُصدّقوه، وتطلب إليهم القيام بشيء لن يروقهم حتماً. إنّما فكّرت لوسي: «عليّ ألّا أفكّر في هذا، بل عليّ أن أفعله فحسب!»

فذهبت إلى بطرس أوّلاً وهزّته هامسةً في أذنه: «قُم يا بطرس. هيّا! أصلان هنا. وهو يقول إنّ علينا أن نتبعه حالاً».

فقال بطرس، على غير توقُّع: «حتماً، يا لُو! مهما طلبتِ». وتشجّعت لوسي، إلّا أنّ بطرس انقلب في الحال ونام من جديد، فلم ينفع ذلك شيئاً.

ثمّ جرّبت إيقاظ سوزان. فاستيقظت سوزان فعلاً، ولكنْ فقط لتقول بلهجة الكبار المزعجة جدّاً: «لقد كنتِ تحلمين، يا لوسي. فعودي إلى النوم».

وتوجّهت تالياً إلى إدمون. فكان إيقاظه صعباً جدّاً، ولكنْ لمّا أيقظته أخيراً استيقظ فعلاً وجلس، وقال بصوتِ تذمُّر: «إيه؟ عمّ تتكلّمين؟»

فكرّرت قولها من جديد. وكان هذا واحداً من أسوإ أجزاء مهمّتها، إذ كلّما كرّرته بدا أقلّ إقناعاً.

لكنّ إدمون قال: «أصلان! مرحى، مرحى! أين؟»

فالتفتت لوسي إلى الوراء بحيث تمكّنت من رؤية الأسد منتظراً، وعيناه الصبورتان مركّزتان عليها، وقالت مشيرةً بيدها: «هناك!»

وسأل إدمون أيضاً: «أين؟»

«هناك، هناك! ألا تراه؟ إلى هذه الناحية من الأشجار تماماً».

فحدّق إدمون بحدّة حيناً ثمّ قال: «لا. ليس من شيء هناك. لقد بهرك ضوء القمر وشوّش ذهنك. وهذا يحدث

أحياناً كما تعلمين. لقد ظننتُ لحظةً أنّني أنا نفسي رأيتُ شيئاً. إنّه مجرّد توهُّم... بَصَريّ، كما يُسَمُّونه؟»

فقالت لوسي: «أنا أستطيع أن أراه طوال الوقت. إنّه ينظر إلينا مباشرةً».

«إذاً، لماذا لا أقدر أن أراه؟»

«هو قال إنّكَ ربّما لا تقدر أن تراه».

«لماذا؟»

«لا أدري. ذلك ما قاله هو».

فقال إدمون: «أوه، أُفٍّ من هذا كلّه. أتمنّى فعلاً ألّا تظلّي تتخيّلين أموراً. ولكنْ أظنُّ أنّ علينا أن نوقظ الآخرين».

الفصل الحادي عشر

الأسد يُزمجر

عندما استيقظت المجموعة كلُّها أخيراً، كان على لوسي أن تحكي قصّتها مرّةً رابعة. وقد كان الصمت المطبق الذي تلى ذلك مُخيِّباً إلى أقصى حدّ.

وقال بطرس بعدما حدّق بعينيه جيّداً: «لا أقدر أن أرى أيّ شيء، يا سوزان، فهل تقدرين أنت؟»

فأجابت سوزان بحدّة: «لا، بالطبع لا أقدر. لأنّه ليس من شيء حتّى يُرى. فإنّ لوسي إنّما كانت تحلم. استلقي يا لوسي وعودي إلى النوم».

وقالت لوسي بصوت مرتجف: «وأرجو أيضاً، يا سوزان، أن تأتي أنتِ معنا فعلاً. لأنّ... لأنّ عليّ أنا أن أذهب معه، سواءً ذهب أيُّ واحد غيري أم لم يذهب».

فردّت سوزان: «لا تتكلّمي كلاماً فارغاً، يا لوسي. قطعاً لا يُمكنكِ أن تنطلقي وحدكِ. لا تدعها تذهب، يا بطرس. إنّها تُسيء السلوك تماماً».

وقال إدمون: «أنا سأذهب معها، إذا كان ينبغي لها أن تذهب. فقد سبق أن كانت على حقّ!»

وأجاب بطرس: «أعرف أنّها كانت... ولعلّها كانت على حقٌّ صباح أمس. فمن المؤكّد أنّ نزولنا على حافة الممرّ لم يكن محظوظاً. ولكن... في هذه الساعة من الليل... ثمّ لماذا لا يكون أصلان منظوراً لعيوننا؟ فلم يكن هكذا قطّ، وليس هذا من عاداته. ماذا يقول صَضع؟»

وقال القزم: «آه، لا أقول شيئاً أبداً. فإذا ذهبتم كُلّكم، أذهب أنا معكم طبعاً. وإذا افترقتم، أذهب مع الملك الأعلى. فهذا واجبي تجاهه وتجاه الملك كاسبيان. ولكنْ إن كنتَ تسألني عن رأيي الخاصّ، فأنا قزم صريح لا يعتقد وجود فرصة كبرى في العثور على طريقٍ ليلاً حيث تعذّر عليكم العثور على طريقٍ نهاراً. وأيُّ خير لي في الأسود المسحورة التي هي أسود ناطقة ولكنّها لا تتكلّم، وفي الأسود الصديقة مع عدم نفعها لنا في شيء، والأسود الكبيرة الضارية مع عدم تمكُّن أحد من رؤيتها؟ هذا كلّه عَبَث بعبث من وجهة نظري!»

فقالت لوسي: «إنّه يخبط الأرض بكفّه طالباً منّا الإسراع. ينبغي لنا أن نذهب الآن. على الأقلّ ينبغي لي أنا..».

وقالت سوزان: «ليس لكِ حقٌّ في أن تحاولي إجبار أيٍّ منّا على هذا النحو. فأنت واحدة ونحن أربعة، وأنتِ الصُغرى!»

فردّ إدمون متذمّراً: «أوه، هيّا بنا! علينا أن نذهب. فلن يكون سلامٌ حتّى نذهب». وقد نوى تماماً أن يُساند

لوسي، لكنّهُ كان منزعجاً من فقدانه نوم ليلته، فأخذ يعوّض عن ذلك بمحاولته أن يقوم بكلّ شيء بأقصى عُبوسٍ يستطيعه.

وقال بطرس: «فلنتقدّم إلى الأمام إذاً»، واضعاً ذراعه بمَلَل داخل رباط تُرسه، ومُعتمِراً خوذته. وكان من شأنه في أيِّ وقت آخر أن يقول كلاماً طيّباً للوسي، إذ كانت أُخته المُفضّلة، وقد عرف مقدار البؤس الذي لا بدّ أن تكون شاعرةً به، كما عرف أنّ الغلطة لم تكن غلطتها، مهما حدث. ولكنّهُ مع ذلك لم يستطِع ألّا ينزعج منها قليلاً.

وكانت سوزان أسوأ الكلّ، فقالت: «على فرضِ أنّني بدأتُ أتصرّف مثل تصرُّف لوسي، فإنّي قد أُهدّد بالبقاء هنا سواءٌ ذهبتم أنتمُ الباقين أم لم تذهبوا. وأنا أعتقد اعتقاداً جازماً أنّني سأبقى».

فقال طَرَمبكِن: «أطيعي الملك الأعلى يا صاحبة الجلالة، ولننطلقْ جميعاً. فإن كان لا يُسمَح لي بالنوم، أُفضّل التقدّم حالاً على الوقوف هُنا ونحن نتحدّث».

وهكذا انطلقوا أخيراً، ولوسي ماشيةً في المقدّمة وهي تعضُّ شفتها مُحاوِلةً ألّا تقول لسوزان كلّ ما فكّرت في قوله لها. غير أنّها نسِيت ذلك كلّه لمّا ثبّتت نظرها على أصلان. وقد دار وأخذ يمشي على مهلٍ أمامهم على مسافةٍ تقلّ عن ثلاثين متراً. ولم يكن لدى الآخرين لإرشادهم سوى توجيهات لوسي، لأنّ أصلان لم يكن بالنسبة إليهم غير منظورٍ فقط، بل كان صامتاً أيضاً. فإنّ

مخالبه الكبيرة الشبيهة بمخالب الهرّ لم تُحدِث أيّ صوتٍ على العشب. وقد تقدّمهم أصلان إلى يمين الأشجار الراقصة (ولم يَدرِ أحدٌ هل كانت ما تزال ترقص، لأنّ عينَي لوسي كانتا شاخِصَتين إلى الأسد وأعين الباقين مُثبّتة على لوسي) وإلى مقربة من حافة الممرّ العميق. وفكّر طرمبكِن: «صوتٌ وصدى! أرجو ألّا ينتهي بنا هذا التصرُّف الغبيّ إلى تسلُّق الصخور الزَّلِقة تحت ضوء القمر وإلى كسر أعناقنا!»

وظلّ أصلان وقتاً طويلاً يمشي على طول أعالي الجُروف الصخريّة. ثمّ وصلوا إلى مكانٍ كانت بعض الأشجار الصغيرة فيه طالعةً على حافة الجروف تماماً. فدار الأسد واختفى بين تلك الأشجار، وحبست لوسي أنفاسها، إذ تصوّرت أنّه قد اندفع من على الجُرف ساقطاً بسرعة، ولكنّها كانت أكثر انشغالاً بإبقائه تحت نظرها من أن تتمهّل لتُفكّر في الأمر. فسارعت خَطوَها حتّى وجدت نفسها سريعاً وسط الأشجار هي أيضاً. وإذ نظرت إلى تحتُ، استطاعت أن ترى معبراً منحدراً وضيّقاً يميل إلى قلب الممرّ الضيّق بين الصخور، وأصلانَ نازلاً فيه. ثمّ التفت ونظر إليها بعينين سعيدتَين. فصفّقت بيديها وأخذت تندفع نازلةً وراءه. ومن ورائها سمعت أصوات الآخرين تنادي: «هاي، لوسي! انتبهي بحقّ السماء. أنتِ على حافة الممرّ تماماً! ارجِعي...». ثُمّ بعد لحظةٍ سمعوا صوتَ إدمون قائلاً: «كلّا، إنّها على حقّ. فهناك بالفعل طريق نزولاً».

وفي منتصف الدرب نزولاً لحق بها إدمون، ثمّ قال بتأثّر بالغ: «انظري! انظري! ما ذلك الخيال الكبير الزاحف أمامنا نزولاً؟»

«إنّه ظِلّه هو».

«أعتقد فعلاً أنّكِ على حقّ، يا لُو! لا أحتمل أن أُفكّر كيف لم أرَ الظلّ قبلاً. ولكن أين هو صاحبُه؟»

«مع ظلّه بالطبع! ألا تقدر أن تراه؟»

«حسناً، كدتُ أحسبُ أنّني رأيتُه... لحظةً واحدة. يا له من نورٍ عجيب!»

وطلع صوتُ طرَمبكِن من وراء ومن فوق قائلاً: «تقدّم أيّها الملك إدمون، تقدّم!» ثمّ من وراءُ أبعدَ وعند القمّة تقريباً بعد، سُمع صوت بطرس قائلاً: «هيا، أسرعي يا سوزان. ناوليني يدَكِ. عجباً، حتّى الطفلُ يقدر أن ينزل من هنا. ثمّ توقّفي عن التذمّر فعلاً!»

وما هي إلّا دقائق قليلة حتّى وصلوا إلى القعر، فضجّ في آذانهم هديرُ المياه. وبمشية متهادية، أخذ أصلان يتنقّل كالهرّ من حجر إلى حجر عبرَ النهر. وفي الوسط، توقّف وانحنى ليشرب، وإذ رفع رأسه الأشعر، يتقطّر منه الماء، التفت ليواجههم من جديد. وهذه المرّة رآه إدمون. فهتف: «أوه، أصلان!» مندفعاً إلى الأمام كالسهم. ولكنّ الأسد دار بحركة رشيقة خاطفة وأخذ يمشي بخُطى خافتة صاعداً المنحدر على الضفّة القُصوى من الدفّاق.

وصاح إدمون: «بطرس، بطرس! هل رأيت؟»

فقال بطرس: «رأيتُ شيئاً ما. ولكنّ الرؤية مشوّشة في ضوء القمر هذا. إنّما لِنَمضِ إلى الأمام، وللوسي ثلاثةُ هُتافات! ثمّ إنّي لا أشعر الآنَ بنصف تعبي».

واقتادهم أصلان بلا تردُّد نحو يسارهم صعوداً على ضفّةِ الممرّ. وكانتِ الرحلة كلُّها عجيبةً وحالمة: النهر الهدّار، والعشب الباهت الرطب، والصخور التي تلوح قدّامَهم لامعةً قليلاً، ودائماً خَطوُ الحيوان العظيم أمامهم بجلالٍ وسكون. وبات في وسع الجميع، ما عدا سوزان والقزم، أن يرَوه الآن.

وما لبثوا أن وصلوا إلى طريقٍ منحدِرٍ آخر، مُقابِلَ الجُروف القصوى في الأعلى. وكانت تلك الجُروف الصخريّة أعلى بكثيرٍ من تلك التي هبطوها قبل قليل، فإذا بالمسيرة صعوداً تغدو مشياً متعرّجاً طويلاً ومُجهداً. ومن الخير أنّ القمر شعّ فوق شقّ الممرّ تماماً بحيث زالت الظِلال عن كِلا جانبَيه.

وكاد صواب لوسي يطير لمّا اختفى ذيل أصلان وقائمتاه الخلفيّتان على رأس التلّ. إلّا أنّها بآخر ما لديها من جهدٍ بذلَتْه اندفعت وراءه وخرجت إلى الأعلى، مرتجفة الرِجلَين ومبهورة الأنفاس قليلاً، إلى حافة التلّة التي ما انفكّوا يحاولون بلوغها منذ غادروا نهر البِلّور. وقد امتدّ السفح الطويل المُنبسِط إلى حيث تلاشى لتلوح أشجارٌ على مسافةٍ تزيد عن ثُلثَي كيلومتر. وكان ذلك السّفح

مكسوّاً بالعُشب والخَلَنج وبعض الصخور الكبيرة جدّاً والتي تألّقت ببياضها تحت ضوء القمر. فعرفت لوسي تلك التلّة، إذ كانت تلك التي تقوم عليها طاولة الحجر.

ومضى الآخرون يسيرون وراء لوسي صعوداً ودروعهم تُصَلصِل وتُخشخِش، فيما أصلان يتهادى أمامَهم وهم يتبعونه جميعاً.

وقالت سوزان بصوتٍ خافت جدّاً: «لوسي!»

فردّت لوسي: «نعم؟»

«أنا أراه الآن؛ إنّي متأسّفة».

«لا بأس عليكِ!»

وتابعت سوزان: «ولكنّني طالما كنتُ أسوأ بكثير ممّا تعرفين. فبالحقيقة أنّني صدّقتُ أنّه كان هو إيّاه يوم أمس. وذلك عندما حذّرتِنا من النزول وسط غابة الشربين. وبالحقيقة أنّني صدّقت حقّاً أنّه كان هو إيّاه هذه الليلة لمّا أيقظتِنا. أعني: كنتُ أعتقدُ في أعماق كياني. أو كان يمكنني أن أُصدّق ذلك لو سمحتُ لنفسي. ولكنّني إنّما أردتُ أن نخرج من بين الغابات، وأنا... أنا... لستُ أدري. فماذا أقول له يا تُرى؟»

فاقترحت لوسي: «ربّما لا ينبغي أن تقولي الكثير!»

وسرعان ما وصلوا إلى الأشجار، ومن بينها استطاع الأولاد أن يروا الرابية العظيمة، حصن أصلان، وقد أُقيم على طاولة الحجر منذ أيّامهم.

وتمتم طرَمبكِن: «إنّ فريقنا لا يحرس حراسةً جيّدة.

كان ينبغي أن يعترضنا أحدٌ قبل الآن..».

فقال الأربعة الآخرون: «سكوتاً!» لأنّ أصلان الآن توقّف ودار ووقف مقابلهم، وهو يبدو بمنظر جليلٍ ومهيبٍ جدّاً حتّى إنّهم شعروا بمثل الابتهاج الذي يمكن أن يشعر به أيّ خائف وبمثل الخوف الذي يمكن أن يشعر به أيّ مبتهج. وتقدّم الصبيّان بخُطى واسعة، وقد أفسحت لهما لوسي، فيما انكمشت سوزان والقزم.

ثمّ قال بطرس، جاثياً على إحدى رُكبتيه وواضعاً كفّ أصلان الثقيلَ على وجهه: «أوه، يا أصلان! أنا مسرور جدّاً. وأنا آسف كثيراً. لقد كنتُ أقودهم قيادةً خاطئة منذ انطلقنا، وخصوصاً صباحَ أمس».

فقال أصلان: «يا بُنيّ العزيز!»

ثمّ التفت ورحّب بإدمون، قائلاً كلمة واحدة: «نِعمّا!»

وبعد وقفةٍ رهيبة، قال الصوت العميق: «سوزان!» ولم تُجب سوزان بشيء، إلّا أنّ الآخرين حسبوها تبكي، فيما تابع أصلان قائلاً:

«لقد أصغيتِ إلى مخاوفك، يا بنيّتي. تعالَي حتى أغمرَكِ بأنفاسي. انسَي مخاوفَكِ! أأنتِ شُجاعةٌ من جديد؟»

فقالت سوزان: «قليلاً، يا أصلان».

ثمّ قال أصلان بصوتٍ أعلى بكثير، فيه أثرٌ ضئيل من الزئير، وهو يضرب جَنبيهِ بذيله:

«والآن! أين هذا القَزَم الصغير، هذا المُسايفُ ورامي السهام المشهور الذي لا يؤمن بالأسود؟ تقدَّمْ إلى هنا، يا ابنَ

الأرض، تقدّم إلى هُنا!»... وكانتِ الكلمة الأخيرة خالية من أيّ أثرِ زئير، بل كادت تكون من الكلام المجرّد الحقيقي.

فقال طَرَمبكِن لاهثاً: «يا ويلي، يا ويلاه!» وإذ كان الأولاد يعرفون أصلان جيّداً بحيث لاحظوا أنّه أحبّ القزم كثيراً، فإنّهم لم يضطربوا ولا قلقوا، ولكنّ الوضع بالنسبة إلى طَرَمبكِن كان مختلفاً تماماً إذ لم يكن قد رأى قطُّ أيّ أسد، فكيف يكون الأمرُ مع هذا الأسد؟ إلّا أنّه فعل الأمر المنطقيّ الوحيد الذي كان ممكناً أن يفعله. ذلك أنّه بدلاً من الفرار تقدّم نحو أصلان مُتمايلاً.



ثمّ وثب أصلان. أرأيتَ مرّةً هُرَيرةً صغيرة جدّاً تحملها الهِرّة الأمُّ بفمها؟ هكذا صار! وإذا بالقزم يتدلّى من فم أصلان متكوّماً في كُرةٍ صغيرة تعسة. وهزّه الأسد هزّةً واحدة، فخشخش درعه كلّه كصندوق سمكريّ. وبلمح البصر طار القزم في الهواء. وقد كان سالماً كما لو أنّه في سريره، مع أنّه لم يشعر بذلك. وإذ هبط التقطه المِخلبان المُخمليّان الضخمان بمثلِ رِفقِ ذراعَي الأمّ، وأقعدتاه

على الأرض، بجلسةٍ معتدلةٍ أيضاً.

وسأل أصلان: «يا ابنَ الأرض، هل نكون صديقَين؟»

فقال القزم لاهثاً «نا-عا-ها-خم» قاصداً أن يقول «نعم»، إذ لم يكن قد استردّ أنفاسه بعد.

وقال أصلان: «والآن، ها هو القمر يغيب. انظروا وراءكم، إنّ الفجر يكاد يطلع. فأنتم الثلاثة، ابنَي آدم وابنَ الأرض، ادخلوا الرابية بسرعة وتعاملوا مع ما تجدونه هناك».

كان القزم ما يزال معقود اللسان، ولم يجرؤ أيّ الصّبيّين على سؤال أصلان إن كان سيتبعهم. وسحب الثلاثة سيوفهم وأدّوا التحيّة، ثمّ داروا ومضوا في قلب العتمة الباهتة ودروعهم تُصلصل. ولاحظت لوسي أنّ ليس على وجوههم أيّ أثرٍ من التعب، وقد بدا أنّ الملك الأعلى بطرس والملك إدمون أشبه بالرجال منهما بالصبية الصغار.

وراقبتهم الفتاتان يتوارون عن الأنظار وهما واقفتان بقرب أصلان. وكان الضوءُ يتزايد. إذ في أدنى الأفق الشرقيّ كانت أراڤير، نجمةُ الصباح في نارنيا، تتألّق كأنّها قمر صغير. فرفع أصلان رأسه، ونفض لُبدته، وزمجر، وقد بدا أكبر حجماً من ذي قبل.

وإذا بالصوت الذي بدأ عميقاً ومُترَجرِجاً، مثل نغمٍ منخفض يُصدره أرغن، يرتفع ويعلو، ثمّ يصير أعلى

بكثير جدّاً، حتّى اهتزّت له الأرض والهواء. وانطلق الصوتُ من على تلك التلّة وطاف في أنحاء نارنيا كلّها. فاستيقظ الرجال في مُعَسكرِ ميراز في الأسفل وراحوا يُحدّقون بعضُهم إلى وجوه بعضٍ شاحبين، وأمسكوا بأسلحتهم. وفي الأسفل بعيداً عند النهر الكبير، وهو الآن في ساعته الأكثر برداً، برزت من المياه رؤوسُ حوريّات الماء وأكتافهنّ، ورأسُ إله النهر الكبيرُ ذو اللحية، تكسوه الطحالب. وما وراء النهر، في كلّ حقلٍ وغابة، برزت آذان الأرانب المتنبّهة من جحورها، ورؤوسُ العصافير الناعسة من تحت أجنحتها، ونعبت طيور البوم، وعوت الثعالب، وخرخرت القنافذ، وتحرّكت الأشجار. وفي المدن والقرى قرّبت الأمّهات أطفالهنّ إلى صدورهنّ محدّقات بأعينٍ مُستغرِبة، وهبهبت الكلاب، وهبّ الرجال يفتّشون عن مصابيح. وفي البعيد البعيد على حدود الجبل الشماليّة، وصَوْصَ المَرَدةُ من مداخل قلاعهم المظلمة.

وما رأته لوسي وسوزان كان شيئاً قاتماً يأتي عليهم من كلّ جهةٍ تقريباً وراء التلال. وقد بدا أوّلاً مثل سحابةٍ سوداء تزحف على الأرض، ثمّ مثل الأمواج العاصفة من بحرٍ أسود ترتفع أعلى فأعلى كلّما تقدّمت، حتّى بدا أخيراً على حقيقته: أشجاراً متحرّكة. فإنّ أشجار العالم كلّها بدت مندفعةً نحو أصلان. ولكن كلّما تقدّمت أكثر بدت أقلّ شبهاً بالشجر. ولمّا أحاطت جماعة الأشجار كلّها بلوسي، مُنحنيةً ومُحيّيةً وملوّحةً لأصلان بأذرعها الطويلة



النحيفة، رأت أنّها حشدٌ من الأشكال البشريّة. وكانت عرائس شجر القضبان الباهتة تتمايل برؤوسها، وعرائس الصُّفصاف تردُّ شعرها عن وجوهها الحانية لتُحدّق إلى أصلان، وبنات الزان الجليلات واقفات بصمتٍ خاشع، مُتعبّدات له. كما أنَّ عِرسان السنديانِ المنفوشي الشعر، وأشجار الدَّردار النحيلة والكئيبة، وشُجيراتِ البَهشيّة ذات الرؤوس الشائكة الكثيفة (وهم أنفسُهم داكِنو اللّون لكنَّ عرائسَهم المتألّقة جميعاً بثمارها اللُّبِّيّة زاهيات)، وأشجارَ السُّمّن المَرِحة، هؤلاء العرسانَ كلُّهم انحنَوا ثمّ نهضوا من جديد هاتفين: «أصلان! أصلان!» بأصواتهم المختلفة: الخشنة أو المُتهدّجة أو الهادرة كالموج.

وقد غدا الاحتشاد والرقص حول أصلانَ (إذ عادوا يرقصون) كثيفين وسريعين جداً حتّى ارتبكت لوسي. ولم ترَ قطُّ من أين طلع قوم آخرون سرعان ما أخذوا يقفزون فرحاً ومرحاً بين الأشجار. وكان أحدهم شاباً يرتدي فقط جلد غزال صغير، وأوراقُ عنبٍ مجدولة في شعره المجعَّد. وكاد وجهُه يظهر أجملَ من أن يكون وجه ولد، لو لم يبدُ بمنظر بريٍّ غريب. فإنّكَ كنتَ تشعر- كما قال إدمون لمّا رآه بعدَ بضعة أيّام – أنّه «فتى قد يفعل أيَّ

شيء... أيَّ شيء على الإطلاق». وقد بدا أنَّ له أسماءً عظيمة كثيرة، ثلاثةٌ منها بُروميوس وبصّاريوس* والكَبْش. وكان معه كثير من الفتيات، البرّيّات مثله. بل كان أيضاً، على نحو غير مُتوقَّع، شخصٌ يمتطي حماراً. وكان الجميع يضحكون، والجميع يهتفون: «إيوان، إيوان! إي – أوي – أوي!»



وهتف الفتى: «إنّها هيصة مَرَح ولهو، يا أصلان!» وبدا أنّها كانت كذلك. إنّما كاد يبدو أنَّ لكل منهم فكرة مختلفة عمّا كانوا يلعبونه فربّما كانت لعبة «المجهول المطلوب»، ولكنَّ لوسي لم تعرف قطُّ مَن يكون ذلك الفتى. ولكنّها كانت بالأحرى أشبه بلعبة «الأعمى المفتّش»، إلّا أنَّ كلاً منهم تصرّف وكأنّه معصوب العينين. ولم تختلف كثيراً عن «إخفاء الخُفّ»، إلّا أنَّ الخُفَّ لم يُعثَر عليه قطّ. وما عقّد الأمرَ أنَّ الرجل الراكب على الحمار، وكان كبير

* بروميوس وبصّاريوس: اسمان للإله اليوناني الأسطوري ديونيسيوس، إله الخمر والفرح.

السنّ وسميناً بشكل هائل، وبدأ ينادي حالاً: «الفاكهة المُنعِشة! إنّه وقتُ وجبةٍ خفيفة!» ثمّ سقط عن حماره، وحمله الآخرون وأجلسوه عليه من جديد، فيما بدا أنّ لدى الحمار انطباعاً بأنّ الأمر كلّه استعراضٌ في سيرك، فحاول أن يُقدّم عرض مَشيٍ على قائمتيه الخلفيّتين. وفي أثناء ذلك كلّه كانت أوراقُ العنب تتناثر في كلّ مكانٍ على نحوٍ متزايد. وفضلاً عن أوراق العنب، سرعان ما أخذت أشجار الكرمة أيضاً تظهر. فقد كانت كرومٌ تتسلّق في كلّ مكان، مُعَرِّشةً على أرجُل أهل الشجر، وتلتفُّ حول أعناقهم. ورفعت لوسي يديها لتردَّ شعرها إلى الوراء، فإذا بها تدفع أغصان كرمة. وقد صار الحمار كُتلةَ كَرمة، حتى اشتبك ذيلُه تماماً بشيءٍ قائم، وتدلّى بين أُذنيه مثلُ ذلك. ودقّقت لوسي النظر، فإذا هناك عناقيد عنب. ثمّ غطّى العنبُ المكان كلّه تقريباً، فوق الرؤوس وتحت الأقدام وحوالَي الجميع!

وصاح الرجُل المُسِنُّ من جديد: «الفاكهة المُنعِشة! الفاكهة المُنعِشة!» ثمّ بدأ الجميع يأكلون. ومهما كان عند أهلك من كرومٍ شهيّة، فأنت لم تذُق قطُّ مثل ذلك العنب. فقد كان عنباً لذيذاً حقّاً، مُكتنِزاً وصُلباً من الخارج، ولكنْ لا تلبث حبّاتُه أن تنفجر بحلاوة باردة حالما تضعها في فمك، حتّى إنّ الفتيات لم يشبعن من تناوله قطّ. وقد كان العنب هناك أكثر ممّا يمكن أن يرغب المرء فيه، ولم تكن آدابُ مائدة على الإطلاق. فكُنتَ ترى

الأصابع الملطّخة والمُدبّقة حواليك، ورُغم امتلاء الأفواه لم يتوقّف الضحك قطُّ ولا الهتافُ المُتعالي: إيْوان-إيوانْ، إي-أُوي-أُوي-أوي! حتّى شعر الجميع فجأةً وفي اللحظة ذاتها أنّه ينبغي أن تنتهي اللعبة (مهما كانت) والوليمة، فانطرح الجميع أرضاً بتثاقُل، مقطوعي الأنفاس، وأداروا وجوههم كي يسمعوا ما يودُّ أصلان أن يقوله تالياً.

في تلك اللحظة كانت الشمس قد بدأت تشرق، فتذكّرت لوسي شيئاً وهمست في أذن سوزان:

«سوزان! أنا أعرف مَن هذان؟»

«مَن هما؟»

«الفتى الغريبُ الوجه هو باخوس*، والمُسِنُّ الراكب على الحمار هو سِلِينوس**. ألا تتذكّرين أنّ السيّد طمنوس أخبرنا عنهما منذ زمان بعيد؟»

«نعم، طبعاً! ولكنْ أقول لكِ، يا لو...».

«ماذا؟»

«لم أكُنْ لأشعر بالأمان قرب باخوس وفَتياتِه البرّيّات لو صادفناهم وأصلانُ ليس معنا».

فقالت لوسي: «وأنا كذلك يا سو!»

* باخوس: هو الاسم الروماني للإله ديونيسيوس، إله الخمر والفرح.

** سلينوس: شخصية من الأساطير اليونانية. كان رفيقاً للإله ديونيسوس، وكان دائماً يركب حماراً!

الفصل الثاني عشر

سِحرٌ، وانتقامٌ مفاجئ

في تلك الأثناء، وصل الصبيّان وطَرمبكِن إلى المدخل المُقنطر الحجريّ الصغير المُعتِم المؤدّي إلى داخل الرابية، وإذا بِغُرَيرَين حارسَين (لم يستطع إدمون أن يرى سوى الرُقط البيض على خدودهما) يقفزان مكَشِّرَين عن أنيابهما ويسألانهم بصوتين يهرّان ويخرّان: «مَن يمشي هناك؟»

فقال القزم: «طرَمبكِن مُحضِراً ملك نارنيا الأعلى من الماضي البعيد!»

وتشمَّم الغُريران أيدي الولدَين، ثم قالا: «أخيراً، أخيراً!»

وقال طرَمبكِن: «أعطيانا ضوءاً، يا صاحبَينا!»

فأحضر الغُرَيران مشعلاً من داخل القنطرة تماماً، فأشعله بطرس وأعطاه لطرمبكن، قائلاً: «أفضلُ أن يقودنا صَصَع. فنحن لا نعرف طريقنا داخل هذا المكان».

وحمل طرَمبكِن المشعل ثمّ تقدّمهما إلى قلب النفق المظلم. وكان مكاناً قاتماً بارداً عفِناً، حيث يُرفرِف وطواطٌ

بين حينٍ وآخر في ضوء المشعل وينتشر كثير من بيوت العنكبوت. فإذا بالصبيّين اللذين ما زالا في الهواء الطلق منذ ذلك الصباح في محطّة القطار، يشعران كما لو كانا يدخلان إلى مِصيَدة أو سجن! وهمس إدمون قائلاً:

«بطرس، انظر إلى تلك النقوش على الحيطان! ألا تبدو قديمة؟ ومع ذلك فنحن أقدم منها عهداً. فعندما كنّا هنا آخِر مرّة لم تكن قد نُقِشَت».



وقال بطرس: «نعم، وهذا يدفع المرء إلى التفكير».

وتابع القزم تقدُّمه ثمّ انعطف إلى اليمين، ثمّ إلى اليسار، ثم نزل بعض الدرجات، ثمّ توجّه يساراً من جديد. وعندئذٍ رأوا ضوءاً أمامهم، منبعثاً من تحتِ باب. إذ ذاك سمعوا أوّلَ مرّة أصواتاً، لأنّهم وصلوا إلى باب الغرفة المركزيّة. وقد كانت الأصوات في الداخل أصواتاً غاضبة. فإنّ أحدهم كان يتكلّم بصوتٍ عالٍ جداً بحيث لم يُسمَع صوتُ اقتراب القزم والصبيَّين.

وهمس طرَمبكِن في أُذن بطرس: «لا تعجبني هذه

الضجة. فلنتسمعْ قليلاً!» فوقف الثلاثة صامتين تماماً خارجَ الباب.

ثمّ سُمع صوتٌ يقول: «تعرفون جيّداً تماماً (وهمس طرَمبكِن: «إنّه الملك!») لماذا لم أنفخ في البوق عند شروق الشمس هذا الصباح. فهل نسيتم أنّ ميراز أطبق علينا تقريباً قبل مغادرة طرَمبكِن، وكنّا نُقاتِل لأجل أرواحنا على مدى ثلاث ساعات وأكثر؟ فقد نفختُ في البوق حالما أُتيح لي أن أتنفّس!»

فردّ الصوت الغاضب: «لا يُرجَّح أن أنسى ذلك؛ وقد تحمّل أقزامي الوطأة العُظمى من الهجوم حتّى سقط واحدٌ من كلّ خمسةٍ منهم». (وهمس طرَمبكِن: «ذلك هو نيكابْريك!»)

وقال صوتٌ ثخين («هو صوت جانيكَماً»، كما قال طرَمبكِن): «يا لَلعار، أيُّها القزم! فجميعنا جاهدنا مثل الأقزام، ولم يجاهِد أحدٌ أكثر من الملك».

فردّ نيكابْريك: «اروِ الخبر على طريقتك؛ فهذا لا يهمُّني. ولكنْ سواءٌ نفختَ في ذلك البوق بعد فوات الأوان أو لم يكن فيه أيُّ سحر، فلم تأتِنا أيّة نجدة. وأنت، أيُّها الأديب الكبير، أيُّها الساحر المُعلّم، أيُّها العلّامة العليم، أما زلتَ تطلب منّا أن نُعلّق آمالنا على أصلان والملك بطرس وما شابه ذلك؟»

وجاء الجواب: «عليّ أن أعترف...لا يمكِنني أن أنكر...أنّ أملي قد خاب جدّاً من نتيجة هذه العمليّة».

(وقال طرَمبكِن: «هذا حتماً الدكتور كرنيليوس!»)

فقال نيكابْريك: «بصريح العبارة: سلّتُك فارغة، وبيضُك فاسِد، وسمَكُكَ في البحر، ووعودُك منقوضة! فقِف جانباً إذاً ودعِ الآخرين يعملوا عملهم. وذلك هو سبب..».

وقال جانيكَماً: «ستأتي النجدة! أنا إلى جانب أصلان. فليكُن عندكم صَبر، مثلَنا نحنُ الحيوانات. ستأتي النجدة! بل ربّما كانت الآن عند الباب».

فشخر نيكابريك: «بؤساً وتعساً! أنتم الغُرَيرات تريدون منا أن ننتظر حتّى تسقط علينا السماء فنُمسِك الطيور بأيدينا. إنّما أقول لك إنّنا لا نقدر أن ننتظر. فالطعام ينفد، ونحن نفقد من المحاربين أكثر مما نقدر أن نتحمّل كلَّ جولة، وأتباعُنا يفرّون».

فسأل جانيكَماً: «ولماذا؟ سأقول لك لماذا. لأنّه يُشاع بينهم أنّنا دعونا ملوكَ الماضي، وملوكُ الماضي لم يُلبُّوا نداءنا. وقد كانت آخر كلمات قالها طرَمبكِن قبل ذهابه (إلى موته على أكثر ترجيح): 'وإن كان لا بدَّ من نفخ البوق، فلا تدعِ الجيش يعرف لماذا نفخته ولا ماذا ترجو من نفخه.' ولكن في ذلك المساء عينه بدا أن الجميع عرفوا».

وقال نيكابريك: «يا ليتك أقحمتَ خطمَكَ الرماديّ في وكر دبابير، يا غُرَير، ولم تُلمّح إلى أنّني أنا الثرثار ناشر الأخبار. فاسحبْ كلامك وإلّا..».

فقال الملك كاسبيان: «آه، كُفّا عن هذا، كِلاكما! أريد أن أعرف ما يُلمّح نيكابريك دائماً أنّ علينا أن نعلمه. ولكن قبل ذلك، أريد أن أعرف من هُما ذانِكَ الغريبان اللذان أتى بهما إلى اجتماعنا المعقود للمشاورة، والواقفان هناك بآذانٍ مفتوحة وفمَوين مُطبَقين».

أجاب نيكابريك: «هما صديقان لي. وأيُّ حقٍّ لك أنت ذاتك في أن تكون هُنا أكثر من كونك صديقاً لطرمبكن والغُرير؟ وأيُّ حقٍّ لذلك العجوز الخَرِف بعباءته السوداء في أن يكون هُنا ما عدا كونه صديقاً لك؟ فلماذا أكون أنا الوحيد الذي لا يحقُّ له الإتيان بصديقين من أصدقائه؟»

فقال جانيكما بحزم: «إنّ جلالته هو الملك الذي أقسمتَ بالولاء له!»

وجأر نيكابريك: «تلك آداب البلاطات والقصور! ولكنْ في هذا الوكر يمكننا أن نتكلّم بصراحة. فأنت تعلم – وهذا الصبيُّ التِلماريُّ يعلم – أنّه سيكون ملكاً بلا بلادٍ ولا رعايا في ظرف أسبوعٍ واحد، إلّا إذا ساعدناه على الخروج من هذا الفخّ الذي هو عالِق فيه».

فقال كُرنيليوس: «ربّما يودُّ صديقاك أن يتكلّما بلسانَيهما. أنتَ هناك، مَن أنت وما أنت؟»

فصدر صوتٌ نحيف ذو طنينٍ وأنين: «سيّدي الدكتور المُبجّل. من فضلك، ما أنا إلّا امرأةٌ عجوز مسكينة، وأنا شاكرة كثيراً لصداقة قَزَميّته المُبجّلة، بكلّ تأكيد. فإنّ

جلالته – تبارك وجهه الجميل! – لا داعي لأنْ يخاف امرأةً عجوزاً حناها وورّمها الروماتزم وليس عندها حطبتان تضعهما تحت قِدرها الصغيرة. ولديَّ خبرة قليلة ضئيلة – ليست كخبرتك طبعاً يا سيّدي الدكتور – ببعض السحور والرُّقى التي يُسعِدني أن – أستعملها ضدّ أعدائنا إذا رغب في ذلك جميعُ المعنيّين بالأمر. فأنا أكره أعداءنا، نعم، أكرهُهم. ولا أحد يكرهُهم أكثر منّي».

وقال الدكتور كُرنيليوس: «هذا مُشوّق و... ومُرضٍ جدّاً. أعتقد أنّني الآن أعرف ما أنتِ، يا سيّدة. وربّما كان على صديقك الآخر، يا نيكابريك، أن يؤدّيَ بعض الحساب عن نفسه؟»

فإذا بصوتٍ عميقٍ خشنٍ اقشعرّ له بدَن بطرس يقول: «أنا الجوع. أنا العطش. وحيثما أعضّ، أتشبّث حتّى أموت. بل إنّ عليهم، بعد موتي، أن يقطعوا ملءَ فمي من جسد عدوّي ويدفنوه معي. يمكنني أن أصوم مئة سنة، ولا أموت. يمكنني أن أتمدّد على الجليد مئة ليلة، ولا أتجمّد. يمكنني أن أشرب نهراً من الدم ولا أنفجر. دُلّوني على أعدائكم!»

فقال كاسبيان: «وبحضور هذين الاثنين ترغب في كشف خُطّتك؟»

أجاب نيكابريك: «نعم! وبمساعدتهما أقصد أن أُنفّذها».

ثمّ مرّت دقيقة أو دقيقتان استطاع في أثنائهما طرمبكن والصبيّان أن يسمعوا كاسبيان وصديقيه يتكلّمون

بأصواتٍ منخفضة، ولكنَّهم لم يستطيعوا أن يفهموا ما كانوا يقولونه. وبعدئذٍ تكلَّم كاسبيان بصوتٍ عالٍ، فقال:

«حسناً يا نيكابريك، سنسمع خُطَّتك».

وحصلت وقفة طويلة حتّى بدأ الصبيّان يتساءلان إن كان نيكابريك سيُباشِر الكلام. ولمّا بدأ، كان كلامه بصوت أكثر انخفاضاً، وكأنّه هو نفسه لم يكن يحبُّ كثيراً ما يقوله مُتمتِماً:

«مهما قيل وجرى، فلا أحد منّا يعرف حقيقة الأيّام القديمة في نارنيا. ولم يكُنْ طرمبكن يؤمن بأيٍّ واحدة من تلك القصص. أمّا أنا فكنتُ على استعداد لامتحانها. وقد جرّبنا البوق أوّلاً، وما نفع شيئاً. فإنْ كان هنالك فعلاً ملكٌ أعلى اسمُه بطرس وملكة اسمها سوزان وملك اسمه إدمون وملكة اسمُها لوسي، فإمّا أنّهم لم يسمعونا، وإمّا لا يقدرون أن يأتوا، وإمّا يكونون أعداءنا..».

فقاطعه جانيكَما: «وإمّا يكونون في طريقهم إلينا».

«يمكنك أن تظلَّ تقول ذلك حتّى يكون ميراز قد جعلنا كلّنا طعاماً لكلابه. فكما كنتُ أقول، جرّبنا أوّل حلقة من سلسلة الخُرافات القديمة، فلم تنفعنا قطّ. حسناً! ولكنْ عندما ينكسر سيفك، تسحب خنجرك. فالقصص تحكي عن قوّات أُخرى غير المَلِكين والملكتَين القدامى. فماذا لو استطعنا أن نستدعيَ تلك القوات؟».

فقالَ جانيكما: «إن كنتَ تقصد أصلان، فاستدعاؤه واستدعاء الملوك يتمّان بدعوةٍ واحدة. فإنّهم كانوا خُدّامه.

فإن لم يكن سيرُسِلهم (ولكنْ لا شكَّ عندي أنّه مُرسِلُهم)، أفلا يُرجَّح أكثر أن يأتي بنفسه؟»

أجاب نيكابريك: «لا! فأنت على حقٍّ في ما سبق. إنَّ أصلان والملوك يسيرون معاً. فإمّا يكون أصلان قد مات، وإما لا يكون في صفّنا. وإلّا فإنَّ شيئاً ما أقوى منه يؤخّره. وإذا جاء، فكيف تعرف أنّه سيكون صديقاً لنا؟ إنّه لم يكن دائماً صديقاً صدوقاً للأقزام، حسب الروايات كلّها، ولا حتّى لجميع البهائم. فاسألِ الذئاب! وعلى كلِّ حال، فقد ظهر في نارنيا فقط مرّةً واحدة سمعتُ بها، ولم يبقَ طويلاً. فيُمكِنك أن تُسقِط أصلان من الحساب. إنّني كنتُ أُفكّر بشخصٍ آخر».

فلم يكُن جواب، وقد ساد السكون بضع دقائق حتّى استطاع إدمون أن يسمع تنفُّسَ الغُرَيرِ الصافرَ المُخَنخِن.

وأخيراً قال كاسبيان: «مَن تقصد؟»

«أقصد قوّةً أعظم بكثير من قوّة أصلان بحيث أبقت نارنيا مسحورةً سنين عديدة ومديدة، إذا صدقتِ الحكايات».

فصاحت ثلاثةُ أصواتٍ معاً: «الساحرة البيضاء!» ومنَ الضجّة خمَّن بطرس أنَّ ثلاثة أشخاص هبّوا واقفين.

ثمَّ قال نيكابريك بمنتهى البطء والوضوح: «نعم، أقصد الساحرة! فاقعدوا من جديد، ولا ترتعبوا كلُّكم مِن ذكرِ اسمٍ كما لو كنتم أولاداً صغاراً. نحن نريد القوّة، ونريد

قوّةً تقف في صفّنا. ومن جهة القوّة، ألا تقول القِصص إنّ الساحرة هزمت أصلان وقيّدته وقتلته على ذلك الحجر ذاته الذي هو هُناك، وراء الضوء تماماً؟»

فقال الغُرَير بحدّة: «ولكنّها تقول أيضاً إنّه عاد حيّاً من جديد!»

أجاب نيكابريك: «نعم، تقول! ولكنّك تُلاحِظ أنّنا قلّما نسمع عمّا فعله لاحقاً. فهو يتلاشى من القصّة ببساطة. فكيف تفسّر ذلك إن كان قد قام حيّاً بالفعل؟ أليس من الأرجح جدّاً ألّا يكون قد قام، وأنّ القِصَص لا تذكر عنه شيئاً بعد لأنّه ليس من شيءٍ آخر لتقوله؟»

فقال كاسبيان: «لقد نصّب المَلِكين والملكتين».

وقال نيكابريك: «إنّ الملك الذي يكون قد كسب معركة عظيمة توّاً يمكنه عادةً أن يُنصّب نفسه بغير مساعدةٍ من أسدٍ يُمثّل دوراً». إذ ذاك صدرت جأرةٌ حادّةٌ جدّاً، يُحتمَل أن تكون من جانيكما.

ثمّ تابع نيكابريك: «وعلى كلّ حال، فماذا جاءنا من الملوك وحكمهم؟ لقد تلاشَوا أيضاً! أمّا حال الساحرة فمختلفة تماماً. إذ يقولون إنّها حكمت مدّة مئة عام: مئة عام من الشتاء. فها هُنا قوّة إن أحببتُم، ها هُنا شيء عمليّ حقّاً».

فقال الملك: «ولكنْ أين الأرض من السماء؟ أمَا قيل لنا دائماً إنّها كانت أسوأ الأعداء؟ ألم تكُن طاغيةً مستبدّة أسوأ من ميراز بعشرة أضعاف؟»

وقال نِيكابريك بصوتٍ بارد: «ربمّا، ربمّا كانت كذلك بالنسبة إليكم أنتم البشر، إن كان هنالك أيٌّ منكم في تلك الأيّام. وربمّا كانت كذلك بالنسبة إلى بعض الحيوانات. فأجرؤ أن أقول إنها أبادت السمامير؛ فعلى الأقلّ ليس في نارنيا الآن سمّورٌ واحد. غير أنّها كانت على أحسن حال معنا نحن الأقزام. فأنا قزم وأنا أُساند قومي. ونحن لا نخاف من الساحرة».

فقال جانيكما: «ولكنّكمُ انضممتُم إلينا!»

وأجاب نيكابريك مُقاطِعاً: «نعم، وقد نفع ذلك بني قومي كثيراً حتى الآن! فمن يُبعَث في جميع الغارات الخطِرة؟ الأقزام. ومَن يُحرَم أكثر الطعام حين تشحّ المُؤَن؟ الأقزام. ومَن...؟»

فقال الغُرَير: «كَذِب! هذا كلّه كَذِب!»

فقال نيكابريك وقد كاد صوته يصير صُراخاً الآن: «وهكذا، فإن كنتم لا تقدرون أن تُساعِدوا قومي، فسأذهب إلى شخص يقدر».

وسأل الملك: «أهذه خيانةٌ صريحة، أيّها القزم؟»

فقال نِيكابريك: «رُدَّ ذلك السيف إلى غمده، يا كاسبيان. القتل في جلسة المشاورة، إيه؟ أهذه لعبتك؟ لا تكُن غبيّاً إلى حدّ اللجوء إليها. أتظنّ أنّي خائف منك؟ معي ثلاثة أشخاص، ومعك ثلاثة!»

فشخر جانيكما ونخر: «هيّا إذاً!» إلّا أنّ الدكتور كُرنيليوس قاطعه حالاً بقوله:

«قف، قف، قف! إنّك تُسرِع أكثر من اللازم. الساحرة ميْتة! وعلى هذا تُجمِع القِصَص كلُّها. فماذا يقصد نيكابريك باستدعاء الساحرة؟»

وإذا بذلك الصوت الخبيث المروِّع الذي تكلّم مرّةً واحدة من قبل يقول: «آه، هل هي كذلك حقّاً؟»

ثمّ انطلق الصوت الحادُّ ذو الأنين والطنين: «أوه، لا داعي لأن يهتمَّ جلالةُ الصغير العزيز – تبارك قلبُه! – بأمر تلك السيِّدة البيضاء – هكذا نسمّيها نحن – من جهة كونها ميْتة. فالمعلّم الدكتور المُبجّل إنّما يسخر مِن امرأةٍ عجوز مسكينة مثلي عندما يقول ذلك. يا سيدي الدكتور الطيِّب، يا كبير الأطبّاء العالِم، مَن سمع مرّةً بساحرة ماتت فعلاً؟ ففي وسعك دائماً أن تُعيد إليهنّ الحياة».

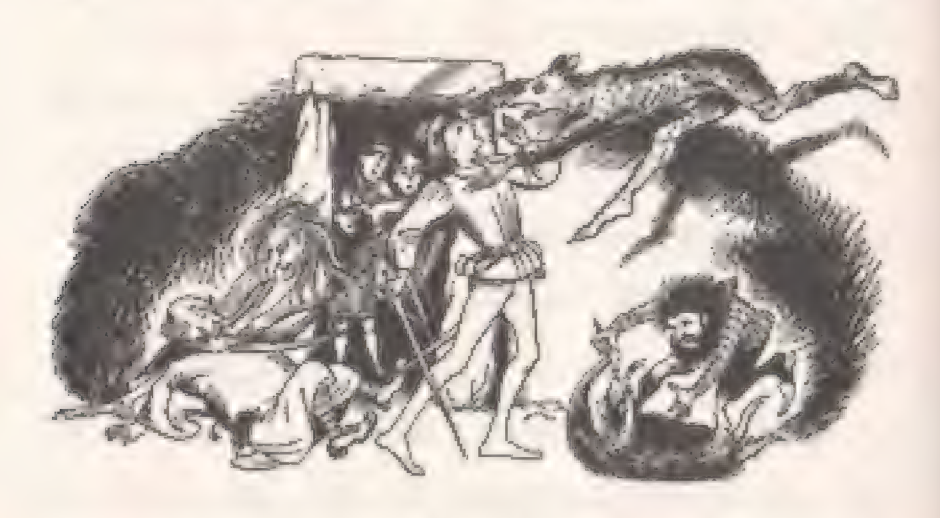
وقال الصوت الخبيث الآخر: «استحضِروها. كُلّنا جاهزون. ارسموا الدائرة. أعِدّوا النار الزرقاء!»

وفوق شخير الغُرَير ونخيره المتزايد باطِّراد، وزعقة كُرنيليوس «ماذا؟»، هدر صوت الملك كاسبيان كالرّعد:

«إذاً تلك خطّتك يا نيكابريك! سحرٌ أسود واستحضار شبح لعين. وأنا عرفت مَن رفيقاك: عفريتةٌ ومِسخ ذئب!»

ثمّ ساد الهرج والمرج طيلة الدقيقة التالية أو نحوها. فقد سُمع هَريرُ حيوان وصلصلة فولاذ، واقتحم الصبيّان

وطرمبكِن المكان حالاً. فلمح بطرس مخلوقاً رهيباً كئيباً رماديَّ اللون، نصفُه إنسان ونصفه ذئب، وهو يقفز على صبيٍّ بمثل عُمره. ورأى إدمون غُرَيراً وقزماً يتشقلبان على الأرض في ما يُشبِه قتال القِطَط. ووجد طرمبكن نفسه وجهاً لوجهٍ مع العفريتة. وقد برز ذقنها وأنفُها معاً كأنّهما كسّارة جوز، وكان شعرها الأشيب الوسخ يتطاير حول وجهها، وقد أمسكت توّاً بخناق الدكتور كُرنيليوس. فبضربة واحدة من سيف طرمبكِن تدحرج



رأسها على الأرض. ثمّ أوقع أحدهم الضوء، فاشتغلت السيوف والأنياب والمخالب والأحذية نحو ستّين ثانية، قبل أن يسود الصمت تماماً.

«أ ... أنت بخير، يا إدمون؟»

فقال إدمون لاهثاً: «أع – أعتقد ذلك. لقد أمسكت بنيكابريك ذاك المتوحِّش، ولكنّه ما زال حيّاً».

وسُمع صوتٌ غاضب يقول: «أثقال وأحمال! هذا أنا مَن تقعد عليه. قُم عنّي! إنّك مثلُ فيل صغير».

فقال إدمون: «عفوَك، يا صَصَع! أهذا أفضل؟»

وزعق طرمبكن: «آو، لا! إنّك واضِعٌ حذاءك في فمي. ابتعِد عنّي!»

وسأل بطرس: «أين الملك كاسبيان؟»

فردّ صوتٌ خافت جداً: «أنا هُنا. لقد عضّني شيء!»

وسمع الجميع صوتَ أحدهم يُشعِل عود كبريت. كان ذلك إدمون، وقد أظهرت اللهبة الصغيرة وجهه شاحباً ووسِخاً. وتخبّط قليلاً حتّى وجد شمعة (لم يعودوا يستخدمون السراج لأنّ الزيت قد نَفِد) وركّزها على الطاولة، ثمّ أشعلها. فلما صفا اللهب، نهض بضعة أشخاص بصعوبة ووقفوا. وأخذت ستّةُ وجوه تطرف أعينُ بعضها أمام بعض في ضوء الشمعة.

ثمّ قال بطرس: «لا يبدو أنّه قد بقي عندنا أيُّ أعداء بعد. فتلك هي العفريتة ميّتة هناك (وأشاح وجهه عنها بسرعة) و ها هو نيكابريك ميّت كذلك. وأظنُّ أنّ هذا الشيء هو مِسخُ ذئب، لم أرَ مثله منذ زمن بعيد جداً: رأس ذئب وجسم إنسان. وهذا يعني أنّه كان يتحوّل من إنسان إلى ذئب لحظةَ قُتِل. وأنت، كما أظنّ، هو الملك كاسبيان؟»

فأجاب الصبيُّ الآخر: «نعم! ولكنْ لستُ أدري مَن أنت».

قال طرمبكن: «هو الملك الأعلى، الملك بطرس».

فقال كاسبيان: «أهلاً وسهلاً بجلالتك!»

وقال بطرس: «وبجلالتك أنت أيضاً! فأنا لم أجئ لآخذ مكانك، كما تعلم، بل لأثبّتك فيه».

وقال صوتٌ قرب كوع بطرس: «يا صاحب الجلالة!» فالتفت وإذا به وجهاً لوجه مع الغُرَير. فانحنى إلى الأمام، ثمّ طوّق الحيوان بذراعه وقبّل رأسه ذا الفرو. ولم يكن ذلك منه تصرّفاً شبيهاً بتصرّفات البنات، لأنّه كان الملك الأعلى. ثمّ قال:

«يا خيرَ غُرَير! إنّك لم تشكّ فينا قطّ».

فقال جانيكماً: «ليس الفضل لي. فأنا حيوان ونحن لا نتغيّر. أنا مجرّدُ غُرَير، وهكذا نظلّ!»

وقال كاسبيان: «أنا آسف على نيكابريك، مع أنّه كرهني من أوّل لحظة رآني فيها. لقد تعاظم الحقد في قلبه من جرّاء طول المعاناة والبغض. فلو أنّنا أحرزنا نصراً سريعاً لربّما صار قزماً صالحاً في أيّام السّلم. لستُ أدري أيُّ منا قتله. وهذا من دواعي سروري».

وقال بطرس: «إنّك تنزف!»

فأجاب كاسبيان: «نعم، لقد نلتُ عَضّة. وكانت من ذلك... ذلك المسخ الذئبيّ». ثمّ استغرق تنظيف الجرح وتضميده وقتاً طويلاً، قال طرمبكن بعده: «والآن، قبل أيّ شيء آخر، نريد فُطوراً».

فقال بطرس: «إنّما ليس هنا».

وقال كاسپيان مرتجفاً قليلاً: «طبعاً! وعلينا أن نُرسِل أحداً لإبعاد الجُثَث».

فقال بطرس: «ليرْمَ الطُفيليّان في حفرة عميقة. وليُعطَ القزم لبني قومه حتّى يدفنوه على طريقتهم!»

ثمّ تناولوا فَطورهم في قبوٍ مُظلم آخر داخل حصن أصلان. ولم يكُن فطوراً من النوع الذي كان من شأنهم أن يختاروه، لأنَّ كاسپيان وكُرنيليوس كانا يُفكّران في فطائر لحم الغزلان، وبطرس وإدمون في البيض المقليّ بالزبدة والقهوة الساخنة. ولكنّ ما أصابه كلٌّ منهم كان قطعة صغيرة من لحم الدبّ البارد (من جيوب الولَدَين) وقطعة أُخرى من الجبن اليابس، وبصلة، وكوب ماء. ولكنْ من طريقة إقبالهم على الطعام، كان يمكن لأيّ إنسان أن يحسب أنّهم يتناولون طعاماً شهيّاً.

الفصل الثالث عشر

الملك الأعلى يتولّى القيادة

عندما أنهوا فَطورهم، قال بطرس: «والآن، يا كاسپيان، أصلان والبنتان (أي الملكة سوزان والملكة لوسي) هم على مقربة منّا. ولسنا نعرف متى سيعمل شيئاً: في وقته هو، دون شكّ، لا في وقتنا نحن. وفي هذه الأثناء يريد منّا أن نقوم بما نقدر نحن عليه. أتقول، يا كاسپيان، إنّ قوّتنا لا تكفي لمواجهة ميراز في معركة فعلية؟»

فأجاب كاسپيان: «أخشى ألّا تكون كافية، أيّها الملك الأعلى»، وكان قد بدأ يُعجب ببطرس كثيراً جدّاً، إلّا أنّه كان معقود اللسان تقريباً. فقد كان لقاؤه الملوك العظام من القِصَص القديمة أغربَ عليه بكثير ممّا كان لقاؤهم إيّاه.

وقال بطرس: «جيّدٌ جدّاً إذاً. سأبعث إلى ميراز بتحدٍّ لمُنازلة فرديّة». ولم يكن أحدٌ قد فكّر في ذلك قبلاً.

فقال كاسپيان: «رجاءً، ألا يمكن أن أُنازله أنا؟ فأنا أُريد أن أنتقم لأبي».

أجاب بطرس: «أنت جريح! وعلى كلّ حال، أفلا يضحك من تحدٍّ يصدر عنك؟ أعني أنّنا قد رأينا أنّك

ملك ومُحارِب، ولكنّه يحسبك مجرّد وَلَد».

فقال الغُرَير، وكان يجلس بلِزق بطرس ولا يُزيح عينيه عنه أبداً: «ولكنْ، يا مولاي، هل يقبل تحدّياً منك؟ فهو يعرف أنّه صاحب الجيش الأقوى».

أجاب بطرس: «يُرجَّح جدّاً ألّا يقبل، ولكنّ الاحتمال وارد دائماً. حتّى لو لم يقبل، فإنّنا سنقضي مُعظم النهار ونحن نتبادل المبعوثين ذهاباً وإياباً، وما شابه ذلك وإلى ذلك الحين ربّما يكون أصلان قد فعل شيئاً. وعلى الأقلّ، يمكنني أن أتفقّد الجيش وأعزّز الموقع. سأرسِل التحدّي. بل إنّي فعلاً سأكتبه في الحال. ألديك قَلَم وورقة، أيّها الدكتور المعلّم؟»

فأجاب الدكتور كُرنيليوس: «العالِم يحملهما دائماً، يا صاحب الجلالة».

وقال بطرس: «حسنٌ جدّاً، سأُملي عليك رسالة التحدي إملاءً».

وبينما نشر الدكتور لُفافة ورق وفتح محبرته وبَرَى قلمه القصبيّ، اتّكأ بطرس وعيناه شبه مُغمَضتين، واستحضر إلى ذاكرته اللُغَة التي قد كتب بها مثل هذه الرسائل قديماً جدّاً في عصر نارنيا الذهبيّ.

أخيراً قال بطرس: «طيّب! والآن، إن كنتَ مستعدّاً، يا دكتور؟»

فغمس الدكتور كُرنيليوس قلمه في المحبرة وأخذ ينتظر. فأملى عليه بطرس الرسالة التالية:

«*من بطرس، وهو — بفضل أصلان وبالانتخاب وبحقّ التقادُم وبالانتصار — الملكُ الأعلى على جميع ملوك نارنيا، وإمبراطورُ الجزر المنفردة، وسيّد كيرپرافيل، وفارس بموجب رُتبة الأسد الفائقة الشرَف، إلى ميراز، ابن كاسپيان الثامن، والسيّد الوصيّ على عرش نارنيا حيناً، والمنصِّب نفسه الآن ملكاً على نارنيا، تحيّة. هل كتبتَ هذا؟*»

فتمتم الدكتور: «*نارنيا، فاصلة، تحيّة*. نعم، يا مولاي!»

وتابع بطرس:

«*إذاً بطرس*. إذاً ابدأ فقرة جديدة...

«*منعاً لسفك الدماء، وتجنُّباً لجميع المساوئ الأخرى التي تنتج غالباً عن الحروب المفروضة الآن في نطاق نارنيا الخاص بنا، يسرُّنا أن نُغامر بشخصنا الملوكيّ نيابةً عن عزيزنا الموثوق والمحبوب جدّاً كاسپيان في رهان معركة شريف كي نُثبِت في جسد سيادتك أنّ كاسپيان المذكور هو الملك الشرعيّ تحت إمرتنا في نارنيا، بفضلنا وبمقتضى قوانين التلماريّين أيضاً معاً، وأنّ سيادتك مُذنِب بخيانةٍ مضاعفةٍ سواءٌ بمنعك كاسپيان المذكور من تولّي حكم نارنيا أو بقتلك البغيض جدّاً والوحشيّ وغير الطبيعي لسيّدك وأخيك الطيّب حامل لَقب الملك كاسپيان التاسع. فبناءً عليه، نتوجّه إليك صادقين من كلّ القلب بأن ندعو ونستنهض ونتحدّى سيادتك لخوض المنازلة أو المُثاقفة الفرديّة المذكورة. وها قد أرسلنا هذه الرسالة بيد جلالة أخينا المحبوب جدّاً الملك إدمون، وهو حيناً ملكٌ تحت إمرتنا في نارنيا، ودُوقُ خربة المصباح وكونت المُستنقع*

الغربيّ، وفارس الرّتبة الشريفة لفُرسان المائدة، وإليه فوّضنا كامل السلطة لترتيب جميع ظروف المنازلة المذكورة مع سيادتك.

«صدرَت من محلّ إقامتنا في حصن أصلان في هذا اليوم الثاني عشر من شهر تخضيران، في السنة الأولى من عهد كاسبيان العاشر ملك نارنيا».

ثم قال بطرس وهو يأخذ نفساً عميقاً: «هذا يفي بالغرض. وعلينا الآن أن نُرسِل شخصَين آخرَين مع الملك إدمون. وأعتقد أنّ المارد يجب أن يكون أحدهما».

فقال كاسپيان: «إنّه... إنّه غير ذكيّ كثيراً، كما تعلم!»

أجاب بطرس: «طبعاً، ليس ذكيّاً! ولكنّ أيّ مارد يُخلّف انطباعاً مؤثّراً إنْ هو لزم الصمت. وهذا أيضاً سيرفع معنويّاته ويُشجّعه. إنّما مَن يكون الآخر؟»

فقال طرَمبكن: «بحسب رأيي، إذا أردتَ شخصاً يقتل بنظراته، فإنّ ريبيتشيب هو الأفضل».

فأجاب بطرس ضاحكاً: «حقاً سيكون الأفضل، على أساس كلّ ما سمعته عنه، لو لم يكن صغيراً جداً. فإنّهم لن يرَونه ولو كان قريباً جدّاً».

وقال جانيكما: «أرسِل عَصفُلواد. فما من أحدٍ ضحك قطّ على قنطور!»

وبعد ساعةٍ من الزمان، كان سيّدان عظيمان من قادة جيش ميراز، هُما اللُّورد غُلوزيل واللُّورد صُوبِسْبيان، يتمشّيان بين صفوف عسكرهما ويُسوّكان أسنانهما

بعد تناولهما الفطور. فرفعا نظرهما ورأيا آتياً صوبَهما من قلب الغابة القنطورَ عَصفُلواد والمارد ثقّابْريح، واللذين سبق أن شاهداهما في المعركة، وبينهما شكلٌ لم يستطيعا تمييزه. بل إنّ سائر الأولاد في مدرسة إدمون أيضاً ما كانوا ليُميّزوه لو أُتيح لهم أن يرَوه تلك اللحظة. فإنّ أصلان قد غمره بأنفاسه عند لقائهما، فأضفى عليه هالةً من العَظَمة.

وسأل اللورد غُلوزيل: «ما العمل؟ أهجُوم؟»

فقال صُوبِسبيان: «بل بالحريّ مُفاوضة. انظُر، إنّهم يحملون أغصاناً خضراء. لقد جاؤوا يعرضون الاستسلام على الأرجح!»

أجاب غُلوزيل: «لا تبدو على وجه الماشي بين القنطور والمارد ملامح الاستسلام. فمن يمكن أن يكون؟ إنّه ليس الصبيّ كاسپيان!»

وقال صُوبِسبيان: «ليس هو إيّاه حقاً. أؤكّد لك أنّ هذا مُحارِب رهيب، ولا أدري من أين أتى به المتمرّدون. فبيني وبين سيادتك، هو رجُل أكثر ملوكيّةً حتّى ممّا كان ميراز يوماً. ويا لها من درع يلبسها! فلا أحد من حدّادينا يستطيع أن يصنع مثلها».

فقال غُلوزيل: «أُراهِن على فَرَسي المُرقَّط بومِلي أنّه آتٍ بتحدٍّ لا باستسلام».

وردّ صُوبِسبيان: «كيف يمكن ذلك؟ فالعدوُّ في قبضة يدنا هنا. ولن يكون ميراز أخرق بحيث يتخلّى عن تفوُّقه بخوض مُنازلة».

فقال غُلوزيل بصوتٍ أوطأ بكثير: «قد يُجرُّ إليها جرّاً».

وقال صُوبِسبيان: «على مهلك! لنبتعد إلى هناك قليلاً حتّى لا يسمعنا أولئك الحرّاس. والآن، هل فهمتُ ما تقصد سيادتُك فهماً صحيحاً؟»

فهمس غُلوزيل: «إذا قبل الملك رهان المُنازلة، فإمّا يَقتل وإمّا يُقتل!»

وقال صُوبِسبيان حانياً رأسه: «إذاً؟»

«إذا قَتَل نكون كسبنا هذه الحرب».

«حتماً. وإذا لم يَقتُل؟»

«حسناً، إذا لم يَفعل، فينبغي لنا أن نكسب الحرب بغير أن يكون جلالة الملك معنا. فلا حاجة بي لأنْ أقول لسيادتك إنّ ميراز ليس قائداً حربيّاً عظيماً جدّاً. وبعد ذلك، نكون كلانا قد انتصرنا ولا يكون عندنا ملك!»

«وهل تعني، يا سيّدي، أنّنا نتمكّن — أنت وأنا — من تولّي أمر هذه البلاد بصورة ملائمة تماماً بعدم وجود ملك كما بوجوده؟»

فازدادت ملامح وجه غُلوزيل بشاعة، فيما مضى يقول: «ولا تنسَ أنّنا نحنُ قد أجلسناه أوّلاً على العرش. ثمّ في جميع السنين التي تمتّع هو فيها بالمُلك، ماذا جَنينا نحن؟ أيّ تقدير أو اعتراف بالفضل أبدى لنا؟»

وردّ صُوبِسبيان: «كُفَّ عن الكلام. ولكنِ انظُر...ها قد أتى مَن يستدعينا إلى خيمة الملك».

ولمّا وصلا إلى خيمة ميراز، رأيا إدمون ورفيقيه قاعِدَين خارجاً وقد ضُيِّفوا كعكاً ونبيذاً، إذ قد سلّموا رسالة التحدّي وانسحبوا ريثما ينظر الملك فيها. وعندما رآهم السيّدان التلماريّان على تلك الحال من القُرب القريب، تصوّرا ثلاثتهم مُخيفين جدّاً.

وفي الداخل وجدا ميراز غير مُسلَّح وهو يُنهي فَطوره. وكان الاحمرار قد علا وجهَه، والعبوسُ حاجبيه.

فجأر طارحاً إليهما الرسالة عبر الطاولة: «انظرا! تأمّلا أيّة رِزمة من حكايات الأطفال أرسل إلينا ابنُ أخينا، ذاك القِرد!»

وقال غُلوزيل: «عفوَك يا مولاي! لو كان المحارب الشابُّ الذي رأيناه توّاً في الخارج هو الملك إدمون المذكور في سجلّاتنا، لَما دعوتُه حينئذٍ بطل حكاية أطفال، بل فارساً خطيراً جدّاً».

فقال ميراز: «الملك إدمون، زِه! هل تُصدّق سيادتك خُرافات العجائز تلك عن بطرس وإدمون وغيرهما؟»

أجاب غُلوزيل: «بل أُصدِّق ما تراه عيناي، يا صاحب الجلالة».

فقال ميراز: «حسناً، لا جدوى من هذا النقاش. ولكنْ بشأن التحدّي، أعتقد أنّ لدينا رأياً واحداً».

أجاب غُلوزيل: «هذا ما أعتقده فعلاً، يا مولاي».

فسأل الملك: «وما ذلك الرأي؟»

أجاب غُلوزيل: «أن ترفضه رفضاً قاطعاً. فمع أنّني لم أُدعَ جباناً قطّ، يجب أن أقول بصراحة إنّ منازلة ذلك الفتى الغضّ في معركة أمرٌ لا يحتمله قلبي. وإذا كان (كما يُرجَّح) أخوه الملك الأعلى أخطر منه... فلماذا، يا سيّدي الملك - وحياتك! — لا يكون لك شأنٌ معه؟»

فصاح ميراز: «عليك اللعنة! لم أُرِد أن أسمع مثل هذه المشورة. أتحسب أنّني أسألك هل أخاف من مواجهة بطرس هذا (إن وُجِد رجلٌ كهذا)؟ أتحسب أنّني أخشاه؟ فأنا إنّما طلبتُ مشورتك بشأن السياسة الواجبة في المسألة: فهل ينبغي لنا، ونحن المتفوّقون في المعركة، أن نُخاطِر بقبول رهان المنازلة؟»

وقال غُلوزيل: «عن هذا ليس لي إلّا جوابٌ واحد: ينبغي أن يُرفَض التحدّي رفضاً قاطعاً. فالموت يلوح على وجه الفارس الغريب!»

فقال ميراز وقد استولى عليه الغضب الشديد الآن: «ها قد عُدتَ إلى النغمة ذاتها! هل تحاول أن تُظهِرني

جباناً كبيراً مثل سيادتك؟»

وأجاب غُلوزيل عابساً: «لجلالتك أن تقول ما تشاء!»

فقال الملك: «إنّك تتحدّث كامرأةٍ عجوز، يا غُلوزيل. فماذا تقول أيّها اللورد صُوبِسبيان؟»

وجاء الجواب: «رُويدَك، يا مولاي! فإنّ ما تقوله عن السياسة الواجبة يقع في محلّه كما يُرام، إذ يُتيح لجلالتك أسباباً وجيهة للرفض دونما داعٍ للارتياب في شرف جلالتك أو شجاعتك».

فصاح ميراز وقد هبّ واقفاً: «يا لَلسّماء! أأنت أيضاً مسحورٌ اليوم؟ وهل تظنّ أنّني أبحث عن أسبابٍ للرفض؟ أليس أفضلَ أن تدعوني جباناً في وجهي؟»

ولمّا كان الحديث يجري تماماً كما تمنّى اللوردان، فإنّهما لم يقولا شيئاً.

ثمّ قال ميراز مُحدّقاً إليهما وكأنّ عينيه ستقفزان من وجهه: «لقد فهمت الواقع! أنتما أنفسكما جبانان كالأرانب، ولكما من الوقاحة ما يجعلكما تتصوّران أنّ قلبي شبيه بقلبيكما! أسباب وجيهة للرفض، هه! أعذار لعدم القتال! أأنتما عسكريّان؟ أأنتما تلماريّان؟ أأنتما رجُلان؟ وإذا رفضتُ فعلاً (كما تُملي عليّ جميع الأسبابُ الوجيهة العائدة لرجاحة العقل والسياسة العسكريّة الحكيمة)، فإنّكما سوف تحسبانني — وتُعلّمان الآخرين أن يحسبوني — قد خِفت. أليس هكذا؟»

فردّ غُلوزيل: «ما مِن رجُل في عُمر جلالتك يدعوه

أيَّ عسكريٍّ عاقل جباناً لرفضه مُقاتلة محارب عظيم في عزّ شبابه».

وقال ميراز راعِداً: «وهكذا أغدو خَرِفاً في طريقه إلى قبره، وجباناً خسيساً أيضاً. سأقول لكما الحقيقة، أيها اللوردان! بنصائحكما النسائيّة (هذه التي تتجنّب دائماً النقطة الجوهريّة، وهي السياسة الحكيمة) عملتُما عكس ما قصدتما. كنتُ أنوي أن أرفض التحدّي. ولكنّني سأقبله. هل سمعتما؟ سأقبله! ولن أخجل لأنّ سحراً أو غدراً ما قد جمّد دماءكما».

فقال غُلوزيل: «تناشد جلالتك...». ولكنّ ميراز كان قد اندفع خارج الخيمة، واستطاعا أن يسمعاه يزعق لإدمون بقبوله التحدّي.

فنظر اللوردان أحدُهما إلى الآخر وهما يضحكان ضحكاً خافتاً. وقال غُلوزيل: «لقد عرفت أنّه سيفعل هذا إذا أحسنّا إغاظته. ولكنّ لن أنسى نعته لي بالجبان. فسيدفع ثمن ذلك».

دبّت جلبة كبيرة في حصن أصلان لدى وصول الخبر وتبليغه لسائر المخلوقات. وكان إدمون وأحد قادة ميراز قد حدّدا ساحة المنازلة، ووُضعت حولها أوتادٌ وحِبال. وتقرّر أن يقف تِلماريّان عند اثنتين من الزوايا، وواحدٌ عند منتصف أحد الجوانب، ليكونوا قيّمين على الحَلْبة، على أن يُعيّن الملكُ الأعلى ثلاثة قيّمين آخرين للزاويتين الأُخريين والجانب المقابل. وإذ كان بطرس يشرح لكاسبيان سببَ

عدم جواز أن يكون واحداً من القيّمين، ما دام حقُّه في العرش هو موضوعَ المنازلة، إذا بصوتٍ ناعسٍ غليظ يقول فجأةً: «رجاءً، يا صاحب الجلالة». فالتفت بطرس وإذا أمامه واقفاً أكبرُ الدببة السِّمان وقد مضى يقول: «من فضلك، يا صاحب الجلالة، أنا دبّ، أنا دبّ!»

فقال بطرس: «أكيد أنّك هكذا. ولا شكّ عندي أنّك دبٌّ طيّب أيضاً».

وأجاب الدبّ: «نعم! ولكن من حقّ الدببة دائماً أن تعيّن واحداً منهم قيّماً على الحَلْبة».

فهمس طرَمبكن في أذن بطرس: «لا تسمح له. فهو مخلوقٌ طيّب، ولكنّه سيُخجلنا جميعاً. إنّه سينام وسيمصّ مخلبه حتماً، وأمامَ العدوّ أيضاً».

وقال بطرس: «لا يمكنني أن أمنعه، فهو على حقّ، وللدببة هذا الامتياز. ولا يمكن أن أتصوّر كيف جرى تذكُّر هذا بعد تلك السنين الطويلة فيما تمّ نسيان أمور كثيرة جدّاً».

فقال الدبّ: «رجاءً، يا صاحب الجلالة!»

وقال بطرس: «هذا من حقّك. ولسوف تكون واحداً من القيّمين. ولكنّ يجب عليك أن تتذكّر ألّا تمصّ مخلبك!»

فقال الدب بصوتٍ مصعوق: «طبعاً، طبعاً!»

وجأر طرَمبكن: «إذاً، لماذا تمصّه هذه اللحظة بالذات؟»



فسحب الدبُّ مخلبه من خطمه، متظاهراً بأنّه لم يسمع القول.

وصدر صوتٌ حادٌّ ونحيف من قُرْب الأرض: «مولاي!»

فقال بطرس: «آه...ريبيتشيب!» بعدما نظر إلى فوق وإلى تحت وحواليه كما يفعل الناسُ عادة حين يخاطبهم فأر.

وقال ريبيتشيب: «يا مولاي، إن حياتي رهن أمرك دائماً، ولكنّ شرفي لي. مولاي، عندي في قومي البوّاقُ الوحيد في جيش جلالتك. وقد ظننتُ أنّه ربّما كان ينبغي إرسالنا مع رسالة التحدّي. مولاي، إنّ قومي حزانى. فإذا سرّ جلالتك أن تجعلني أحد قيّمي الحَلْبة، فقد يُرضيهم ذلك».

وإذا بصوتٍ لا يختلف كثيراً عن الرعد ينفجر من مكانٍ ما فوق الرؤوس، إذ انفجر المارد ثقّابْريح في واحدة من تلك الضّحكات غير المهذّبة كثيراً والتي يندر أن تصدر من المَرَدة الأحسنَ نوعاً. ثمّ ما لبث أن ضبط نفسه وظهر بمظهرٍ بالغ الجدّيّة حالما اكتشف ريبيتشيب مصدر تلك الضحكة الضاجّة.

وقال بطرس بمنتهى الحزم: «أخشى ألّا ينفع ذلك. فبعض الآدميّين يخافون من الفئران..».

فقال ريبيتشيب: «لقد لاحظتُ هذا، يا مولاي».

وتابع بطرس: «فلا يكون من الإنصاف التامّ لميراز أن يكون بمرآهُ أيُّ شيءٍ قد يُخفّف من مستوى شجاعته».

فقال الفأر مع واحدةٍ من انحناءاته المُعجبة: «إنّ جلالتك مِرآةُ الشرف! وفي هذا الشأن عندي خاطرٌ واحد... أعتقد أنّي سمعتُ أحدهم يضحك قبل قليل. فإن رغب أحدُ الحُضور في اتّخاذي أُضحوكةً له، فإنّي أضع نفسي في خدمته تماماً — وسيفي بيدي — عندما يكون لديه وقتُ فَراغ!»

وأعقب هذه الملاحظة صمتٌ هائل خرقه قول بطرس:

«إنّ المارد ثقّابْريح والدبُّ والقنطور غصفلواد سيكونون قيّمي الحلبة. وستكون المُنازلة في الساعة الثانية بعد الظهر. والغداء عند الظهر تماماً».

وقال إدمون وهم ينطلقون: «أنا أرى...أعتقد أنَّ كلَّ شيء سيكون بخير. أعني: أعتقد أنَّك قادر على هزيمته!»

فقال بطرس: «لذلك أنوي مُقاتلته...للتأكُّد من هذا!»

الفصل الرابع عشر

نشاطٌ كثير للجميع

قبل الساعة الثانية بقليل، جلس طرَمبكن والغُرَير مع باقي المخلوقات عند طرف الغابة يتطلّعون إلى صفٍّ جنود ميراز ذوي الأسلحة البرّاقة، على بعد رميتَي سهم منهم. وفي الوسط، كانت ساحةٌ مُربَّعة من العشب المستوي قد سُيِّجت بالأوتاد والحبال لتكون حلبة المُبارَزة. وعند الزاويتين البعيدتين، وقف غُلوزيل وصُوبِسبيان وبيد كلٍّ منهما سيفة المُجرَّد. أمّا عند الزاويتين القريبتين فقد وقف المارد ثقّابُريح والدبُّ السمين؛ وكان هذا رغم جميع التحذيرات التي سمعها يمصُّ مخلَبيه ويبدو بالحقيقة بليداً على نحوٍ غير معتاد. وتعويضاً عن ذلك، وقف غصفلواد إلى يمين الحَلْبة لا يتحرّك قطعاً إلّا ليضرب التُّربة بحافرٍ خلفيّ بين الحين والحين، فبدا أكثر جلالاً من البارون التِلماريّ الذي يقف مُقابله إلى اليسار. وكان بطرس لتوّه قد صافح إدمون والدكتور، وها هو يتوجّه الآن إلى المُنازلة. فكانت تلك اللحظة أشبه بما قبلَ إطلاق إشارة البدء بسباقٍ مهمّ، ولكنْ أسوأ من ذلك بكثير جدّاً.

وقال طَرمبكن: «كم تمنَّيتُ لو أنَّ أصلان ظهر قبل وصولنا إلى هذا الوضع!»

فأجاب جانيكَماً: «وأنا أيضاً! ولكنِ انظرْ وراءك».

وحالما التفت القزم، قال مُتمتِماً: «يا للعجَب العُجاب! ما هؤلاء؟ ناسٌ ضِخام... ناسٌ وسام... مثل الجبابرة والحوريّات والمَرَدة. وهناك مئاتٌ وآلاف منهم يقتربون إلينا من خلف. فما هؤلاء؟»

فقال جانيكَماً: «هؤلاء هُنَّ حوريّات الغابات والأشجار وربّات البراري، وقد أيقظهنّ أصلان!»

وقال القزم: «عظيم! ستكون هؤلاء نافعاتٍ لنا إذا حاول العدوُّ القيام بأيّ غَدر. ولكنَّ ذلك لن يُفيد الملك الأعلى كثيراً إذا تبيَّن أنَّ ميراز أبرعُ منه في المُسايَفة».

فلم يقُل القزم شيئاً، إذ كان بطرس وميراز آنذاك يدخلان الحَلْبة من جهتين متقابلتَين ماشيَين كِلاهما ولابِسَين قميصَي زَرَد، مع خوذتَين وتُرسَين. وتقدَّما حتّى اقترب أحدهما من الآخر كثيراً. ثمَّ انحنى كلاهما وبدا أنّهما يتكلَّمان، ولكنْ كان من المستحيل سماع ما يقولانه. وفي اللحظة التالية بَرَق السيفان تحت ضوء الشمس. وكان ممكناً سماعُ تصادُم السيفين، إلّا أنّه سرعان ما تلاشى لأنَّ كِلا الجيشَين بدأا يصرخان كما يفعل الجمهور في مباراة كرة قدم.

وإذ رأى إدمون ميراز يتراجع خطوةً ونصفاً، هتف: «أحسنتَ، يا بطرس، أوه، نِعمّا! تابع الضَّرب بسرعة!»

وفعل بطرس ذلك، حتّى بدا بِضعَ ثوانٍ أنّه سيكسب القتال. ولكنَّ ميراز ما لبث أن اندفع مُتمابِكاً... مستغلاً طوله وثقله. وتعالت صيحات التلماريّين: «ميراز! ميراز! الملك! الملك!» وشحب وجها كاسبيان وإدمون من القلق المُسبِّب للمرض.

ثمَّ قال إدمون: «ها هو بطرس يتلقّى بِضع ضربات رهيبة».

وإذا بكاسبيان يقول: «عجباً! ماذا يجري الآن؟»

وقال إدمون: «كِلاهما يتباعدان، وكأنَّ أحداً نفخهما، كما أعتقد. لاحظوا. آه، ها هما يبدأان من جديد، بطريقةٍ مدروسة هذه المرّة؛ إنّهما يدوران ويجولان ويتلمّسانِ أحدُهما دفاعاتِ الآخر».

وتمتم الدكتور: «أخشى أن يكون ميراز هذا عارفاً ما يعمله جيّداً». ولكنّه ما كاد يقول ذلك، حتّى تعالى التصفيق والهُتاف ورُميت القُبّعات في الهواء بين النارنيانيّين الأقدمين على نحوٍ يكاد يصمُّ الآذان.

فسأل الدكتور: «ماذا جرى؟ ماذا جرى؟ لقد فات المنظَر عينيَّ الكليلتَين!»

أجاب كاسبيان وهو ما زال يصفّق: «لقد طعنه الملك الأعلى في إبْطه، تماماً عبر تقويرة الذراع بحيثُ دخل رأسُ السيف من بين الزَّرَد. وهذا أوّل دمٍ يسيل!»

وقال إدمون: «يبدو أنَّ الأمر يسوء من جديد الآن، رغم ذلك. فبطرس لا يستخدم ترسه جيّداً. أيكون قد



أُصيب في ذراعه اليُسرى؟»

وكان ذلك صحيحاً تماماً. فقد استطاع الجميع رؤية ترس بطرس متدلّياً بارتخاء. وتضاعف صراخ التلماريّين مجدّداً.

وقال كاسپيان: «لقد شاهدتَ من المعارك أكثر مما شاهدتُ أنا. فهل من فُرصةٍ الآن؟»

أجاب إدمون: «يا لَلصَّغير العزيز! أعتقد أنّه يمكن أن يُفلح فعلاً... إذا أسعفه الحظّ».

وقال كاسپيان:«آه، لماذا سمحنا بحدوث المُنازلة أصلاً؟»

وفجأةً خمد الصُّراخ في كِلا الجانبَين. فتحيَّر إدمون لحظةً. ثمّ قال: «أوه، فهمتُ! لقد اتّفقا كلاهما أن يستريحا قليلاً. هيّا يا دكتور! قد نستطيع أنا وأنت أن نفعل شيئاً لأجل الملك الأعلى». وركضا إلى الحَلْبة، فخرج بطرس إلى خارج الحِبال ليُلاقيهما، وقد احمرَّ وجهه وتصبّب عرقاً وأخذ صدره يجيش.

وسأل إدمون: «هل جُرِحَت ذراعك اليُسرى؟»

فأجاب بطرس: «ليس هو جُرحاً بالضبط. لقد تلقّيتُ ثِقل كتفه الكامل على تُرسي — كحِملٍ من اللِّبْن — فانغرزت حافة التُرس في مِعصَمي. لا أعتقد أنّ يدي مكسورة، بل ربّما كان هذا الْتواءً مفصل. فإنِ استطعتما أن تربطاها لي بإحكام، أظنّ أنّي أستطيع تدبير أمري».

وبينما هما يربطان يده، سأل إدمون بلهفة: «ما قولك فيه، يا بطرس؟»

فأجاب بطرس: «إنّه صُلب العود، صُلبٌ جدّاً. عندي فُرصة إذا قدرتُ أن أُبقيَه واثباً حتّى ينقلب عليه وزنُه الثقيل ونَفَسُه القصير، في حرّ الشمس هذا أيضاً.

وبالحقيقة، ليست لي فرصة كبيرة في سوى ذلك. إدمون، بلّغ محبّتي إلى... إلى الجميع في الوطن، إذا نال منّي. ها هو يعود إلى الحَلْبة من جديد. فإلى اللقاء، أيّها الفتى الأصيل. وداعاً، يا دكتور. ولا تنسَ، يا إدمون، أن تقول لطرمبكن كلاماً طيّباً. فلطالما كان شخصاً حلو المعشر!»

ولم يقدر إدمون أن يتكلّم، بل رجع مع الدكتور إلى صفوفه، وفي معدته وجعٌ مؤلم.

غير أنّ الجولة الجديدة سارت على ما يُرام. فقد بدا أنّ بطرس يُحسن استخدام تُرسه قليلاً، ولا شكّ أنّه استخدم قدميه استخداماً جيّداً. وكان الآن يُناور ويُحاور كأنّه يُلاعِب ميراز، مبتعداً دائماً عن مُتناوله، منتقلاً من موقع إلى موقع، مُجهِداً العدوّ.

وأخذ التلماريّون يستهزئون قائلين: «جبان! لماذا لا تواجهه؟ ألا يُعجبك الأمر، إيه؟ حسبناك جئت لتُحارب، لا لترقص؟ ياه!»

فقال كاسبيان: «أوه، أتمنّى ألّا يُصغي إليهم!»

وقال إدمون «هو لن يُصغي! أنت لا تعرفه... آه!» إذ إنّ ميراز أصاب بطرس أخيراً بضربة على خوذته. فترنّح بطرس، وانسلّ جانباً، ووقع على إحدى رُكبتيه. وعلا هدير التلماريّين مثلَ اصطخاب البحر زاعقين: «الآن يا ميراز. الآن. هيّا! هيّا! اقتله». ولكنْ لم تدعُ الحاجة إلى حثّ المُغتصِب، إذ كان قد صار فوق بطرس تماماً. وعضّ إدمون على شفتيه حتّى سال منهما الدم إذ هوى السيف

بارقاً على بطرس، فبدا كما لو أنّه سيقطع رأسه. ولكنْ — بحمد السماء! — حادَ وهوى على كتفه اليُمنى. وقد كانت الدرع التي صنعها الأقزام متماسكة فلم تتقطّع.

فهتف إدمون: «فرحى! فرحى! ها قد نهض من جديد. بطرس، اصمُد وهاجِمْ!»

وقال الدكتور: «لا أقدر أن أرى ما جرى. كيف فعل ذلك؟»

فقال طرمبكن وهو يرقص ابتهاجاً: «أمسك بذراع ميراز وهي نازلة عليه. هوذا رجُلٌ يتصدّى له! وقد استخدم ذراع عدوّه كسُلّم. الملك الأعلى! الملك الأعلى! نُهوضاً يا نارنيا القديمة!»

وقال طرمبكن: «انظر! ميراز غضبان. هذا جيّد».

وما لبث كلاهما أن انهمكا في النزال بقوّة وشدّة عظيمتين، في فورةٍ من الضَّربات بحيث بدا مستحيلاً ألّا يُقتل أيٌّ منهما. وإذ تعاظمت الحماسة، كاد الصُّراخ يتلاشى. فإنّ المشاهدين كانوا حابسين أنفاسهم. وقد كان المشهد فائق الرعب وفائق الروعة.

وعلا هتاف عظيم من جانب النارنيانيّين القدامى، إذ انطرح ميراز أرضاً، بغير أن يضربه بطرس، بل انبطح على وجهه إذ زلّت قدمه على كتلة عُشب. وتراجع بطرس إلى الوراء، منتظراً ريثما ينهض ميراز.

فقال إدمون لنفسه: «أوه، أفٍّ، أُفّ! أينبغي أن يكون بمثل هذا النُّبل واللُّطف؟ أعتقد أنّه ينبغي له ذلك. فهذا

يعودُ إلى كونه فارساً وملكاً أعلى أيضاً. أعتقد أنَّ هذا مِمّا يحبّه أصلان. ولكنَّ الوحش سينهض في أقلَّ من دقيقة، ومن ثَمَّ...».

غير أنَّ «ذلك الوحش» لم ينهض قطّ. وكان اللوردان غُلوزيل وصُوبِسبيان قد أعدّا خطّتهما بإحكام. وما إن رأيا ملكهما منطرحاً حتّى قفزا إلى داخل الحَلْبة صارخَين: «خيانة! خيانة! إنَّ الخائن النارنياني قد طعنه في ظهره وهو منبطحٌ بلا حَول ولا قوّة. إلى السِّلاح! إلى السِّلاح، يا أهل تلمار!»

وبالكادِ فهم بطرس ما يجري. إذ رأى رجُلَين كبيرَين يركضان نحوه وقد جرّدا سيفَيهما، فيما قفز التلماريُّ الثالث من فوق الحبال إلى يساره.

فصاح بطرس: «إلى السلاح يا أهل نارنيا! خيانة!» ولو هجم عليه الثلاثة كلُّهم في الحال لما قدر أن يتكلَّم ثانيةً قطعاً. إلّا أنَّ غُلوزيل توقَّف حتّى يطعن مَلِكه حتّى الموت حيث كان منبطحاً. وفيما شفرة السيف تخترق جسد الملك، همس غُلوزيل: «هذا ثمن إهانتك لي هذا الصباح!» وهبَّ بطرس لمواجهة صُوبِسبيان فشرط رجليه من تحته بضربة قويّة واحدة، ثمَّ ردَّ تلك الضربة عينها فأطاح رأسه عن جسده. إذ ذاك كان إدمون إلى جانبه وهو يصرخ: «نارنيا، نارنيا! الأسد!» وإذا بالجيش التلماريّ كلّه يندفع نحوهما. ولكنَّ المارد أيضاً كان قد قام يخبط الأرض بقدميه مُنحَنياً إلى الأسفل ومُرجِّحاً

هراوتهُ* بيده. وهجم القنطورات أيضاً. وسُمِعت فوق الرؤوس هَسهسةُ سهام الأقزام ورنين أقواسها: توانغ، توانغ! وانضمّ طرمبكن إلى القتال عن يساره. وهكذا حَمِيَت المعركة تماماً!

ثمّ صاح بطرس: «ارجع إلى هنا، يا ريبيتشيب، أيُّها الأبله الصغير! فأنت إنّما ستُقتَل. ليس هذا مكاناً للفئران!» إلّا أنَّ المخلوقات المضحكة الصغيرة أخذت تتواثب داخلةً وخارجةً بين أقدام كِلا الجيشَين، وهي تلكز بسيوفها الصغيرة. وكم من محاربٍ تلماريٍّ في ذلك اليوم شعر فجأة بقدمه تخترقها عشراتُ الأسياخ، فوثب على قدمٍ واحدة لاعناً الألم، ثمَّ وقع أرضاً بسرعة كمُعظم الآخرين! فإذا سقط أرضاً، أجهزت عليه الفئران؛ وإن لم يسقط، أجهز عليه غيرها.

ولكنْ قبل أن يَحمَى النارنيانيّون القدامى في العمل تقريباً، وجدوا أعداءهم يفرّون من الساحة. فإذا بالمحاربين المَهُولي المنظر تشحب وجوههم وقد دبَّ فيهم الذُّعر وهم يُحدِّقون لا إلى النارنيانيّين القُدامى، بل إلى شيءٍ ما خلفَهم، ثمَّ يُلقون أسلحتهم بعيداً صارخين: «الغابة! الغابة! نهايةُ العالم!»

إنّما سرعان ما لم تعدْ تُسمَع صرخاتُهم، ولا قرقعة أسلحتهم، لأنّها كلُّها غرقت في ذلك الهدير الهائل مثل

* الهراوة: عصا قصيرة غليظة.

هدير البحر، والصادر عن الأشجار المُوقَظة وهي تخترق صفوف جيش بطرس، ثمّ تُتابع سيرها مُطارِدةً التلماريِّين.

هل وقفتَ ذاتَ مرّة عند طرف غابة عظيمة على جبلٍ عالٍ وقد هبَّت عليه ريحٌ جنوبيّة غربيّة شرسة جدّاً في مساء يوم من أيام الخريف؟ تخيَّلْ صوت الريح العاصفة. ثمّ تخيَّلْ أنّ تلك الغابة، بدلاً من البقاء ثابتةً في مكان واحد، أخذت تهجم عليك، ولم تعُد أشجاراً في ما بعد بل صارت ناساً ضِخاماً، ومع ذلك ما يزالون يشبهون الشجر لأنّ أذرعهم الطويلة تُلوّح كالأغصان ورؤوسهم تهتزّ فيتساقط منها الورق كالمطر في كل ناحية. هكذا كانت الحال بالنسبة إلى التلماريِّين. وقد كان ذلك مخيفاً بعض الشيء للنارنيانيِّين أيضاً. ففي غضون دقائق قليلة كان جميع أتباع ميراز يركضون نزولاً إلى النهر الكبير، على أمل عبور جسر بيرونا، ثمّ التحصُّن وراء المتاريس والأبواب المقفلة في مدينة بيرونا.

وبلغوا النهر، ولكنْ لم يكن جسر! فقد اختفى منذ يوم أمس. وعندئذٍ وقع عليهم ذُعر ورعب شديدان، واستسلموا كلُّهم.

ولكنْ ماذا حلّ بالجسر؟

باكراً في ذلك الصباح، بعد نومِ ساعات استيقظت الفتاتان فرأتا أصلان واقفاً فوقهما، وسمعتا صوته قائلاً لهما: «سيكون لنا يوم عطلة!» ففركتا أعينهما ونظرتا حواليهما، فإذا الأشجار كلُّها قد زالت، ولكنْ ما زال ممكناً

أن تُرى وهي تتوجه نحو حصن أصلان في كتلةٍ كثيفة. وكان باخوس وميناداتُه (فتياتُه المَرِحاتُ الطائشات) وسلينوس ما يزالون هناك. وإذْ كانت لوسي قدِ استراحت تماماً، هبَّت واقفةً.

وهكذا استيقظ الجميع، وأخذوا يتضاحكون، وعُزِفَتِ النايات، وضُرِبت الصُّنوج. وأخذت حيوانات تحتشد حولهم من كلّ ناحية، ولكنْ ليس من الحيوانات الناطقة.



وقالت لوسي: «ما الأمر، يا أصلان؟» فيما عيناها ترقصان وقدماها تريدان أن ترقصا.

فقال: «هيّا، يا بُنيَّتيَّ، امتطيا ظهري اليوم أيضاً!»

فقالت لوسي: «ما أحبَّ ذلك!» وصعدت البنتان كلتاهما على الظهر الذهبي الدافىء، مثلما قد فعلتا منذ سنين كثيرة لا يعلم أحدٌ عددها. ثمّ تقدّم الموكب كلُّه: أصلان في الطليعة، ثمّ باخوس وميناداتُه قافزات ومُندفِعات ومُتشقلِبات، وحولهم الحيوانات تسرح

وتمرح، ثمّ سلينوس وحماره في آخِر الموكب.

ثمّ انعطفوا إلى اليمين قليلاً، وهبطوا تلاً مُنحدِراً مُسرِعين، فإذا أمامهم جسرُ بيرونا. غير أنّه قبل الشروع بعبوره، طلع من الماء رأسٌ كبيرٌ مُبلَّل ذو لحية، أكبر من رأس رجُل، مُكلَّل بنبات الأسَل *. وتطلّع ذلك الرأس إلى أصلان، مُنبعِثاً من فمه صوتٌ عميقٌ يقول:



«مرحباً، يا سيّد! فُكَّ قيودي».

فهمست سوزان: «ما ذلك يا تُرى».

وقالت لوسي: «أحسب انّه إله النهر، ولكنْ سكوتاً!»

ثمّ قال أصلان: «باخوس، حرِّره من قيوده!»

* الأسل: نبات ذو أغصان كثيرة شائكة ينبت في الماء وفي الأرض الرطبة

وقالت لوسي في سرّها: «إنّه يعني الجِسر، كما أتوقّع». وقد كان ذلك صحيحاً. فاندفع باخوس وصحبُه إلى المياه غير العميقة مُطرطِشين، وبعد دقيقة بدأت أغربُ الأشياء تحدث. فإنّ جذوعاً ضخمةً قويّة من اللّبلاب المُعترِش أخذت تتسلّق ملتفّةً حول دعائم الجسر كلّها، ناميةً بسرعةِ تأجّج النار، مُطوِّقةً الحجارة، مُصدِّعةً ومُحطِّمةً ومُباعِدةً إيّاها. فإذا بحيطان الجسر تتحوّل إلى سياجات زاهية الألوان بثمار الزعرور البرّيّ في لحظةٍ واحدة، ثمّ تتلاشى إذ ينهار كلُّ شيء دُفعةً واحدة إلى قلب المياه المُدوِّمة بضجيج تهدُّم رهيب. وأخذ المارِحون مرحاً صاخباً، بكثير من الطُّرطشة والصراخ والضحك، يُخوِّضون أو يسبحون أو يرقصون في المخاضة ذهاباً وإياباً (وقد هتفت البنتان: «هُورّاه! ها هي مَخاوِض بيرونا تظهر من جديد!»)، ثمّ عبروا إلى الضفّة القُصوى وصعدوا إلى المدينة.

وهرب جميع مَن في الشوارع من أمام وجوههم. وكان أوّل مبنى وصلوا إليه مدرسة: مدرسة للبنات فيها كثير من بنات نارنيا يتعلّمن درس تاريخ، وشعرهنّ مُسوّى بطريقة مشدودة جدّاً، وحول أعناقهنّ قبّات ضيّقة بشعة، وعلى سيقانهنّ جواربُ ثخينة تَخِزُها وخزاً. أمّا «التاريخ» الذي كان يُعلَّم في نارنيا تحت حكم ميراز فقد كان أكثر إملالاً من أصدق تاريخ يمكنك أن تقرأه وأقلّ صدقاً من أكثر قصص المغامرات تشويقاً.

وسَمِعت المعلّمة تقول: «إنْ كنتِ لا تنتبهين، يا جِندَلي، وتتوقّفين عن النظر من الشبّاك، فسأُضطرُّ إلى تخفيض علامة السلوك لديكِ».

وبدأت جِندَلي تقول: «ولكنْ رجاءً، يا آنسةُ برزل..».

فسألت الآنسة برزل: «أسمعتِ ما قلتُه لكِ يا جِندَلي؟»

وقالت جِندَلي: «ولكن رجاءً، آنسة برزل، هنالك أسد!»

فقالت المعلّمة: «ستنالين تخفيضاً مضاعفاً لعلامة سلوككِ بسبب نُطقكِ بهذا الهَذر! والآن..». وإذا بزمجرةٍ تُقاطعها، وبنبات اللبلاب يتسلّق الشبابيك في غرفة الدرس. ثمّ صارت الحيطان كتلة من الخُضرة الزاهية، وتدلّت فوق الرؤوس قناطر من الأغصان الكثيفةِ الورق، حيث كان السقف قبلاً. ووجدت الآنسة برزل نفسها واقفة على العشب في فسحة بين الشجر في غابة. فتشبّثت بمكتبها لتُثبّت نفسها، وإذا بالمكتب أجمةُ وَرْد. وأخذ يحتشد حولها ناسٌ بريُّون لم يسبق لها أن رأت مثلهم. ثمّ رأتِ الأسد، فصرخت وهربت، وهربت معها تلميذاتُها، وكُنّ في معظمهنّ فتياتٍ صغيرات قصيرات بدينات أنيقات، ذواتِ أرجُلٍ سمينة. إلّا أنّ جِندَلي تردّدت.

فقال أصلان: «هل تنضمّين إلينا، يا حبيبتي الصغيرة؟»

وقالت جِندَلي: «أوه، أتسمح لي؟ شكراً لك، شُكراً لك!» وفي الحال أمسكت بيديها يَدَي اثنتين من المينادات فرقصتا معها رقصةً مَرِحة، وساعدتاها على خلع قسمٍ من الثياب غير الضرورية وغير المريحة التي كانت ترتديها.

وأينما ذهبوا في مدينة بيرونا الصغيرة، حدث مثلُ ذلك. فإنّ معظم الناس هربوا، وقليلين انضمّوا إليهم. وعندما غادروا البلدة، كانوا جماعةً أكبر عدداً وأكثر مرحاً.

ثمّ اندفعوا بخفّةٍ عبر الحقول المستوية على ضفّة النهر الشمالية، أو اليُسرى. وفي كلّ مزرعة، خرجت حيواناتٌ لتنضمّ إليهم. فالحمير المسنّة الحزينة التي لم تعرف الفرح قبلاً دبّ فيها نشاط الشباب فجأةً من جديد. والكلاب المقيّدة كسّرت قيودها. والأحصنة رفست عرباتها وحطّمتها ثمّ راحت تخبّ معهم ضاربةً الأرض بحوافرها: كلوب كلوب! ورافسةً الوحل عالياً وهي تصهل بفرح.

وقُربَ بئرٍ في ساحةِ بيتٍ، صادفوا رجلاً يضرب ولداً. وإذا بالعصا تخضرُّ وتُزهر في يد الرجل. وحاول أن يرميَها، فلصقت بيده. وصارت ذراعه غصناً، وجسده جذع شجرة، وخرجت من قدميه جذور. أمّا الولد الذي كان يبكي قبل لحظات، فقد انفجر ضاحكاً وانضمّ إليهم.

وفي بلدةٍ أُخرى صغيرة، واقعة في منتصف الطريق إلى سدّ السمامير، حيث يلتقي نهران، وصلوا إلى مدرسة

أخرى، حيث كانت فتاة يبدو عليها التعب تُعلّم مجموعة من الصِّبْيان القليلي التهذيب درساً في الحساب. ونظرت إلى خارج الشبّاك فشاهدت المحتفلين المبتهجين يغنّون في عُرض الشارع، فسَرَت في قلبها فجأة موجة فرح. ووقف أصلان تحت الشبّاك تماماً، ورفع نظره إليها، فقالت له:

«أوه، لا، لا تفعل! كان ذلك أحبَّ إليّ. ولكنْ عليّ ألّا أفعل. عليّ أن ألازم عملي. وسيخاف الأولاد كثيراً إذا رأوك».

فقال أقلّ الأولاد تهذيباً: «نخاف؟ مع مَن تتحدّث خارج الشبّاك؟ لنقُل للمفتّش إنّها تكلّم الناس من الشبّاك حين يجب أن تعلّمنا!»

وقال صبيٌّ آخر: «لنذهب ونرَ مَن ذلك!» ثمّ ازدحموا جميعاً على الشبّاك. ولكنْ ما إن أطلّت وجوههم الصغيرة الدنيئة، حتّى أطلق باخوس صرخة إيوان — إيوي — أووي — أووي! فبدأ الصِّبيان



كلّهم يُوَلوِلون رُعباً ويدوسون بعضهم بعضاً ليهربوا من الباب أو يقفزوا من الشبابيك. وقد قيل في ما بعد (بحقّ أو بغير حقّ) إنّ أولئك الصِّبْية الصغار أنفسهم لم يُرَوا ثانيةً قطّ، ولكنْ وُجدت هُناك مجموعة من جِداء المِعزى الحسنة جداً في تلك المنطقة من الريف، لم تكن هُنالك أصلاً!

ثمّ قال أصلان للمعلّمة: «والآن، يا ذات القلب الطيّب!» فقفزت إلى الشارع وانضمّت إليهم.

وعند سدّ السماسير عبروا النهر مرّةً أخرى، واتّجهوا إلى الشرق مجدّداً على طول الضفّة الجنوبيّة. ووصلوا إلى كوخ صغير وقفت في مدخله بنتٌ تبكي.

فسألها أصلان: «لماذا تبكين يا حبيبتي؟» ولم تخَف البنتُ من الأسد، إذ لم تكن قد رأت من قبل صورة أسد.

أجابت: «عمّتي مريضة جداً، وستموت!»

ثمّ مضى أصلان ليدخل الكوخ من بابه، ولكنّه كان صغيراً جداً عليه. وهكذا، فإذ أدخل رأسه في الباب، اندفع إلى الأمام بكتفيه (وسقطت لوسي وسوزان عن ظهره عندئذٍ)، فرفع البيت كلّه عالياً، فسقط إلى الوراء وانشقّ محطّماً. وإذا بامرأةٍ كبيرة السنّ ضئيلة ما تزال ممدّدةً على سريرها مع أنّه صار الآن في الهواء الطلق، وقد بدت وكأنّ في عروقها دمَ أقزام. وكانت مُشرِفة على الموت، إلّا أنّها لمّا فتحت عينيها ورأت رأس الأسد الأشعرَ الأشقر يُحدّق

إلى وجهها، لم تصرخ ولا أُغميَ عليها. بل قالت: «أوه، أصلان! كنتُ أعرف أنّ ذلك حقّ. ولطالما انتظرتُ هذا اللقاء طولَ عُمري. هل جئتَ لتأخذني بعيداً من هنا؟»

فقال أصلان: «نعم أيّتها العزيزة جدّاً! ولكنْ ليس في رحلتك الأخيرة بعد». وإذْ تكلّم، فكما يسري الوميض في حواشي غيمةٍ عند الفجر، عاد اللون إلى وجهها الشاحب، وبرقت عيناها، ثمّ جلست وقالت: «عجباً! أعترف حقّاً بأنّني أشعر بتحسُّن فائق. وأظنّ أنّني أقدر أن أتناول فطوراً بسيطاً هذا الصباح».

فقال لها باخوس: «لكِ ذلك يا أُمّاه!» ثمّ دلّى دلواً في بئر الكوخ وناولها إيّاه. ولكنْ ما كان فيه لم يكن ماءً، بل كان نبيذاً من أفخر ما يكون، أحمرَ مثل عصير الكرَز، رائقاً كالزيت، مقوّياً كلحم العِجل، مُدفئاً مثل الشاي، بارداً كقطر النّدى.

وقالت المرأة: «إه! لقد فعلتَ لبئرنا شيئاً عظيماً! وهذا تغييرٌ جيّد حقّاً!» ثمّ قفزت خارجَ السرير.

ثمّ قال أصلان للمرأة: «امتطي ظهري!» وأضاف قائلاً لسوزان ولوسي: «أنتما الملكتين، ينبغي أن تركضا الآن!»

فقالت سوزان: «ولكنْ هذا أيضاً يروقُنا». ثم استأنفتا سيرهما السريع.

وهكذا أخيراً، بقفزٍ وغناء وموسيقى وضحك، وزئير وعواء وصهيل، وصلوا جميعاً إلى حيث كان جيش ميراز

واقفين مُنكّسي السيوف ورافِعي الأيدي فوق رؤوسهم، وقد وقف حولهم جيشٌ بطرس وهم ما يزالون حاملين أسلحتهم يستجمعون أنفاسهم، وعلامات الجِدّ والسرور على وجوههم. وكان أوّل شيء حدث أنّ العجوز زلّت عنْ ظهر أصلان وركضت نحو كاسبيان، فتعانقا، إذ كانت هيَ مربّيته القديمة!

الفصل الخامس عشر

أصلان يُقيم باباً في الهواء

عند رؤية أصلان، أصبحت خدود الجنود التلماريّين شاحبةً شحوب الموتى، واصطكّتْ رُكَبُهم، وسقط كثيرون منهم على وجوههم. وإذ لم يكونوا يؤمنون بالأسود، ضاعف ذلك خوفهم إلى أقصى حدّ. حتّى الأقزامُ الحُمر، وقد علموا أنّه جاء صديقاً، وقفوا فاغِري الأفواه معقودي الألسنة. وأخذ بعضٌ من الأقزام السُّود، ممّن كانوا من حزب نيكابريك، ينسحبون جانباً. ولكنّ جميع الحيوانات الناطقة أخذت تتدافع حول الأسد، مُطلِقةً صيحات فرح على شكل خرخرة ونَخْر وصَرير وصهيل، مُحرّكة أذنابها له بحيث تمسّه، ومتمسّحةً به، وماسّة إيّاه بأنوفها باحترام، وذاهبةً وراجعةً تحت جسمه وبين قوائمه. ولو كنتَ قد شاهدتَ هُرَيرةً تتودّد إلى الهرّة الأم واثقةً بمحبّتها وعطفها، لكوّنتَ فكرةً جيّدة جدّاً عن تصرُّف الحيوانات مع أصلان.

ثمّ شقّ بطرس طريقه بين جمهرة الحيوانات، ممسكاً كاسپيان بيده. وقال: «هذا هو كاسپيان، يا سيّدي».

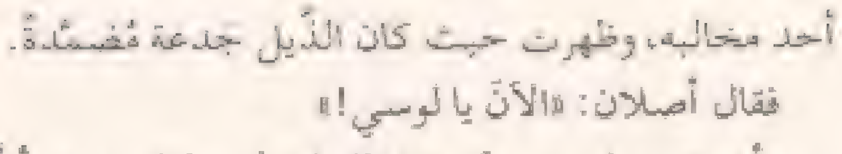
فركع كاسپيان وقبّل يدَ الأسد.

فقال أصلان: «أهلاً بكَ يا أمير! هل تحسّ أنك كفوء لتولّي مُلك نارنيا؟»

أجاب كاسپيان: «إنّني... إنّني لا أحسبُ نفسي كفوءاً، يا سيّدي. فما أنا إلّا ولدٌ صغير».

فقال أصلان: «عظيم! لو أحسستَ بنفسك الكفاءة، لكان ذلك برهاناً على عدم أهليّتك. وعليه، فتحتَ إمرتنا وإمرة الملك الأعلى، تكونُ ملكَ نارنيا، وسيّد كيرپراڤيل، وإمبراطور الجزر المُنفرِدة: أنت ووَرَثتك ما دام نسلك قائماً. أمّا تتويجك... تُرى، ماذا عندنا هنا؟» إذ في تلك اللحظة كان موكبٌ غريبٌ صغير يتقدّم: أحد عشر فأراً، ستّةٌ منها تحمل في ما بينها شيئاً على حمّالةٍ مصنوعة من أغصان الشجر، ولكنّ المِحفّة* لم تكن أكبر من أطلس كبير. ولم يرَ أحدٌ قطُّ فئراناً تُثقِلُها الهموم وفي حالةٍ رديئة أكثر من تلك. فقد كانت مُلطَّخة بالوحل — وبعضها مُضرّجة بالدم أيضاً — وكانت آذانها مُنكّسة وشواربها مُسبَلة وأذنابها تتجرجر على العشب، كما كان قائدها ينفخ في نايه النحيف نغماً حزيناً. وقد تمدّد على الحمّالة ما بدا أحسن بقليل من كتلة فروٍ صغيرة رطبة، هي كلّ ما بقي من ريبيتشيب! وكان ما يزال يتنفّس، إلّا أنّه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وقد أُثخِن بجراحٍ لا تُعدّ، وسُحق

* المحفّة: حمّالة يحمل عليها المرضى أو المسافرين.



أحد مخالبه، وظهرت حيث كان الذّيل جدعة مُضمَّدة.

فقال أصلان: «الآنَ يا لوسي!»

وأخرجت لوسي قِنّينتها الماسيّة في الحال. ومع أنَّ قطرة واحدة كانت كافية لكلِّ جرحٍ من جراح ريبيتشيب، فقد كانتِ الجراح كثيرة جدّاً بحيث ساد صمتٌ طويل ومتلهّف قبلما انتهت لوسي وقفز الفأر من على الحمّالة. وامتدّت يده في الحال إلى مِقبض سيفه، فيما أخذ يفتل شاربيه بالأخرى، ثمّ انحنى. وسُمع صوته الحادُّ النحيف يقول:

«عِشتَ يا أصلان! لي الشّرف بأن..». إلّا أنّه توقّف فجأة.

ففي الواقع إنّه كان ما يزال بلا ذيل، إمّا لأنَّ لوسي نسِيَته، وإمّا لأنَّ بَلسَمها الشافي لا يقدر أن يجعل الأعضاء المفقودة تظهر من جديد، رغم قدرته على شفاء الجراح. وقد تنبّه ريبيتشيب إلى خسارته عندما أدّى انحناءته، إذْ ربّما شعر بتغيُّرٍ في توازنه. فألقى نظره من فوق كتفه اليُمنى، وإذ فشل في رؤية ذيله، مطَّ عُنقَه أكثر حتّى اضطُرَّ إلى إدارة كتفيه، فتبع ذلكَ جسمُه كلّه. ولكنْ عندئذٍ دارت قائمتاه الخلفيّتان أيضاً فغابتا عن نظره. ثمّ مطَّ رقبته ناظراً من فوق كتفه أيضاً، فكانت النتيجة هي إيّاها. ولم يستطع أن يرى الحقيقة المُرّة إلّا بعد أن دار كليّاً ثلاث مَرات.

ثمّ قال لأصلان: «أنا مُرتبك. أنا مُضطرب تماماً. عليَّ أن أطلب صفحك لظهوري بهذا المظهر غير اللائق».



فقال أصلان: «إنّه يُناسِبك تماماً، أيُّها الصغير!»

وأجاب ريبيتشيب: «على كلِّ حال، إن كان ممكناً فعل شيء... لعلّ جلالتها؟» وهُنا انحنى للوسي.

فسأله أصلان: «ولكنْ لماذا يهمُّك أمرُ ذيلك؟»

فقال الفأر: «سيّدي، يمكنني أن آكل وأنام وأموت لأجل مليكي بغير ذيل. ولكنّ الذيل هو شرَف الفأر ومجده».

وقال أصلان: «لقد تساءلتُ أحياناً، يا صاحبي، إن كنتَ لا تُبالغ كثيراً في تقدير شرفك».

فأجاب ريبيتشيب: «يا أعلى جميع الملوك الأعلَين، اسمحْ لي بتذكير جلالتك أنّنا نحن الفئران قد مُنِحنا حجماً ضئيلاً جدّاً. وإن كنّا لا نحافظ على كرامتنا فإنَّ بعضاً (ممّن يقدّرون القيمة بالسنتيمترات) قد يُجيزون لأنفسهم دُعاباتٍ ثقيلة جدّاً على حسابنا. لذلك اجتهدتُ أن أُعلِنَ أنَّ أيَّ مَنْ يرغب في أن يتلقّى من

سيفي هذا أقربَ ضربة إلى قلبه أستطيعها يمكنه أن يتحدَّث في حضوري عن المصائد أو الجبن المحمَّص أو الشموع: كلّا، يا سيِّدي، لن أسمح حتى لأطول أحمق في نارنيا!» وهُنا حدَّق بمنتهى الشراسة إلى ثقابيح فوقه. إلّا أنّ المارد، وهو دائماً يتأخر عن الجميع بمرحلةٍ ما، لم يكن قد استوعب بعدُ ما قيل من كلامٍ تحتُ عند قدميه، وهكذا فاتته الفكرة المقصودة.

وقال أصلان: «هل لي أن أسأل: لماذا سحب جميع أتباعك سيوفهم؟»

فقال الفأرُ ذو المرتبة الثانية، وكان اسمه بيبيسيك: «إذا سرَّك يا صاحبَ الجلالة العليا، فنحن جميعاً ننتظر أن نقطع أذنابنا إذا كان رئيسُنا سيبقى بلا ذَنَبه. إننا لن نتحمَّل خزي الاحتفاظ بشَرَفٍ حُرم منه الفأرُ الأعلى!»

وجأر أصلان: «آه! لقد غلبتُموني. إنكم أصحاب قلوب كبيرة. فليس لأجل كرامتك، يا ريبيتشيب، بل من أجل المحبة التي بينك وبين شعبك، وأيضاً من أجل الإحسان الذي أبداه إليَّ بنو قومك في قديم الزمان عندما قرضتُم الحبال التي قُيِّدتُ بها على طاولة الحجر (وعندئذٍ — مع أنكم نسيتم هذا من زمان بعيد — ابتدأتُم تكونون فئراناً ناطقة)، سوف تستردُّ ذيلك!»

وقبل أن يفرغ أصلان من كلامه، كان الذَّيل الجديد في مكانه! بعدئذٍ، عملاً بأمر أصلان، منح بطرسُ كاسپيانَ الفروسيَّة بموجب رتبة الأسد. وحالما صار كاسپيان فارساً،

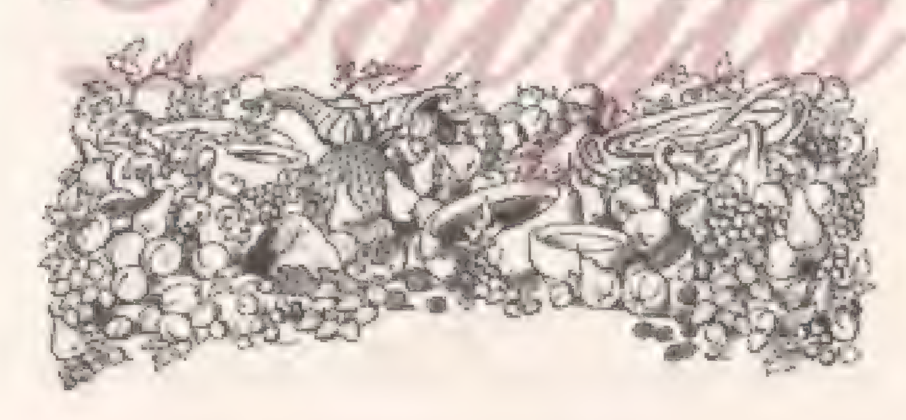
منح هو نفسه الفروسيَّة لجانيكما وطرمبكن وريبيتشيب، وعيَّن الدكتور كُرنيليوس في منصب رئيس القضاء الأعلى عنده، وثبَّت الدبَّ السمين في منصبه الوراثي قيِّماً على الحَلْبة. ثمَّ تعالى تصفيقٌ عظيم.

وبعد ذلك أخذ الجنود التلماريُّون عبر المخاضة، بحزمٍ لكنْ بغير إهانة أو ضرب، وحُبِسوا كلُّهم في مدينة بيرونا، وقُدِّم لهم طعام وشراب. وقد أحدثوا هرجاً ومرجاً عند تخويضهم في النهر، لأنَّهم جميعاً كانوا يكرهون ويخافون المياه الجارية تماماً كما كانوا يكرهون ويخافون الغابات والحيوانات. ولكنْ في الأخير انتهى كلُّ إزعاج، ثمَّ ابتدأت أحسن الأوقات في ذلك اليوم الطويل.

وإذ كانت لوسي قاعدةً بقرب أصلان تماماً وهي تشعر براحة سماويَّة، تساءلت عمَّا كانت الأشجار تفعله. ففي البداية حسبت أنَّها ترقص فحسب. فقد كانت بالفعل تدور ببطء في حلقتين: واحدة من اليسار إلى اليمين، وأُخرى من اليمين إلى اليسار. ثمَّ لاحظت أنَّ الأشجار ظلَّت تُلقي إلى الأرض شيئاً في وسط كلتا الدائرتين. وخُيِّل إليها أحياناً أنَّ الأشجار تقصُّ خُصلاً كبيرة من شعرها وتطرحها، كما بدا أحياناً أُخرى كما لو أنَّها كانت تقطع أجزاءً من أصابعها؛ ولكنْ إن كان ذلك هو الواقع، يكون لديها أصابع احتياطيَّة كثيرة ولا يؤذيها ذلك في شيء. ولكنْ مهما كان ما تطرحه أرضاً، فعندما يصل إلى الأرض يصير أغصاناً مقطوعة أو قضباناً يابسة. ثمَّ تقدَّم

ثلاثة أو أربعة من الأقزام الحُمر بصناديق وَقودهم الصغيرة وأشعلوا كومة الحطب، ففرقعت أولاً ثمّ تأجّجت، وأخيراً هدرت هدراً كما يحصل لنيران الحطب الكبيرة التي تُوقَد ليلة مُنتصف الصيف عادةً. وقعد الجميع حول النار في حلقة واسعة.

ثمّ بدأ باخوس وسلينوس والمينادات يرقصون رقصةً أكثر غرابةً من رقصة الأشجار. ولم تكن فقط رقصة في سبيل المرح والجمال (مع أنّها كانت كذلك أيضاً)، بل رقصة سحريّة للخير والوفرة. فحيثما مسّت أيديهم وحيثما وقعت أقدامهم، برزت إلى الوجود خيراتٌ شتّى: قطع كبيرة من اللحم المشوي غمرت الغيضة* بروائح شهيّة، كعكٌ من دقيق القمح ودقيق الشوفان، عسل وسكاكر متعدّدة الألوان وكريما كثيفة كالعصيدة وناعمة كالمياه الرائقة، دُرّاق ومشمش ورمّان وإجاص وعنب وتوت وكرز وتلال وشلالات من الفواكه. ثمّ جاء النبيذ



* الغيضة: موقع كثير الشجر حول مجتمع ماء.

في كؤوس وأكواب وطاسات كبيرة من الخشب، مكلّلة باللبلاب؛ ومنه ما كان داكناً وكثيفاً كالعصير والدبس، أو صافياً وأحمر مثل الهُلام الأحمر السائل؛ ومنه ما كان أصفر أو أخضر أو برتقاليّاً أو حشيشيّاً.

أمّا أهل الشجر فقد قُدّم لهم طعامٌ مختلف. ولمّا رأت لوسي جرّافطين وحيوانات الخُلد المرافقة له يجرفون التربة في أماكن شتّى (دلّهم عليها باخوس)، وتبيّن لها أنّ الأشجار توشك أن تأكل التراب، سرت في أوصالها قشعريرة. إلّا أنّها حين رأت أنواع التربة التي جيء بها إلى الأشجار، هدأ روعها تماماً. فقد بدأتِ الوجبة بتُربة طُفاليّة غنيّة بنيّة اللون كادت تبدو مثل الشوكولا تماماً، حتّى إنّ إدمون بالحقيقة ذاق شيئاً منها ولكنّه لم يحبّها قطّ. وعندما سدّت الأشجار جوعها بتلك التُربة الطُفاليّة الغنيّة، تحوّلت نحو تُربةٍ شبه قرنفليّة اللون، وقالت إنّها أخفّ وأحلى! وفي مرحلة تناوُل الجبن، قُدّمت للأشجار تُربة طبشوريّة، ثمّ انتقلت إلى أفخر الحلويات المؤلّفة من أجمل الحصى المطحونة مع رمل الفضّة الممتاز. وشربت



الأشجار نبيذاً قليلاً جعل شُجيرات البَهْشيّة كثيرات الثرثرة. أمّا الجزء الأكبر في إرواء عطشها فقد توافر لها من جرعاتٍ عميقة مُزج فيها المطر بالندى، وأُضيفت إليها نكهةُ أزهار الغابات ومَذاقُ أرقّ الغيوم اللطيفُ الخفيف.

وهكذا أقام أصلان وليمة للنارنيانيّين حتّى وقتٍ متأخّرٍ بعد الغروب، وقد طلعت النجوم، وصارت النار العظيمة أكثر حرارةً لكن أقلّ ضجّةً وباتت تشعّ كمنارة وسط الغابات المظلمة، حتّى رآها التلماريّون الخائفون جدّاً من بعيد وأخذوا يتساءلون عمّا تكون. وكان أجمل شيءٍ في هذه الوليمة انّه لم يحصل بعدها فراقٌ ورحيل، ولكنْ إذْ صار الحديث أكثر هدوءاً وتمهُّلاً أخذ الحضور واحداً بعد الآخر يُنكّسون رؤوسهم نُعاساً ثم يتمدّدون أخيراً لينامو وأقدامُهم نحو النار، وإلى جانبيْهم أصدقاءُ طيّبون، حتّى ساد السكون أخيراً الحلقة كلّها، وعادت تُسمَع من جديد خرخرة الماء وثرثرته عند مَخاضة بيرونا. وأخذ أصلان والقمر يُحدّقان أحدهما إلى الآخر بأعينٍ مبتهجة لا ترفّ أجفانُها.

وفي صباح الغد، بُعث إلى جميع أنحاء البلاد رُسُل (معظمهم من السناجب والطيور) بإعلانٍ إلى جميع التلماريّين المتفرّقين — بمن فيهم طبعاً المحبوسون في بيرونا - يُخبِرون فيه بأنّ كاسبيان هو الملك الجديد الآن وأنّ نارنيا ستصير منذ الآن فصاعداً مِلكاً للحيوانات الناطقة والأقزام والحوريّات والفُونات وسائر المخلوقات، كما هي للآدميّين



على السواء. فمنِ اختار البقاء في الظروف الجديدة يحقّ له ذلك. أمّا أولئك الذين لا تروقهم الفكرة، فسيؤمّن أصلان لهم موطناً جديداً. وأيٌّ من رغب في الذهاب إلى هناك يجب أن يُوافيَ أصلان والملوكَ في مخاضة بيرونا عند ظُهر اليوم الخامس. ويمكنك أن تتصوّر أنّ ذلك سبّب كثيراً من حكّ الدماغ والتفكير بين التلماريّين. وكان بعضٌ منهم، ولا سيّما الصغار، شأنُهم شأنُ كاسبيان، قد سمعوا قصصاً عن الأيّام القديمة، فابتهجوا برجوعها. وكانوا قد بدأوا فعلاً يُصادِقون المخلوقات الأُخرى. هؤلاء، كلُّهم قرّروا البقاء في نارنيا. ولكنّ معظم الرجال الأكبر سنّاً، ولا سيّما أولئك الذين كانوا ذوي أهميّة في عهد ميراز، عبسوا وحنقوا ولم يُبدوا أيّة رغبة في بلدٍ لا يستطيعون فيه أن يحكموا ويسودوا. وقد قالوا: «أنعيش هنا مع كثيرٍ من الحيوانات الحاكمة الظافرة؟ أليس هذا خَطِراً؟» وأضاف بعضهم بارتعاب: «ومع الأشباح أيضاً! فهكذا هُنّ أولئك الحوريّات البريّات هناك حقّاً. إنّ ذلك

غير مُريح أبداً». كذلك ساورتهم الشكوك أيضاً، فكان الواحد منهم يقول: «لا أثق في هؤلاء، وخصوصاً بوجود ذلك الأسد الرهيب وكل ما تبقّى. إنّه لَن يُبقيَ مخالبه بعيدةً عنا مدّةً طويلة، ولَسوف تَرَون!» إلّا أنّهم ارتابوا كذلك أيضاً من جهة عرضه تأمينَ موطنٍ جديد لهم، وتمتموا قائلين: «سيأخُذنا إلى عرينه بعيداً ويأكلنا واحداً بعد واحد على الأرجح». وكلّما كلّموا بعضُهم بعضاً في الأمر ازدادوا عبوساً وارتياباً. ولكنْ في اليوم المحدَّد حضر أكثر من نصفهم.

وعند طرف الفُسحة بينَ الأشجار، أمر أصلان بإقامة دعامتين من خشب أعلى من رأس الإنسان، تبعد إحداهما عن الأُخرى نحو مِتر واحد. ثُمّ رُبطت عارضة ثالثة من الخشب فوقهما أُفقياً، جامعةً بينهما، بحيث بدا ذلك الشيء كلّه أشبه بإطار بابٍ يؤدّي من لامكان إلى لامكان. وأمام ذلك الشيء وقف أصلان نفسه وإلى يمينه بطرس، وإلى يساره كاسبيان. واحتشد حولهم إدمون وسوزان ولوسي وطرمبكن وجانيكما ورئيسُ القضاء كُرنيليوس وعصفُلواد وريبيتشيب وآخرون. وقد استخدم الأولاد والأقزام استخداماً جيّداً خزانات الثياب الملوكيّة في ما كان قصر ميراز قديماً وصار الآن قصر كاسبيان، حتّى بات منظرهم باهراً بما اتّخذوه من حرير وثياب ذهبيّة وكتّانٍ أبيض كالثلج يبرز من تحت أكمامهم المشقوقة، ودروع زَرَد فضّيّة، ومقابضِ سيوف مُرصّعة بالجواهر، وخُوَذ مطليّة

بالذهب وقُبّعات وُضع فيها الريش. حتّى الحيواناتُ تزيّنت بسلاسل ثمينة حول أعناقها. ومع ذلك فلم تكن عينا أحد عليها أو على الأولاد. إذ إنّ الذهَب الحيّ والقابل للتربيت في لُبدة أصلان فاق الجميع بهاءً وضياء! أمّا باقي النارنيانيّين القدامى فقد وقفوا عند كِلا طرَفي الفُسحة، فيما وقف التلماريّون عند الطرف الأقصى. وقد كانت الشمس ساطعة، والأعلام تُرفرف في الريح الخفيفة.

ثمّ قال أصلان: «يا أهل تِلمار، يا مَن تطلبون موطناً جديداً، اسمعوا كلامي. سأرسِلكم جميعاً إلى بلدكم الخاص الذي أعرفه أنا ولا تعرفونه أنتم».

فدمدم التلماريّون: «إنّنا لا نتذكّر تِلمار. ولا نعرف أين هي. ولا نعرف حقيقتها وأحوالها».

فقال أصلان: «لقد جئتم إلى نارنيا آتين من تلمار. ولكنّكم دخلتم تِلمار من مكان آخر. فأنتم لا تنتمون إلى هذا العالم أبداً. فإنّكم جئتم إلى هنا، قبل أجيال عديدة، آتين من العالم نفسه الذي إليه ينتمي بطرسُ الملك الأعلى».

عندئذٍ أخذ نصف التلماريّين يتذمّرون: «هل رأيتم حقيقة الأمر؟ لقد قُلنا لكم ذلك. إنّه سوف يقتلنا جميعاً، مُخرِجاً إيّانا حالاً من العالم». وأخذ النصف الآخر يكشفون ما في قلوبهم ويصفعون بعضهم بعضاً على ظهورهم ويتهامسون: «أرأيتُم حقيقة الأمر؟ كان ينبغي أن نحزر أنّنا لا ننتمي إلى هذا المكان بمخلوقاته الغريبة الدنيئة

غير الطبيعيّة. في عروقنا دمٌ ملوكيّ، وسترَون هذا». حتّى كاسبيان وكُرنيليوس والأولاد التفتوا إلى أصلان وعلى وجوههم ملامحُ الدهشة والذهول.

وقال أصلان: «سكوتاً!» بالصوت المنخفض الذي كان أقرب إلى زمجرته. وبدا أنَّ الأرض اهتزّت قليلاً، وصار كلُّ كائنٍ حيٍّ في البستان صامتاً وساكناً كالحجر.

ثمَّ قال أصلان: «وأنت، يا سيّدُ كاسبيان، كان ينبغي أن تعرف أنّه لا يمكنك أن تكون مَلِكاً حقيقيّاً في نارنيا، مِثلُك مَثلُ الملوك الأقدمين، إلّا إذا كنت ابناً لآدم وجئتَ من عالم بني آدم. وهكذا أنت! فمنذ سنين كثيرة مضت في ذلك العالم، في بحرٍ عميق من ذلك العالَم يُدعى البحر الجنوبيّ، جرفت العاصفةُ إلى شطّ جزيرة سفينةً ملأى بالقراصنة. وهنالك فعلوا كما يفعل القراصنة: قتلوا السكّان الأصليّين، واتّخذوا نساءهم زوجاتٍ لهم، وصنعوا من البَلَح نبيذاً، وشربوا وسكروا، وتمدّدوا في أفياء شجر البَلَح، وقاموا وتخاصموا، وكانوا أحياناً يقتلون بعضهم بعضاً. وفي واحدة من تلك المُشاجرات، اضطرتْ الجماعة ستّةٌ منهم أن يهربوا مع نسائهم إلى وسط الجزيرة، حيث صعدوا إلى جبل ودخلوا – كما اعتقدوا – كهفاً ليختبئوا فيه. ولكنّه كان أحد الأماكن المسحورة في ذلك العالم، أحد الشقوق أو المجازات بين العوالم في الأزمنة القديمة، ولكنّ تلك الأماكن صارت نادرة جدّاً. فكان ذلك واحداً من آخِر الأمكنة، ولستُ أقول آخرَها. وهكذا

سقطوا، أوِ ارتفعوا، أو زلّوا، أو هبطوا مباشرةً، فوجدوا أنفسهم في هذا العالم، في أرض تِلمار التي لم تكن مأهولة آنذاك. أمّا سبب خلوّها من السكّان فقصّته طويلة، ولن أحكيَها الآن. وفي تلمار عاش أولادهم وحفدتهم، وصاروا قوماً عُنَفاء ومتكبّرين. وبعد أجيالٍ كثيرة حلّت مجاعة في تلمار، فغزَوا نارنيا، وقد كانت عندئذٍ في حالةِ فوضى نسبيّة (وهذه أيضاً قصّة تطول)، فهزموها وحكموها. أفهمتَ هذا جيّداً، أيّها الملك كاسبيان؟»

فقال كاسبيان: «نعم يا سيّدي! وكنتُ أتمنّى لو تحدّرتُ من سُلالةٍ أشرف».

وأجاب أصلان: «أنتَ سليلُ السيّد آدم والسيّدة حوّاء. وهذا شرَف عظيم يرفع رأس أفقر الشحّاذين، وعارٌ شائنٌ بحيث يَحني كتِفَي أعظم إمبراطور على الأرض. فكُن راضياً!»

فانحنى كاسبيان أمام أصلان.

ثمّ قال أصلان: «والآن، يا رجال تلمار ونساءها، هل ترجعون إلى تلك الجزيرة في عالم البشر، مِن حيثُ جاء أجدادُكم أوّلاً؟ إنّها ليست مكاناً رديئاً. فإنّ نسل أولئك القراصنة الذين عثروا عليها أوّلاً قدِ انقطع، وهي تخلو من السكّان. وفيها آبار صالحة ذات مياه عذبة، وتربة مُثمرة، وخشب للبناء، وسمكٌ في البحيرات الضّحلة؛ وآدميّو ذلك العالم لم يكتشفوها بعد. وها هو الشِقّ مفتوح لرجوعكم. إنّما ينبغي لي أن أُنبّهكم إلى أنّه ما إن تعبرونه

حتّى ينغلق وراءكم إلى الأبد. ولن يكون بعدُ تواصُلٌ بين العوالمِ بواسطة ذلك الباب».

وساد صمتٌ حيناً. ثمّ اندفع إلى الأمام من بين الجنود التلماريّين شابٌّ قويُّ البنية شريف الملامح، وقال:

«حسناً، سأقبل العَرض!»

فقال أصلان: «أحسنتَ الاختيار. ولأنك تكلّمتَ قبل غيرك، فعليك سحرٌ قوي. ومستقبلك في ذلك العالم سيكون جيّداً. تقدَّم!»



فتقدّم الرجل، وقد شحب وجهه قليلاً. وتنحّى أصلان وحاشيته جانباً، مُفسِحين له في المجال حتّى يتقدّم إلى إطار الباب الفارغ.

وقال أصلان للرجل: «ادخل فيه يا بُنيّ!» مُنحنياً صوبَه وماسّاً أنفه بأنفه. وما إن لامسه نَفَس الأسد، حتّى

بدت في عينيه نظرة جديدة تنمُّ عن ذهول، إنّما ليس عنِ استياء، وكأنّه يحاول أن يتذكّرَ شيئاً ما. ثمّ قوّم كتفَيه ومشى عبرَ الباب.

كانت أنظار الجميع شاخصةً إليه. وقد شاهدوا قِطع الخشب الثلاث، ومن خلالها شجرَ نارنيا وعُشبَها وفضاءها. وشاهدوا الرجُل بين قائمتي الباب، وبعد ثانيةٍ واحدة تلاشى تماماً!

وعند الطرف الآخر من الفُسحة، أقام التلماريّون الباقون مناحةً: «ويلاه! ماذا جرى له؟ أتقصدُ قتلنا؟ لَن تدخل هذا الباب!» ثمّ قال واحدٌ من التلماريّين الأذكياء:

«نحن لا نرى أيّ عالَم آخر من خلال هذه الخَشَبات. إذا كنتَ تريد منّا أن نصدّق هذا، فلماذا لا يدخل واحدٌ منكم أنتم؟ فإنّ جميع أصدقائك الأقربين مُبتعِدون عن الخشبات!»

وفي الحال تقدّم ريبيتشيب إلى الأمام وقال بعد الانحناء: «إذا كان ممكناً أن تكون قُدوتي أنا ذات فائدةٍ، يا أصلان، فسأُدخِل أحد عشر فأراً عبر ذلك الإطار حالما تأمُرني، بغير تردُّد لحظة واحدة!»

فقال أصلان وهو يضع مخلبه المخمليّ على رأس ريبيتشيب بأخفّ ما يمكن: «كلّا يا صغيري! فإنّهم يعملون بكم أموراً فظيعة في ذلك العالم، كما يعرضونكم في المعارض. على آخرين غيركم أن يتقدّموا».

وقال بطرس لإدمون ولوسي فجأةً: «هيّا! لقد حان وقتُنا».

فسأل إدمون: «ماذا تقصد؟»

وقالت سوزان، وقد بدا أنّها عرفت المقصود تماماً: «بهذا الاتّجاه، رجوعاً إلى وسط الأشجار. علينا أن نُغيِّر!»

فسألت لوسي: «نُغيِّر ماذا؟»

وقالت سوزان: «ثيابَنا، طبعاً. فكم سنبدو أغبياء أردياء على رصيف تلك المحطّة في إنكلترة ونحنُ لابسون هذه الملابس!»

وقال إدمون: «ولكنّ أغراضنا الأُخرى موجودة في قصر كاسبيان».

فقال بطرس، وهو ما زال يتقدّمهم إلى قلب الغابة الأكثر كثافةً: «لا، ليست هي هناك. إنّها هنا، وقد أُحضِرَت في صُوَر هذا الصباح. لقد تمّ ترتيبُ كلّ شيء!»

وسألت لوسي: «أهذا ما كان يتحدّث عنه أصلان إليكَ وإلى سوزان هذا الصباح؟»

فأجاب بطرس وعلامات الجِدّ البالغ على وجهه: «نعم، عن هذا، وعن أمور أخرى. ولا يمكنني الآن أن أكشف كلّ شيء. فإنّه أراد أن يقول لي ولسوزان أموراً معيّنة لأنّنا لن نرجع إلى نارنيا».

وصاح إدمون ولوسي خائبَين: «أبداً؟»

فأجابهما بطرس: «أنتما الاثنين سترجعان. فمِمّا قاله، على الأقلّ، تأكّد لي جيّداً أنّه يقصد لكما أن ترجعا ذات

يوم. أمّا سوزان وأنا، فلا! إذ يقول إنّنا نكبر في السنّ كثيراً».

وقالت لوسي: «آه يا بطرس! يا لهُ من حظٍّ تَعِس جدّاً! أيمكنك احتمال هذا؟»

كان أمراً غريباً، وغيرَ سارٍّ كثيراً، أن يخلعوا ثيابهم الملوكيّة، ثمّ يرجعوا إلى الاجتماع الحاشد في ثيابهم الخاصّة بالمدرسة (ولم تعُد الآن مكويّة جيّداً ومرتّبة كما كانت). وقد سخر بهم واحدٌ أو اثنانِ من التلماريّين الأسوإ خُلقاً. إلّا أنّ جميع المخلوقات الأُخرى أخذت تُطلِق هتافات التحيّة ووقفت إجلالاً لبطرس الملك الأعلى، والملكة سوزان صاحبة البوق، والملك إدمون، والملكة لوسي. وجرى وداعٌ عاطفيٌّ مؤثّر سالت فيه دموع (من قِبَل لوسي) لجميع أصدقائهم القدامى، وتخلّلته قُبلات رقيقة من الحيوانات وعناقٌ من الدببَة السِّمان وعصرُ أيدٍ من طرَمبكن، ثمّ معانقة مُدَغدِغة من جانيكماً تدخُل فيها شارباه. وطبعاً، عرض كاسبيان أن يردّ البوق لسوزان، ولكنّ سوزان طلبت إليه بالطبع أن يحتفظ به.

أخيراً ودّعوا أصلان نفسه وداعاً عجيباً وكئيباً. ثمّ وقف بطرس في المقدّمة وكفّاً سوزان على كتِفَيه، وكفّا إدمون على كتفي سوزان، وكفّا لوسي على كتفَي إدمون، وكفّا أوّل تِلماريٍّ على كتِفَي لوسي، وهكذا دواليك، في صفٍّ طويل. ثمّ تقدّم الجميع إلى الأمام نحو الباب. وبعد ذلك حلّت لحظة يصعب وصفُها، إذ بدا أنّ

الأولاد يرَون ثلاثة أشياء في آنٍ واحد. وقد كان أحدُها فوّهة كهف تنفتح على جزيرة في المحيط الهادئ رائعة الخُضرة والزُّرقة، حيث سيجد جميع التلماريّين أنفسهم لحظة عبورهم الباب. وكان الثاني فسحة بين الشجر في نارنيا لاحت فيها وجوه الأقزام والحيوانات، وعينا أصلان العميقتان، والرُّقَطُ البيضاء على خدّي الغُرَير. أمّا الشيء الثالث (وقد ابتلع سريعاً الآخَرين) فهو الأرضيّة الرماديّة المفروشة بالحصى على رصيف محطّة قطارٍ ريفيّة، ومقعدٌ حوله أمتعة سفر، حيث كانوا جالسين كلهم وكأنّهم لم يتزحزحوا عنه قطّ. وقد بدا ذلك، هُنيهةً، جافّاً وموحِشاً بعض الشيء، بعد كلّ ما خاضوه. ولكنّه أيضاً – وعلى غير توقُّع – بدا جميلاً على طريقته الخاصّة، برائحة سكّة الحديد المألوفة وسماء إنكلترة المعهودة والفصلِ الدراسي الذي ينتظرهم.

عندئذٍ قال بطرس: «حسناً! لقد تمتّعنا بوقتٍ رائع!»

وقال إدمون: «أفّ! لقد تركتُ مصباحي اليدويّ في نارنيا».



رحلة جوابة الفجر

كان قضاء إدمون ولوسي عطلةَ الصيف مع ابن خالتهما البغيض يُسطاس أمراً رائعاً جداً. كانوا يحملقون بكآبةٍ إلى صورةِ سفينة مُقدّمُها تنين، حين ببطءٍ بدأت السفينة تترجح، والريح تهب. وفي لمحة بصرٍ، اختفى إطار الصورة، ودُفِع بالأولاد الثلاثة إلى الأمواج. وإذ أمسك الأولاد بالحبال التي أُلقيت إليهم، تسلقوا لينعموا بأمانِ السفينة.

حين استقرت لوسي في حجرتها، تولّد لديها يقين بأنهم سيقضون وقتاً ممتعاً. وقد كان الأمر كذلك فعلاً. فقد انضموا إلى الملك كاسپيان في بحثه عن أصدقاء والده السبعة، الذين اختفوا قبل فترةٍ طويلة في رحلةٍ خطِرة قاموا بها إلى الجزر الشرقية.

هذه مغامرة خامسة في روايات «عالم نارنيا» المثير.